BOBST LIBRARY
3 1142 01241 3293

GENERAL UNIVERSITY
LIBRARY

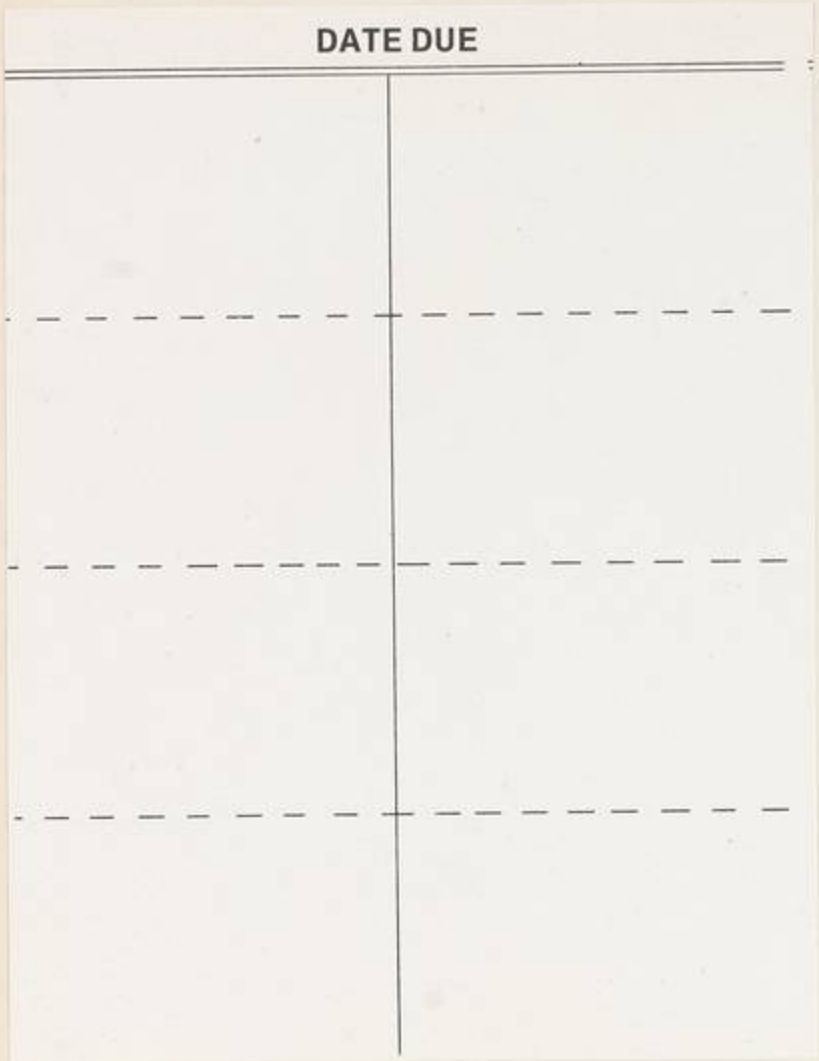
DATE DUE

Khālis, Ṣalāḥ

Muḥammad ibn ʻAmmār al-Andalusī

محمّد بن عمّار
الأندلسي

دراسة أدبية تأريخيه

لأئمة شخصية سياسية في تأريخ دولة بني عباد

في اشبيلية

تأليف

الدكتور صلاح خالص

مدرس الأدب الأندلسي في كلية الآداب والعلوم

ببغداد

مطبعة الهدى - بغداد

١٩٥٧

Near East

PJ
7755
.I199
.Z7
c.1

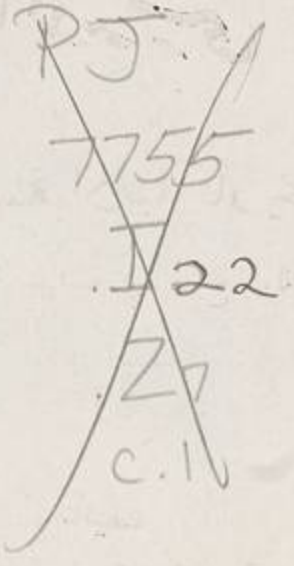

الاهداء

الى المكافحين في غياهب ظلمات الجهل من أجل نور المعرفة ..
الى المناضلين في أغلال الاستعباد من اجل الحرية ..
رمز تقدير وأعجاب

المؤلف

مقدمة

كان جديراً بهذا الكتاب أن يظهر بعد دراستين تسبقانه ، تمهدان له الطريق وتهيئان له السبيل ، الأولى دراسة تأريخية اجتماعية وسياسية عن فترة ملوك الطوائف في الأندلس ونشوء دولة بني عباد في إشبيلية . والثانية دراسة تفصيلية عن المعتمد بن عباد الاشبيلي ، وهو مركز الحركة الأدبية الأندلسية في النصف الثاني من القرن الخامس ، وقطبها الذي تدور حوله ، والذي له في حياة جل شعراء إشبيلية في هذا العصر أثر غير قليل . ولكن ظروفاً خاصة اضطرتنا لنشر هذا الكتاب قبل سابقيه وهو كما يرى القارىء ، قائم بذاته وذو وحدة موضوعية كاملة ولم أشأ كما يفعل كثير من الكتاب ـ أن أطنب في حديث طويل عن بيئة الشاعر الاجتماعية وظروفه التأريخية ، بل آثرت أن اختصر الحديث في هذا الموضوع في الصفحات التالية التي مهدت فيها للبحث ، على أن أترك للدراستين اللتين آمل ظهورهما في الشهور القليلة القادمة مهمة البحث باسهاب عن البيئة الاجتماعية والظروف السياسية التي أحاطت بالشاعر وأثرت في حياته وفي تكوين مقومات شخصيته .

والكتاب ـ كما يرى القارىء ـ قسمان ، أحدهما ، دراسة عن حياة الشاعر وشعره . وأعتقد أن أهمية هذه الدراسة لا ترجع لما فيها من معلومات محققة عن حياة الشاعر وشعره فقط ، وإنما لاسلوب البحث ذاته أيضاً . فقد شاعت منذ مطلع القرن العشرين طريقة سقيمة في دراسة الأدب

والأدباء ، أفقدت الأدب كثيراً من حلاوته وطراوته ، وهي تلك التي اتبعت في جل كتب تأريخ الأدب الحديثة ، والتي يعكف فيها الباحث على الشاعر فيضم كل مايعثر عليه من أخبار عن حياته بعضه الى البعض الآخر في ترجمة طويلة ، ثم ينتقل بعد ذلك الى شعر الشاعر ، فيقدم نماذج من أغراضه المختلفة معلقاً على كل غرض من هذه الأغراض بما يعن له من خواطر وآراء ، واذا بالقارىء يمر على النصوص مراً ، ويبذل مايبذل من جهد لكي يستوعب الافكار التي تحتويها والتيارات العاطفية التي تتخللها ، فلا يصل الى ذلك إلا بعد مشقة وعسر قد لا يقوى عليها القارىء الاعتيادي ..

أما أسلوبنا هذا الذي اتبعناه في البحث ، فهو يهدف الى رسم صورة قوية للاديب والتغلغل في أعماقه ومتابعته في حياته وملاحظة تطور مشاعره ونفسيته وأخلاقه الناتج عن تطور ظروفه ، وإدراك تأثير كل ذلك في إنتاجه الأدبي . وهكذا يشاهد القارىء مولد النص ويدرك بواعث هذه الولادة وعواملها وظروفها ويستوعب التيارات الشعورية التي اجتاحت نفس الشاعر وملكت عليه عواطفه ودفعته الى النظم ، ويحسن إحساساً عميقاً بالقوى الملهمة للاديب ويعرف تأثيرها دون مشقة وعسر ، فهي تفرض نفسها عليه فرضاً ثم إن القارىء بعد كل هذا يتابع تطور الأديب في إنتاجه الأدبي ، كما لاحظ تطور حياته ونفسيته وأخلاقه ومشاعره ، ويدرك عوامل هذا التطور في هذا الانتاج وأسبابها ، فيتحقق الغرض من دراسة تأريخ الأدب إن كل هذه المزايا لا يمكن أن تتحقق بالطريقة السقيمة

الشائعة التى أشرنا اليها .

ولا أزعم طبعاً ، أنى أول من اتبع هذا الاسلوب فى البحث او سلك هـــذا الطريق فى دراسة الأدب ، فقد سبقني الى ذلك أدباء من العرب والغربيين ، وإن كان الأولون قلة لاتتجاوز أصابـع اليد الواحدة ، أخص بالذكر منهم الدكتور طه حسين في كتابه « مع المتنبي » . وأما الغربيون فهذه طريقتهم المثلى وأسلوبهم الشائع في دراسة أدبائهم . متابعة تطوراً دبهم

وقد حرصت على تقديم ابن عمار إنساناً كبقية البشـــر ، له محاسنه ومثالبه ، فلم أحاول أن أسبغ عليه ثوباً براقاً من العظمة والمجد ، كما لم أتجه الى النيل منه والحط من قدره ، وإنما حاولت تصويره كما هو ، معتمداً ،أولا على شعره ، وثانياً على ماوردنا من أخبار وثيقة عن حياته ، فحرصت على أن أعيش معه في طفولته المشردة وصباه المعسر الكئيب ، وانتقلت معه في كفاحه من أجل الحياة الى حين ارتقائه سلم المجد وبلوغه ذروة العظمة والسلطان ، ثم تابعته بعد ذلك في انحداره الفظيع الى درك الذل والأسر حتى بلوغه نهايته المفجعة .

ولـكن أهمية دراسة حياة ابن عمار لاتقتصر على كونه إنساناً فحسب ، وإنما تتعدى ذلك الى كونه إنساناً عاش فى عصر معين . ففيه يتمثل جانب مهم جداً من عصره ، بل إننا نرى فى حياته صورة لتلك الفترة المضطربة التى مرت على مسلمي الأندلس فى القرن الخامس الهجرى ، بما فيها من صخب وضجيج ، بما فيها من تيارات سياسية وأزمات اجتماعية ، ومشاكل

مصدرها هذا الوضع الخاص الذى كان يتميز به المسلمون فى اسبانية آنذاك . إن أبا بكر بن عمار كان في الواقع من أولئك الاشخاص الفلائل الذين يتمثل فى حياتهم جانب مهم ، بل جوانب مهمة ، من حياة مجتمعهم كل التمثيل . ولا شك في أن القارىء سيجد عند انتهائه من قراءه هذا البحث ، أنه لم يدرس حياة شخص واحد فقط ، وإنما اطلع على جانب من أهم جوانب حياة المجتمع الأندلسى في القرن الخامس الهجرى .

ولا ريب أن قلة الأخبار وندرة المصادر كانتا العقبة الكأداء التى حالت دون ملء الفراغات التى يجدها القارىء في حياة الشاعر ، مع أننا لم نأل جهداً في البحث عن المصادر المطبوعة والخطية في مظانها ، فزرنا جل مكانب المخطوطات في اوربا وشمال افريقية ، وكان لهذه الجهود دون شك الفضل فى ظهور هذه الدراسة بالشكل الذى تظهر فيه الآن ، ومع ذلك فلنا كبير الأمل بالعثور على مخطوطات جديدة قد تملأ بعض الفترات التى لانزال نجهلها في حياة الشاعر .

وقد اقتصرنا في مصادر البحث التى ذكرناها هنا ، على المصادر الرئيسية التى زودتنا بشىء عن حياة الشاعر أو عن أدبه ، أما تلك التى لم نفد منها فقد آثرنا عدم ايرادها ، لأنها ليست من يصح الاعتماد عليه في دراسة حياة الشاعر ومن هذه جل الدراسات الحديثة .

بغداد في آب ١٩٥٧ — صلاح خالص

الموافق المحرم ١٣٧٧

تمهيد تأريخي

أهم ما يلفت النظر فى تأريخ المسلمين في الأندلس ، هى الأحداث الخطيرة التى حدثت في أوائل القرن الخامس الهجرى والتى كان من نتيجتها انحلال الخلافة في قرطبة وابتداء فترة ملوك الطوائف . وما كانت هذه الاحداث لتحصل على ما حصلت عليه من أهمية واهتمام لولا أنها جاءت مباشرة بعد بلوغ الخلافة الاسلامية فى إسبانيا ذروة العظمة والمجد والقوة ، ولولا أنها تلت فترة منعة وازدهار سياسى وانتصارات خارجية رائعة واستتباب داخلي تام . أقول إن هذه الأحداث التى أطلق عليها المؤرخون اسم « الفتنة » ما كانت لتلفت النظر وتجلب الاهتمام وتصبح موضع نقاش وجدال ، لولا انها أعقبت مباشرة عصر حكم المنصور بن أبى عامر وابنيه عبد الملك المظفر وعبد الرحمن شنجول ، عصر عظمه دولة المسلمين في الأندلس ومجدهم السياسى والعسكرى الزاهر .

كيف جاز لدولة قوية منيعة كتلك التى بناها عبد الرحمن الناصر وأسندها الحاجب المنصور وابنه الحاجب المظفر ، أن تنهار وتتداعى فجأة ولما يمض على وفاة الأخير غير عامين ، لم يبد قبلها في الدولة أى أثر من آثار الضعف أو علامة من علامات الوهن كما يجمع تقريباً كل المؤرخين ؟! . صحيح أن مثالب كثيرة تعزى إلى عبد الرحمن بن أبى عامر ، ولكن سنتين اثنتين ليستا كافيتين على كل حال لتصدع بناء متين وكيان قوى كذلك الذى بدا في دولة عبد الرحمن الناصر وبنى عامر ! . . فكيف يمكن

تفسير ظاهرة مثل هذه ؟ . . إن من المؤكد أن أسباب هذا التصدع لم تكن خارجية ، إذ لم تكن الدولة الاسلامية في إسبانية فريسة عدو خارجى هد كيانها وصدع أركانها ، وانما انهارت وتداعت نتيجة أسباب داخلية ليس غير ، ولا شك أن هذه الاسباب الداخلية لم تكن وليدة عام أو عامين وانما كانت جذورها تمتد موغلة فى كيان الدولة ، إلا أنها لم تكن ناضجة متبلورة لكي تحدث ما يجب أن تحدث من نتائج ، أو أن عوامل أخرى أقوى منها منعت ظهورها وأوقفت مفعولها ، حتى إذا زالت هذه العوامل وضعفت انفسح المجال لأسباب التصـــدع والانهيار لتؤتى أكلها وتنتج ثمارها .

ولسنا الآن بصدد بحث هذه العوامل بتفصيل فسيرد تحليل الحالة الاجتماعية والسياسية التي أدت إلى ذلك فى دراستنا التي نأمل صدورها قريباً عن « إشبيلية في القرن الخامس الهجرى » إذ سيبدو بوضوح من هذه الدراسة أن القوى الاجتماعية التي كانت تستند إليها الحكومة القائمة في زمن العامريين لم تكن متماسكة كل التماسك . فالأرستقراطية القرطبية كانت منشقة على نفسها ، ففريق التف حول بني عامر ، وفريق تجمع حول بني أمية الذين كانوا ينظرون بغيظ الى استئثار العامريين بالحكم . وكانت العامة ، كما هو حالها فى اكثر الاحيان ، بمعزل عن الحكام . وقد ابتدأ موقفهـــا السلبي يتحول إلى تمرد إيجابى عنـــدما ابتدأت تضيق بالبربر من زناتة وصنهاجه الذى استقدمهم بنو عامر لاستخدامهم محاربين ممتهنين فى غزواتهم

ضد نصارى الشمال ، فكانت على استعداد للاستجابة لكل دعوة للثورة عند سنوح الفرصة . أما القوى العسكرية التي كان يعتمد عليها العامريون وجلها من البربر القادمين من أفريقية الشمالية ، فقد بدت هي أيضا بعيدة عن أن تكون موضع ثقة في نزاع داخلي لا ناقة لها فيه ولا جمل . لذا لم يكن من المستغرب ألا يبدى هؤلاء البربر حماسا في الدفاع عن عبد الرحمن ابن أبي عامر عندما ثار ضده أمراء بني أمية بقيادة محمد بن هشام بن عبد الجبار المهدى وساندهم العامة في قرطبة في ثورتهم وفي تنكيلهم بابن أبي عامر ، فقد فضل زاوى بن زيرى قائد البربر عدم الدخول فى نزاع دام المدفاع عن بني عامر وآثر تقديم طاعته للملك الجديد . إلا أن البربر لم يستطيعوا الاحتفاظ بموقفهم هذا . فقد كانوا موضع احتقار العامة واعتداءاتهم كما لم يحظوا بتقدير الأمير الجديد ورعايته ، وكتب التاريخ حافلة بالاشارات الواضحه لهذا الحال ، فاندفعوا لتأييد طامع جديد بالعرش هو سليمان بن الحكم المستعين ، وهكذا دخلوا فى معركة دموية سافرة مع الفرطميين ، سالت فيها الدماء سيولا وانتهبت الأموال وخربت المنازل والبيوت . ومرت عشرون عاماً على العاصمة الاندلسية وهي مسرح لهذا النزاع المريع أطلق عليها المؤرخون اسم « الفتنه » ، ولم تنته إلا بترك البربر لقرطبة والتجائهم الى منطقة غرناطة حيث أقاموا دولة بني زيرى ، و باتفاق وجهاء قرطبة على إدارة شؤونهم بأنفسهم والعدول عن انتخاب خليفة جديد بعد اختفاء هشام المعتد بالله .

إذن فأول أسباب هذا التصدع الداخلي فى دولة بني عامر - كما هو الحال فى أى تصدع داخلي لأية دولة أخرى - هو أن الكيان السياسى الذى بناه عبد الرحمن الناصر وأسنده الحاجب المنصور لم يكن قائما على أسس رصينة متينة ، ومكونا من كتل متماسكة متراصة ، رغم قوتها الظاهرة ، فان تحليلا دقيقاً للمجتمع الأندلسي لا يترك مجالا للشك فى ذلك .

أما السبب الآخر الذى ساعد على تصدع دولة قرطبة وقيام ملوك الطوائف فى مخلف المدن الأندلسية فهو نتيجة طبيعية لتطور المجتمع الأندلسى. فان خضوع المدن الأندلسية الكبيرة لقرطبة لم يعد ممكنا بعد أن تطورت هذه المدن ونشأت فيها أرستقراطية محلية مستقرة عميقة الجذور ذات حول وطول . . . أقول لم يعد ممكنا خضوع هذه المدن طائعة لقرطبة ، بعد أن وصلت الى ما وصلت إليه من ازدهار وتقدم ، كما لم يكن لدى قرطبة من القوة ما تستطيع بها فرض سلطانها على هذه المدن ، فكان طبيعيا استقلال هذه الأخيرة وإصرارها على إدارة شئونها بنفسها . وقد كانت الخلافات والثورات فى بدء حكم الأمويين فى الأندلس تأخذ شكل منافسات فردية حول العرش ، تستغل فيها القوى الاجتماعية المستاءة أو المناوئة للحاكمين كالفلاحين والعامة ، ولكن تمرد ملوك الطوائف امتداد طبيعى لتنامي نفوذ الأرستقراطية المحلية واشتداد ارتباطها بمواطنها وشعورها بامكانية الاكتفاء بنفسها والاستغناء عن أية سلطة مركزية . وهكذا استأثر وجهاء إشبيلية وعلى رأسهم بنو عباد بالحكم فى مدينتهم ، واستأثر وجهاء

بطليوس وعلى راسهم بنو الأفطس بالحكم فى بطليوس ، وقل مثل ذلك عن بقية الكور والمدن الأندلسية . وابتدأ نزاع دام مرير يبتلع القوى فيه الضعيف ، حتى بدا خطر المسيحيين فى الشمال وتعاظم وأصبح نظام ملوك الطوائف غير قادر على الثبات أمام الوضع السياسى الجديد فى شبه جزيرة ايبيريا ، فكان لابد له أن ينتهى ، وكان أن ساعد على انتهائه تدخل المرابطين فى الربع الأخير من القرن الخامس الهجرى .

قلنا إننا لسنا الآن بصدد البحث فى تفصيلات هـذا الموضوع ، بل نكتفي بالاشارة إلى النقاط الرئيسة التي مر ذكرهـا فقط والتي لايمكن التوصل إليها دون دراسة عميقة للأحوال الاجتماعية والأوضاع السياسية للمجتمع الأندلسى فى مطلع القرن الخامس .

فى هـذه الظروف التي مرت الاشارة إليها اتفق وجهاء إشبيلية على الاستقلال فى مدينتهم فسدوا أبوابها أمام المتنافسين على عرش الخلافة فى قرطبة من الحموديين ، وهم أسـرة تنتسب إلى الأدارسة من أولاد فاطمة ، عاشت فى المغرب الأقصـى بين البربر وتأثرت بثقافتهم وحظيت بتأييدهم واستطاعت انتزاع الخلافة فى قرطبة مدة من الزمن فى أثناء فترة الفتنة فتولى الحكم منهم على بن حمود ثم أخوه القاسم الذى نافسه على عرش الخلافة ابن أخيه يحيى بن علي واستطاع انتزاعه منه . وقد ابتدأت إشبيليه تمردها عام ٤١٤هـ عندما رفض الاشبيليون فتح ابواب مدينتهم أمام القاسم بن حمود الذى اضطر على ترك قرطبة إثر ضغط أتباع ابن أخيه يحى عليه ، كما

امتنعوا عن تسليم مدينتهم ليحيى هـذا عندما طلب منهم ذلك ، وتهيأوا للدفاع عنهـا وكونوا مجلساً من وجهاء المدينة وثراتها لادارتها ، كان على رأسهم القاضي أبو القاسم بن عباد ، أغنى وجهاء إشبيلية وأفخمهم ثراءا . وهكذا بدأت مملكة بني عباد ، أقوى دويلات ملوك الطوائف وا كثرها نفوذا وأوسعها ثراءا وقوة .

ولم يكن هذا الانحلال السياسى لدولة قرطبة ظاهرة من ظواهر الانحلال الاجتماعى او الفكرى ، فقـد صاحبه ، على العكس من ذلك ، ازدهار فكرى ، بل وتطور اجتماعى نضج إثره المجتمع الأندلسـى وا كتسب صفاته المميزة وشخصيته الخاصة . فنحن حين نتحدث عن الفرد الأندلسي أو الثقافة الاندلسية ، أو الأدب الأندلسـى أو الشخصية الأندلسية ، فانما نتحدث فى الواقع عن كل ذلك فى القرن الخامس الهجرى على وجه الخصوص فقد كانت القرون الثلاثة السابقة فترة انصهار العناصر المكونة للمجتمع الأندلسى وامتزاجها مع بعضها البعض ـ أما القرون التي تلت القرن الخامس فقد تدخلت عناصر خارجية (ولا سيما المرابطون والموحدون من بربر شمـال أفريقية) فى حياة هـذا المجتمع السياسية والاجتماعية والفكرية .

وهكذا يتميز القرن الخامس من بين جميع القرون فى إسبانية رغم الانحلال السياسى وتفكك الدولة فيه . فلا غرابة إذن فى أن نرى أكبر الشعراء الأندلسيين وأبرزهم فى هـذا العصر ، كابن زيدون والمعتمد

ابن عباد وابن خفاجه وابن وهبون وابن اللبانة وابن عمار وغيرهم .

وقد حكم فى شبيلية من بنى عباد ثلاثة ملوك ، أولهم القاضي ابو القاسم محمد بن عباد الذى تربع على دست الحكم من عام ٤١٤ هـ (١٠٢٢م) حتى عام ٤٣١ هـ (١٠٣٩م) وثانيهم ابنه عباد بن محمد بن عباد الملقب بالمعتضد والذى حكم من عام ٤٣١هـ حتى عام ٤٦١ هـ (١٠٦٩م) ، وأخيرا محمد بن عباد الملقب بالمعتمد الذى تولى الحكم بعد أبيه المعتضد عام ٤٦١هـ وبقي فيه حتى خلعه المرابطون عام ٤٨٤هـ (١٠٩٢م) ، قضى بعده اربع سنوات في المنفى حتى توفى فى اغمات عام ٤٨٨هـ (١٠٩٦م) أسيراً بائسا غريبا . بعد أن ترك لنا أروع قصائده الباكيه الشجية

اما القاضي أبو القاسم بن عباد فقد قضى فترة حكمه فى تثبيت دعائم دولته والقضاء على منافسيه فى الداخل والاستئثار بالحكم وضرب كل قوى المعارضة دون شفقة او رحمة ، حتى إذا جاء ابنه عباد المعتضد إلى الحكم وجد امامه دولة موطدة الأركان ثابتة الدعائم لحد كبير ، فاتجه نحو جيرانه من حكام المقاطعات والحصون الصغيرة فنكل بهم ووسع رقعة مملكة بنى عباد حتى شملت جميع المنطقة الجنوبية الغربية من الأندلس ، وجعل من هذه المملكة أقوى ممالك الطوائف فى الأندلس واشدها بأسا واكثرها ثراءا وازدهارا .

وهكذا جاء المعتمد فوجد أمامه مملكة موطدة الأركان فى الداخل مرهوبة الجانب من قبل دول الطوائف فى الخارج فسار على خطة سلفه

فى توسيع رقعة مملكته ، فضم إليهـــا قرطبة وكثيرا من المنـــاطق والحصون الأخرى .

ولـكن خطراجديدا ظهر فى الأفق وابتـ أ يهدد ميزان القوى فى شبه جزيرة ايبريا ؛ وهو خطر المسيحيين فى الشمال الذين اتحدت إماراتهم تحت لواء فرديناند الأول ثم تحت لواء الفونس السادس بعده ، وأبتدات تهدد الامارات الاسلامية الصغيرة بالويل والثبور . وعبثـــا حاول ملوك الطوائف تجنب هذا الخطر بعقد المعاهدات ودفع الأتاوات .

لقد كان لابد من دخول قوة جديدة تحفظ توازن القوى فى شبه الجزيرة وتوقف نصارى الشمال ـ ولو لوقت ما ـ عندحدهم . فكان المرابطون البربر الذين جاءوا من شمال افريقية هم هذه القوة . إذن فقد كان مجيء هؤلاء المرابطين أمرا لازما فرضته الظروف التأريخية ، ولم يكن بامكان المعتمد او غير المعتمد إبقاء نظام ملوك الطوائف بعد أن أصبح عاجزا عن الاحتفاظ بكيانه والوقوف فى وجه أعدائه .

كانت الأرستقراطية الاندلسية فى القرن الخامس مثقفة ، تعنى بالعلم والأدب ، فاحتضنت العلماء والادباء وبسطت عليهم ظلها ورعايتها ووجهتهم فى الوقت نفسه لتنفيذ أغراضها وتحقيق مآربها وكان بنو عباد من بين جميع الأسر الأرستقراطية أوسعهم ثقافة واكثرهم ميلا للأدب واهتماما بالعلم ورعاية لأهلها بل إن جل من نعرف من ملوك بنى عباد وأمرائهم كانوا من الشعراء والأدباء ، فللقاضي ابى القاسم بن عباد آثار ادبية متناثرة في

كتب الأدب . ولابنه المعتضد صولات وجولات فى هذا الميدان اما المعتمد فهو دون شك شاعر من ابرز شعراء الأندلس فى هذا القرن وقد ترك لنا ولا سيما فى الحقبه الأخيرة من حياته ، قصائد تعتبر من أجل ما خلف لنا الأدب الأندلسى من شعر . وقـــل مثل ذلك عن أبناء المعتمد الرشيد والراضى .

فاذا كان هذا حال ملوك بنى عباد فيمكن أن نتصور حال وزرائهم وأتباعهم وخاصتهم المحيطين بهم لقد كان شيئا فريدا يبعث على كثير من الاعجاب ، هذه الأجواء الأدبية التى كانت تسود أ لمطة هؤلاء الملوك الأدباء ، والتي كانت تجتذب نحوها رجال الأدب والشعر من كل حـــدب وصوب وكان من هؤلاء محمد بن عمار شاعرنا الذى سندرسه فى الصفحات القادمة بل ان حياة ابن عمار والمركز الذى احتله فى الحياة الاجتماعية والسياسية والأدبية لتقدم لنـــا نموذجا حيا لأهميه الأدب والأدباء فى المجتمع الأندلسي أبان حكم ملوك الطوائف فى الأندلس .

القسم الأول

حياة محمد عمار وانتاجه الادبي

دراسة أدبية تاريخية

أسرة ابن عمار

في قرية شنتبوس (١) الصغيرة قرب شلب ولد ابو بكر محمد بن عمار عام ٤٢٢ هـ (١٠٣١ م) في عائلة فقيرة معدمه مغمورة الاصل ،لا أمجاد لها تعتز بها ولا مفاخر تدعيها . ولم نر مؤرخاً يتحدث عن دور قامت به في ميدان السياسه او المعرفـــه (٢) .فكل ما نستطيع استخلاصه من أقوال المؤرخين المسلمين هو أن أباه كان يدعي عمار بن الحسين بن عمـــار (٣)، وأنه كان ينتسب الى قبيلة مهرة العربيه التي ادعى الانتماء اليها آنذاك كثير من الناس. ومهرة هذه فرع من القبيلة العربية المعروفة قضـاعة اليمانية الاصل (٤) . الا أنه مما يبعث على الدهشة ويثير الاستغراب أن ابن عمار نفسه لم يشر ابداً فيما وصلنا من اخباره واشعاره الى هذا الاصل العربي ، كما أن جل ثقاة المؤرخين الاندلسيين كابن بسام وابن خاقان وعبد الواحد المراكشي لم يشيروا هم ايضا الى هذا النسب رغم أنهم أطنبوا في الحديث عن الشاعر وعنوا باخباره . وربما نستطيع الاشارة بهذه المناسبة الى بيت تعرض فيه الشاعر تعرضاً خفيفاً ليس فيه كبير غناء الى عروبته حين قال في قصيدته الميمية التي نظمها في سرقسطه وارسلها الى صديقه المعتمد (٥) .

وما حال من ربته ارض أعارب والقت به الأقدار بين أعاجم

---

(١) نفح الطيب ، ج ٥ ، ص ٣٦٠ . الذخيرة ، ق ٢ ، ف ابن عمار . انظر حول موقع شنتبوس ابو الفداء ، تقويم البلدان .

(٢) المعجب ، ص ١١٤ . الذخيرة ، ق ٢ ، ف ابن عمار .

(٣) بنو عباد ، ج ٢ ، ص ٨٨ .

(٤) نفح الطيب ، ج ١ ، ص ٢٧٨ . بنو عباد (عن الوفيات) ج ٢ ، ص ٣٦٩ .

(٥) شعر ابن عمار ، قص ٩ .

أما أمه ، فقد أشار المعتمد فى قصيدة هجا بها ابن عمار الى أنها كانت تسمى « شمسة » او « شميسة » (١)

هذا كل ما نمتلك من أخبار حول أسرة أبى بكر بن عمار مع إجماع المؤرخين على أنها كانت عائلة مغمورة فقيرة دون ماض تعتد به ولا حاضر تزهو فيه

وقد كان لهذا الأصل المغمور اثر كبير في حياة الشاعر ، أسهم فى تكوين نفسيته وطريقة تفكيره . فلم تكن الحياة هينه يسيرة آنذاك لأمثاله من الفقراء ، ولكنه عرف كيف يقود زورقه فى خضم هذه الحياة الشاقه المتعبه ليحقق مطامحه الواسعة العريضة . وقد نجح في ذلك بفضل الفترة المضطربة التي كان يعيش فيها من جهة ، وبفضل نبوغه وذكائه الحاد ومعرفته بالناس والخبرات الكثيرة التى زودته بها الحياة من جهة اخرى ، فقد كانت حال اسبانيا المضطربة المعقدة تفسح المجال للمغامرين الطامحين امثال ابن عمار لأن يقوموا بأهم الادوار ، محرزين أسطع النجاحات أو مقدمين نفوسهم ضحايا رخيصة على مذبح الاطماع والشهوات .

الصفات المميزة لشخصية ابن عمار

ظرف خلاب ، وطموح واسع ، وذكاء وقاد (٢) ، تلك هي الصفات البارزة فى شخصية أبى بكر بن عمار . فقد كانت ثقافته الأدبية وحديثه الممتع ومعرفته العميقة بنفوس الناس ، سر نفوذه على كثير من رجالات زمانه . أما ذكاؤه فقد ساعده على الافادة من تجاربه وخبراته وعلى تحقيق مشاريعه كما سنرى فى الصفحات التالية . وأما مطامعه فقد كانت السبب في بحثه

(١) ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، ص ١٧٦ .
(٢) المعجب ، ص ١٢٧ .

دائماً عن اهداف أوسع ومنازل أرفع، متعرضا الى المخاطر، حتى قادته فى طرق وعرة، وسارت به فى مزالق خطره أدت به اخيراً الى نهايته المحزنة بين اعداء ناقمين وحساد شامتين، كان جلهم من اصدقائه القدماء وخلانه الاصفياء (١). وقولنا هذا لا يتعارض مع ما أشرنا اليه من نفوذ على كثير من رجالات عصره، اذ يبدو أن علاقته القوية بهذه الشخصيات لم تكن تمنع الشك وسوء الظن اللذين كانت تفرضهما الظروف والمناسبات.

لقد وضع ابن عمار جميع كفاياته وذكائه فى خدمة مطامعه واغراضه، فلم تكن المثل الخلقية والدين والصداقة، بل وحتى الشعر نفسه (٢) سوى وسائل تعينه على بلوغ اهدافه وتحقيق مآربه. لقد جعلت منه هذه الصفات شخصاً مخيفاً مرهوب الجانب، كثير المكر والدهاء (٣)، ولا شك أن أصله المغمور وعائلته الفقيرة الى جانب كفايته وذكائه وفترته المضطربة كانت عوامل فعالة فى تكوين شخصيته الخاصة ونفسيته «الوصولية» وتفكيره «الميكيافيلي» الذى كانت الغاية بالنسبة له تبرر الواسطة (٤) وسنرى كيف تنعكس هذه الصفات فى اعماله ومشاريعه واساليبه.

ولكن اهتمام ابن عمار لم يكن محصوراً فقط بالمجد والمنصب الرفيع والمركز السامي، بل كانت الحياة نفسها بكل مافيها من متعة وأنس وفرح وبهجة غرضاً من أغراضه ومأرباً من مآربه؛ كان يحب الخمر ويهوى حلقات الانس ويتعشق الغلمان مستسلماً لجميع ملاذ الجسد.

وشأنه في ذلك شأن فتيان الطبقة الأرستقراطية الأندلسية التى

---

(١) المعجب، ص ١٢٣.

(٢) المعجب، ص ١١٤.

(٣) الذخيرة، ق ٢ ف ابن عمار؛ قلائد العقيان، ص ٨٦.

(٤) بنو عباد، ج ٢، ص ١٠٦.

سنرى انه سيصبح جزءاً منها وعضواً من اعضائها . وسنرى حين نتتبع ابن عمار في مراحل حياته المختلفة صفاته هذه تبدو وتتضح وتنعكس في أعماله وأقواله حتى اللحظة الأخيرة من حياته .

ثقافة ابن عمار

لقد كان في إمكان ابن عمار وهو طفل أن يتردد الى المدارس الابتدائية التي كانت تعج بها المساجد في الأندلس رغم فقر عائلته . وهناك كان يتعلم الاطفال القراءة والكتابة وتلاوة القرآن ومبادىء الدين وقواعد اللغة العربية كما يستطيعون أن يحصلوا في الوقت نفسه على معلومات عامة في التأريخ والأدب والحساب . وقد كان بوسع أولئك الذين يرغبون في التوسع في العلم والتعمق في المعرفة أن يواصلوا الدرس والتحصيل ، فالحياة الثقافية مزدهرة والعلماء الكبار منبثون في كل مكان ولا سيما في المدن الكبيرة ، يجتمع حولهم طلبة العلم وعشاق المعرفة فيقدمون لهم ثمرات الحضارة الاسلامية التي وصلت الى الأوج في هذا القرن .

وقد كان ابن عمار من هؤلاء الصبية الأذكياء الذين كانت لهم الرغبة والمقدرة على الاستمرار في الدرس ولا سيما في ميدان الأدب والشعر .

ولكي يحقق رغبته هذه فقد سافر الى شلب وهي مدينة اشتهر اهلها بقرض الشعر (١) وتابع فترة من الزمن دروس أبي الحجاج يوسف بن الأعلم أحد علماء زمانه في علوم العربية ، ثم رحل الى قرطبة حيث واصل حضوره حلقات

(١) ابو الفداء ، تقويم ص١٦٦ ،

العلماء واوساط المثقفين والأدباء ، فنمت ثقافته الادبية واللغوية وأينعت .

إن مانعرفه الآن عن حياة ابن عمار وعن شعره لايشير مطلقا الى أنه كان عالماً متبحراً او فقيهاً موغلا في التفقة ، فكل ما نستطيع تأكيده في هذا الموضوع هو انه كان شاعراً ، وشاعراً فقط . فلا نعرف عنه نشاطاً غير نشاطه الشعرى والسياسى ولا إنتاجاباهراً في غير الميدانين الأدبى والادارى . ولكن من الانصاف أن نقول إن ثقافته الأدبيه واللغوية كانت من العمق والقوة بحيث تسمح له أن ينظم القصائد المتينة التركيب ، المتماسكة العبارات ، الصحيحة الوزن ، ونستطيع أن نلمس هذه الظاهرة في مفرداته وفى تراكيبه وتعابيره وصياغته الشعرية .

ابن عمار قبل ان يلتقي بالمعتضد

عام ٤٤٥ للهجرة

وماكاد ابن عمار يشعر أنه قد بلغ في ثقافته الادبية حداً يؤهله لشق طريق فى ميدان الشعر الى المجد الادبى ، حتى انطلق سالكاً الطريق التقليدى الذى كان يفرضه المجتمع وتقاليده على الشعراء المعدمين من ذوى الطموح ، وذلك بوضع قابلياته وكفايته الأدبية في خدمة الأرستقراطية الحاكمة يشيد بمآثرها ويتغنى بامجادها كـكثيرين من أمثاله .

الا أن ما نظم ابن عمار قبل التقائه بالمعتضد عباد ملك إشبيلية قد اختفى اختفاءً تاماً ولم يصل الى ايدينا منه شيء . ولم يكن ابن عمار نفسه

حريصاً على شعره هذا ، فقد ذكر لنا ابن الأبار أنه أحرقه قبل مماته ، أيام مجده (١) ، لأنه لم يكن كما يبدو مصدر فخر له . ولكن ما نعرفه عن حياة ابن عمار في هذه الفترة يمكن ان يشير الى أن جل هذا الشعر كان في مدح شخصيات عصره البارزة ، بل إن لدينا من الأسباب مايجعلنا نعتقد أنه لم يكن يقصر مدحه على هذا النوع من الناس ، بل كان يقدمه لكل من يستطيع دفع الثمن (٢) . ولا بد لنا أن نشير هنا الى تأثير حاله الاقتصادية وعوزه المادي في دفعه لهذا الاتجاه منذ بداية حياته الادبية . فشاعر مثل ابن زيدون نشأ في وسط أرفع من وسط ابن عمار لايهبط الى هذا المستوى ولا ينزل الى هذا الدرك . وهنا يبدو أثر الوسط الطبقي في توجيه الشعراء ، فالأمير المعتمد لايمدح ، وإن فعل ذلك فللتعبير عن عاطفة شخصية . وابن زيدون الوزير يقصر مدحه على الملوك والأمراء . أما ابن عمار المعدم فيقدمه لكل من يدفع ثمنه . بل إن شاعرنا نفسه عندما علا مركزه وأصبح الوزير الاول لدولة بني عباد نراه يقلع عن التكسب بالشعر ويقصره على التعبير عن عواطفه الشخصية ومشاغله الخاصة.

إنطلق ابن عمار يجوب الاندلس قاصداً ملوك طوائفها عارضا عليهم بضاعته المبتذلة ، رغم تشجيع امراء الأندلس للشعر والأدب ، نظراً لكثرة الشعراء في هذا العصر الأدبي الزاهر . والاخبار القليلة التي لدينا عن هذا الشاعر في هذه الفترة من حياته تشير الى أنه قصد كثيراً من الناس ، منهم

---

(١) بنو عباد ، ج ٢ ، ص ٩٠ . الحلة السيراء ، ف ابن عمار .
(٢) المعجب ، ص ١١٤ .

ابن طاهر امير مرسيه في حالة مزرية من العدم ورثاثة اللباس (١) ، إلا أن هذه الاخبار تنسبها تشير الى أنه فشل فشلا ذريعا في جهوده هذه حتى لقى المعتضد عباداً ملك إشبيلية . ولكنها لاتنقل لنا شيئا من إنتاجه ولاتحدثنا بشيء من اخباره ، خلا حادثة طريفة يغلب عليها الخيال القصصي ، تصف مع ذلك طرفا من الحياة التعيسة التي كان يحياها ابن عمار في هذه الحقبة القاسية .

ولدينا عن هذه الحادثة روايتان تختلفان بعض الاختلاف ، الاولى رواها ابن بسام في كتابه الذخيرة (٢) ، والثانية ذكرها عبد الواحد المراكشي في كتابه المعجب (٣) .

تتفق الروايتان تقريباً في أن ابن عمار وصل في يوم من أيامه العصيبة الى شلب ، لايملك سوى بغلته التي كان حائراً في ايجاد العلف لها ، فلم يجد سوى أن يكتب بضعة ابيات الى تاجر من معارفه يمدحه فيها ويصف له سوء حاله . فلما تسلم التاجر الابيات عطف على الشاعر وارسل اليه مخلاة شعير .

الى هنا يتفق الكاتبان ، ولكنهما يختلفان في تصوير رد الفعل الذي تركته هذه الهدية في نفس ابن عمار . فيقول المراكشي إن ابن عمار كان راضياً كل الرضى بهذه الهدية ، لذا فقد كافأ التاجر عند رجوعه حاكماً على مدينة شلب مرسلا من قبل المعتمد ، بارساله مخلاة مليئة بالفضة قائلا له « لو ملأتها

(١) الحلة السيراء ، ف . ابن طاهر .
(٢) ابن بسام ، الذخيرة ، ق ٢ ، ف . ابن عمار
(٣) المراكشي ، المعجب ، ص ١١٤ .

براً لملأناها تبراً ». أما ابن بسام فيذكر أن الشاعر غضب غضباً شديداً لكرامته وعدها إهانة له، وكاد يرفض هذه الهدية الوضيعة، ولكنه تذكر بغلته فأرسل اليها الشعير. ثم يقول إن ابن عمار لم ينس هذه الاهانة عند رجوعه حاكماً الى شلب، فدعا التاجر اليه وعنفه على عمله، فاعتذر هذا منه خائفاً من العقاب، ثم أرى ابن عمار ابياته رمزاً لاعتزازه بها وحرصه عليها. فرضي هذا عنه وأمر باعطائه مخلاته مليئة بالفضة قائلا له: « لولا حرمتك لاوجعتك أدبا، ولوملأت تلك امس براً لملأنا هذه تبراً .. » «١»

ورغم ان الخيال قد يكون لعب فى هاتين الروايتين دوراً ما، فاننا لا يمكن أن نعرض عنهما تماماً. فلربما كان فيهما جزء من الحقيقة، لاسيما ما يتعلق منهما بحياة ابن عمار البائسة فى هـذه الحقبة. إلا أن من المهم أن نلاحظ أن كلا من المراكشى وابن بسام صور شخصية ابن عمار بشكل يختلف عن الآخر. فاما الاول فقد وصفه رجلا بائساً فقيراً يشعر بوضاعة مركزه، فهو لا يكاد يحس بالكرامة والاعتزاز لا بنفسه ولا ولا بشعره، فيرضى بمخلاة شعير ويسر بالحصول عليها لقاء جزء من انتاجه الادبى، فاى بؤس واية وضاعة فى النفس!

أما ابن بسام فيقدم لنا شخصية اخرى تفرض الاحترام والتقدير. شخصية ذات كرامة ونفس رفيعه لا تعدم نبلا وشهامة: فهو يتردد في رفض هدية متواضعة جداً ويغضب لكرامته وكرامة شعره، ولكنه مع ذلك لا ينسى جميلا أسدى اليه فيكرم صاحبه عليه.

---

(١) الذخيرة، ق ٢، ف ابن عمار.

إن مالدينا من معلومات الآن لاتسمح لنا بأن نجزم بصحة احدى هاتين الروايتين ، ولكن رغم أن ابن بسام كان أقرب عهداً لابن عمار وأنه عنى باخباره وألف كتاباً عنه (١) ، فيبدو لنا أنه إنما عبر عن رأيه في موقف ابن عمار اكثر مما صور موقف ابن عمار نفسه حينما تحدث عن غضب هذا الأخير لكرامته . يدل على ذلك مخلاة الفضة التي قدمها للتاجر منبهاً إياه الى أنه كان سيعطيه مخلاة ذهب ، لو كان قد ارسل مخلاة من القمح ، اذ ليس الفرق بين ثمني الشعير والقمح كبيراً بحيث يغير ابن عمار رأيه فيرضى ويهب الذهب ، لذا فرواية المراكشي اقرب الى المنطق ، هذا فضلا عن أنها اكثر انسجاماً مع ما نعرفه عن اخلاق ابن عمار وصفاته .

عدا هذه الحادثة ، ليس لدينا أية تفاصيل عن حياة ابن عمار او عن شعره في هذا الدور من حياته . فقد ذكرنا سابقاً أن الشاعر أحرق جميع شعره الذي نظمه آنذاك ليطمس الذكريات المؤلمة التي خلفتها هذه الفترة من حياته القاسية (٢) . يبدو من ذلك أنه لم يكن لهذا الشعر أية قيمة ادبية جديرة برفع قيمة قائلها حتى في نظر الشاعر نفسه .

بل يبدو أنه لم يحصل بنظر الاخرين على أي اعتبار يدفعهم الى الاحتفاظ به وتسجيله ، فلم نر مؤرخاً من المعنيين بأخبار ابن عمار وشعره يتطرق الى شيء من ذلك ، كما أننا نعلم أن لا أحد من رجالات الأندلس أعجب به قبل لقائه بالمعتضد رغم أنه قصد قسما كبيراً منهم .

إن هذا الحال يسمح لنا لحد ما بالقول ، إن فقدان شعر ابن عمار الذي نظمه في هذه الحقبة من حياته ليس خسارة كبير تستحق الاسف ، لأنه لم

---

(١) الذخيرة ، ق ٢ ، ف ١ ، ابن وهبون . بنو عباد ، ج ٢ ، ص ١٠٥ .

(٢) بنو عباد ، ج ٢ ، ص ٩٠ . الحلة السيراء ، ف ١ ، ابن عمار .

يحظ بتقدير معاصريه بل ولا حتى بتقدير الشاعر نفسه .

ولكن رغم أن هذه الفتره كانت قاسية مريرة ، تكبدفيها الشاعر مختلف ضروب الشقاء ، فانها كانت المدرسة التي عرف فيها ابن عمار الرجال وخبر الحياة واطلع على أحوال الاندلس ، مما كان له اكبر الاثر في حياته التى عاشها بعد ذلك ومجده الذى بناه . إنها كانت فترة التحضير والاستعداد للفترات التى تلت هذه الفترة من حياته . فهى وإن لم تكن ذات قيمة بذاتها ، فان قيمتها فى حياة الشاعر وفي إعداده كبيرة ذات اثر .

ابن عمـــار

منذ لقائه بالمعتضد حتى مجيء المعتمد الى الحكم

عام ٤٦١ للهجـــرة

إن هـــذا اللقاء يعتبر في الواقع حداً ذا أهمية خطيرة في حياة الشاعر المادية والأدبية . ويبدو أنه حدث فى غضون عام ٤٤٥ هـ. (١٠٥٣م) بعد الحرب الدامية التى خاضها المعتضد ضد الأمراء البربر ، كما يتبين بوضوح من قصيدة ابن عمار الاولى التي مدح بها المعتضد ، وهي رائيته الشهيره [١] .

إننا نستطيع أن نقسم ، تسهيلا للبحث ، الفترة التي قضاها الشاعر في حكم المعتضد الى ثلاثة اقسام : الاولى ، في إشبيليه حيث تعرف بالامير محمد بن عباد (الذى اطلق عليه فيما بعد لقب المعتمد) وارتبط معه بصـــلة وثيقة وصداقه اصبحت مضرب الامثال . والثانى ، فى شلب برفقة الامير محمدحين عينه ابوه حاكماً على هذه المدينة . والقسم الثالث ، من هذه الفترة قضاه في سرقسطة وشمـــال شرقي الأندلس بعد اضطراره على مفارقة صديقه الامير محمـــد .

ان ما بين ايدينا من إنتاج ابن عمار الشعرى يشير الى أن هذه الفترة من حياة الشاعر كانت احدى فترتين خصبت فيها قريحة الشاعر وجادت بخير مالدينا من أدبه . اما الفترة الثانية فهى الاخيرة من حياته والتي سنعرض لهـــا بعد قليـــل .

---

(١) انظر نص ١.

ابن عمار في اشبيلية

وصل ابن عمار إشبيلية بعد محاولات لارتقاء سلم المجد الأدبي قام بها في مختلف أنحاء الاندلس ، باءت جميعها كما يبدو بالفشل الذريع . فقد ظل الشاعر مغموراً يعاني مرارة الفاقة وبؤس الحرمان ، دون ان يفلح بالحظوة لدى أحد أمراء الطوائف . وما كاد يصل هذه المدينة حتى قرر اختبار حظه مع اميرها المعتضد عباد كما فعل مع غيره من قبل . لقد كان المعتضد آنذاك في قمة مجده ، فقد انتصر قبيل ذلك انتصاراً ساحقا على ابن الأفطس أمير بطليوس ، ثم وجه اهتمامه بعد ذلك الى الامراء الصغار من البربر وغيرهم الذين استقلوا بالامر بعد انحلال الخلافة في قرطبة ، فكانوا يحكمون مقاطعات صغيرة مستقلة يقع جلها في الجنوب الغربي من شبه الجزيرة ، فالحق بهم خسارة فادحة وضربات قاضية ووسع نتيجة ذلك رقعة مملكته توسيعاً كبيراً. لقد كان ملك إشبيلية آنذاك في حاجة دون شك اكثر من أي وقت مضى الى أن تمجد انتصاراته ويخلد اسمه ويتغنى باعماله ومآثره . ويروى لنا ابن بسام خبراً يظهر فيه بوضوح اتجاه المعتضد هذا وحاجته النفسية لتخليد مآثره والتغني بأعماله . فيقول ، إن المعتضد نظم بعد احتلاله لمدينة رندة قصيدة ذكر فيها هذا الحدث ، فافتخر بشجاعته وصلابته وذكر أنه « أعجب بهذه القطعة الرندية عجب حسان بن ثابت بقصيدته الميمية » ، وأخذ الناس بحفظها وحملهم على ضبط معانيها ولفظها ... » [1] فقد كان المعتضد إذن يحس بالفخر والاعتزاز ، كان في حاجة لأن يمدح ويشاد باعماله وتوصف

---

(١) ابن بسام ، الذخيرة ، ق ٢ ، ف المعتضد ؛ ابن الابار ، الحلة السيراء ، ف ابن عمار ؛ دوزي بنو عباد ج ٢ ، ص ٦

بطولاته . ومن الطبيعي أن يجد الشعراء في هذا الاحماس فرصة مناسبة ينتهزونها لاشباع رغبة الامير الثرى فتنظم القصائد الطويلة وتكتب الرسائل المستفيضة في ذكر مآثره . ولم يكن ابن عمار ليترك فرصة ثمينة مثل هذه تفلت من يديه ، فتقدم الى الامير بقصيدته الرائية المشهورة التي مطلعها :

أدر الزجاجة فالنسيم قد انبرى والنجم قد صرف العنان عن السرى

فكان لها احسن الوقع في نفس الامير فاسني جائزته وضمه الى ديوان الشعراء [1] .

الرائية

ورائية ابن عمار هذه كأكثر شعر تلك الفترة تدخل من حيث موضوعها في الاطار الذي صنعته الأرستقراطية الحاكمة للشعر . فقد أشرنا الى أنها كانت استجابة لحاجات نفسية ومادية فرضتها طبيعة التكوين الطبقي للمجتمع الاندلسي ، ويبدو هذا الاتجاه لا في الموضوع فحسب بل في كثير من الافكار المتناثرة في ثنايا القصيدة كما ستأتي الاشارة اليه .

فعدا المقدمة التقليدية التي وقفها الشاعر ، كما يفعل اكثر الشعراء الاندلسيين على وصف الطبيعة ومساهمتها في متعة الشاعر وأنسه ، فان قصيدة أبي بكر بن عمار هذه تشتمل على أربعة موضوعات رئيسة ، ثلاثة منها تهم المعتضد ، او بالاحرى نظمت لارضائه واشباع رغبته ، والرابع خصصه الشاعر لنفسه .

اما الموضوعات الثلاثة ، فأولها الاشادة ببطولة الملك وانتصاراته الرائعة على أعدائه . وثانيها تمجيد كرمه وبسطة يده وكثرة عطاياه ، وثالثها هجوم

---

١ المراكشي ، المعجب ، ص ٧٠ .

عنيف على أعدائه البربر ووصمهم بأشنع النعوت . أما الموضوع الرابع المتعلق بالشاعر نفسه فهو تعبير عن الأمل الذى علقه على الملك وعلى كرمه واحسانه ، والجهود الكبيرة التي بذلها في الوصول اليه والوقوف بين يديه وتقديمه عصارة قريحته وزبدة فنه للاشادة بمآثره وتمجيد صفاته .

إننا نلحظ هذه الافكار متناثرة فى المقاطع التي خصصها الشاعر لوصف كرم الامير ومحله في الحياة في آخر القصيدة .

ويمكننا ان نضيف الى ماتقدم من موضوعات تطرق الشاعر في أحد الابيات الى مدح الامير إسماعيل بن المعتضد ولى عهد ملك اشبيلية وقائد جيوشه ، ملاحظين أن ابن عمار لم يشر مثل هذه الاشارة الى الأمير محمد (المعتمد) الذى اصبحت صداقته للشاعر مضرب الامثال . ولاشك أن هذا الاهمال يمكن أن يعزى الى أن الأمير محمد لم يشغل مركزاً هاماً يلفت اليه الانظار فى الدولة الا بعد مصرع اخيه اسماعيل ، فلم يكن جديراً إذن بجذب اهتمام الشعراء ولفت انظارهم ، لاسيما وأن عمره لم يكن يتجاوز آنذاك السنة الثالثة عشرة . هذا الى أن صداقة الأمير محمد لابن عمار لم تكن قد بدأت بعد ، اذ أن هذه القصيدة قد نظمت في اول زيارة قام بها الشاعر لبلاط إشبيلية والتى كانت سبباً لربط اواصر الود بين الصديقين .

ان هذا الرأى يدحض رواية ابن بسام (١) التي نقلها عنه دوزى «٢» وكونثالث بلانثيه ٣ وغيرهم من المؤرخين ٤ ، والتى تزعم ان الامير محمد

---

(١) ابن بسام ، الذخيرة ، ق ٢ ، ف ابن عمار .

(2) Mus Esp. T III, P. 83

(3) Gonzalez Palencia, His . de la literatu Arabi ga Enpanol, P. 77

(4) Pipuet, l'Espagne des Maures, P. 74

إنما تعرف بابن عمار فى مدينة شلب عندما كان حاكماً عليها ، وعلى ذلك فانه نظم هذه الرائية بعدعودة الأمير محمد الى إشبيلية مصحوباً بصديقه الشاعر . وعدم قبولنا لهذه الرواية مرده قبل كل شيء الى هذا البيت الذى مدح به الشاعر الامير اسماعيل المعتضد .

ياسائلي ما حمص الا خاتم
أبصرت اسماعيل فيه خنصرا

إذ أن الامير محمد لم يعد الى إشبيلية الا بعد مصرع اخيه اسماعيل عام ٤٥٠ هـ (١٠٥٨) (١) ، فلا بد ان يكون ابن عمار اذن قد نظم قصيدته هذه قبل عودة الامير محمد من شلب الى إشبيلية ، أى حين كان الأمير اسماعيل لايزال على قيد الحياة . معنى ذلك أن ابن عمار قصد بلاط اشبيلية قبل أن يذهب الى شلب بصحبة الامير محمد ، وأن من المعقول جدا أن يكون قد تعرف به في إشبيلية لا فى شلب . وهذا الرأى مضافاً اليه الاشارات التى وردت فى القصيدة عن بعض المناسبات ، هي التى جعلتنا نحدد تأريخ نظمها بـ ٤٤٤ او ٤٤٥ هـ .

ولنعد الى القصيدة نفسها لنبدى فيها بعض الملاحظات ونلفت الانظار الى صفاتها المهمة .

إن اول مايلفت النظر فيها على وجـــه العموم هو سطحية الافكار والمشاعر وابتذالها ، فلهاثما كثر ترداده على السنة الشعراء واقلام الكتاب . وقد نستطيع مع ذلك ان نستثنى من هذا الحكم بعض الأبيات ، كقوله مثلا يمدح الملك :

---

(١) المغرب ، ج ٣ ، ص ٩٢

أندى على الأكباد من قطر الندى
وألذ فى الأجفان من سنة الكرى

فلاشك ان الشاعر عبر بنظمه لهذا البيت عن مجموعة معقدة من العواطف والافكار . فالملك يتمتع بصفات هي مزيج من اللطف والطيبة وكرم النفس وغير ذلك مما نحسه حين قراءتنا لهذا البيت دون ان نستطيع تمييزه بوضوح ، لم يجد الشاعر السبيل لتصويرها الا بهذا الاسلوب الجميل المعبر .

وكثيراً مايجا به القارىء البسيط أبيات المديح بالامتعاض والاعراض متهماً الشاعر بالكذب والتلفيق وبذلك يجردا نتاجه من كل قيمة أدبية . وفي هذا الرأى مافيه من تجن على المديح وسوء فهم لطبيعته وتسرع في الحكم عليه . فالواقع أن الشاعر حين يمدح لايعني بوصف شخصية الممدوح ، ولو كان هذا غرضه لوصف محاسنه ومساوءه ، ولكنه يحاول أن يرسم صورة شعرية لمثل انسانى عال تمليه عليه ظروفه الاجتماعية والطبقية ومرحلته التأريخيه ، ثم يعطي هذه الصورة بعد ذلك اسم الممدوح او يربطها بحوادث وقعت في حياته . وعلى ذلك فكل قصيدة مدح جيدة صورة شعرية لنموذج انسانى عال وضعه الشاعر تبعاً لمقاييسه الخاصة التى مصدرها دون شك المقاييس الاخلاقية للمجتمع الذى يعيش فيه .

فجودة هذا البيت اذن لاتعود الى أن الشاعر صدق في وصف المعتضد ، وأصاب في تحديد صفاته ، وانما لأنه عبر تعبيراً قوياً حياً عن صفات انسانية سامية تقصر الانة المألوفة عن التعبير عنها باخلاص . اما أن الشاعر لكي يحظى بالجائزة أوهم المعتضد بانه يصفه ، فذلك مما لايهمنا في تقدير قيمه

البيت الادبية ، بل قد تكون له أهمية تأريخية خاصة .

ومع هذه السطحية والابتذال في الافكار والمشاعر الذى يغلب على اكثر مقاطع هذه القصيدة ، فان فيها ما يلفت النظر وينتزع بعض الاعجاب واخص بالذكر بناءها اللغوى وتركيبها اللفظى . فابن عمار متمكن من النظم واسع الاطلاع على اللغة ، فلا جرم إذن فى أن تكون تعابيره عن افكاره الهزيلة السطحية قوية متماسكة ، بل ان فيها براعة وحذقاً دفعت النقاد القدامى الذين عاصروا ابن عمار او جاءوا بعده ، الى تمجيد هذه القصيدة واعتبارها درة من درر الشعر . ولكن اختلاف مقاييس التذوق الادبى ولاسيما بيننا وبين نقاد ذلك العصر الذى ابتدأ فيه الادب يتجه الى العناية بالشكل فحسب دون الاهتمام بما يحتويه ، جعلتنا نقف منها موقفاً قد لا ينسجم مع ما قد قيل عنها حتى الآن .

ولنستعرض بسرعة هذه القصيدة لافتين النظر الى ما يستحق الالتفات منها .

افتتح ابن عمار قصيدته كما يفتتح كثير من الشعراء الاندلسيين قصائدهم بوصف مجلس من مجالس الانس حضره وتمتع فيه . ومن متممات مجالس الانس لدى الاندلسيين الحدائق الغناء والطبيعة الجميلة التى تكتنف هذه المجالس او تحيط بها :

أدر الزجاجة فالنسيم قد انبرى
والنجم قد صرف العنان عن السرى
والصبح قد اهدى لنا كافوره
لما استرد الليل منا العنبرا

والروض كالحسنا كساه زهره
وشياً وقلده نداه جوهرا

او كالغلام زها بورد رياضه
خجلا وتاه بآسهن معذرا

روض كأن النهر فيه معصم
صاف أطل على رداء أخضرا

وتهزه ريح الصبا فتخاله
سيف ابن عباد يبدد عسكرا

من الواضح أنه من العبث أن نبحث في هذه الابيات عن عواطف قوية ومشاعر صادقة مثيرة او افكار عميقه ، فقد اختفى كل ما هناك من عواطف ومشاعر وافكار سطحية تحت حجب من الصنعة البيانية هي التى تلفت النظر وتجلب الانتباه ، لقد بذل الشاعر جهده فى البحث عن التشبيهات وتركيب استعارات ، لم يستطع مع جهده هذا في أن يبتعد بها عما هو مألوف فى عصره ، فالظلام كالعنبر وضوء النهار كالكافور ، والروض كالحسناء والزهور كالوشي والندى كالجوهر ، او هو أى الروض كالغلام يتيه بخديه الاحمرين اللذين يشبهان الورد وبالشعر النابت عليها والشبيه بالآس ، والنهر كالمعصم فوق الرداء الأخضر الخ .. ثم انتقل بعد ذلك الى المديح انتقالا يصفه النقاد القدماء بالبراعة والحذق ، وان كان لا يتصل بالفن من قريب او بعيد .

ولا شك ان هذه المحسنات البيانية تساهم في تكوين القيمة الفنية للنص اذا كان الغرض منها زيادة قوة تعبيرة عما يضمه من المشاعر والعواطف والافكار . أما أن تكون غرضاً في ذاتها فذلك مما يجعل النص الأدبي

شكلا اجوف ، قد يثير الاعجاب بتركيبه وحذق صياغته ولكنه لا يمس الحاسة الفنية ولا يثير في النفس الشعور الجمالي (الاستيتيكي) الذي يحسه المرء أمام قطعة فنية حقيقية .

بعد هذه المقدمة التقليدية ينتقل الشاعر الى غرضه الرئيس . وهو المديح فيقف جل القصيدة عليه . وقد حاول الشاعر ، كعادة المداحين من الشعراء ، أن يسبغ على المعتضد شخصية مثالية تتصف بكل مثل المجتمع العليا وتكاد تنحصر في اربع صفات : مجد باذخ ، ومكانة رفيعة ، وشجاعة منقطعة النظير ، وكرم لا يعرف الحدود . فلا يكاد يخلو بيت من بيوت القصيدة الاربعين الباقية من اشارة الى واحدة من هذه الصفات او عرض لها بشكل من الاشكال ، سواء أكان الحديث عن المعتضد ام عن ابنه اسماعيل ، ومما يلفت النظر براعة الشاعر في التعبير عن نفس الافكار بأشكال مختلفة وطرق متباينة ، إلا في القليل من الابيات حيث يحطم هذه الحدود :

الحاجب المنصور سيف الدولة الـ ... (*) معطى .. من الحباء الاكبرا (١)

علق الزمان الأخضر المهدى لنا
من ماله العلق النفيس الأخطرا

ملك إذا ازدحم الملوك بمورد
ونحاه لا يردون حتى يصدرا

أندى على الاكباد من قطر الندى
وألذ في الاجفان من سنة الكرى

---

(١) . كذا في الذخيرة ، ف ابن عمار

قداح زند المجـــد لا ينفك من
نار الوغى إلا إلى نار القـــرى

يختـــار إذ يهب الخريدة كاعباً
والطرف أجرد والحسام مجوهرا

أيقنت أنى من ذراه بجنـــة
لما ســـقاني من نداه الكوثرا

وعلمت حقاً أن روضي مخصب
لما ســـألت به الغمام الممطرا

يا ســـائلي ما حمص إلا خاتم
أبصرت اسماعيل فيه خنصرا

من لا توازنه الجبال اذا احتبى
من لا تسابقه الرياح اذا جرى

ماضي وصدر الرمح يكهم والظبى
تنبو وأيدى الخيل تعثر في البرى

لاشيء اقرأ من شفار حســـامه
إن كنت شبهت الكتائب أسطرا

قاد الموا كب كالكواكب فوقهم
من لامهم مثل السحاب كنهورا

وهكذا يستمر الشاعر يجول حول ممدوحه بشكل لانكاد نحسن تجاهه

بغير الارهاق الذى ارهق به الشاعر نفسه لكي ينحت من افكار سطحية مبتذلة ابياتاً ذات قيمة لسامعيه . فبالاضافة الى التكلف البيانى وجه الشاعر جهداً غير قليل للمحسنات البديعية كالطباق والجناس ، ولكن التكلف والتصنع فيها واضح بين يفقدها كل جمال فنى او تأثير ادبى لقد كان عصر ابن عمار مولعاً بالصنعة شغوفاً بتزويق الكلام ، فلا جرم اذا رأينا نقاد العصر يعجبون بالشاعر ويطنبون في مدحه ، بينما تنحصر أهميته لنا بالتركيب اللغوى لأبياته ليس غير .

ولكن من حق الشاعر علينا ان نقول إن روحاً جديداً ابتدأ يظهر في ابيات القصيدة الاخيرة حين انتقل الشاعر للحديث عن نفسه وتصوير لهفته الى نوال الامير وجهده في ارضائه وجلب عطفه وامله فى ان تحظى ابياته التى بذل فيها ما بذل من جهد وبراعة بالقبول لدى الملك .

واليك يامنصور قادت همتى
بزمامها جرد المذاكي الضمرا

مدت سنابكها القوادح للصفا
مرطا على متن الظلام معصفرا

يجعلن قبلتك البهية قبلة
ويردن ساحتك البهية مشعرا

خذها اليك وروضها لك ناضر
اسقيته ماء النعيم فنورا

نمقتها وشياً بذكرك مذهباً
وفتقتها مسكاً بحمدك أذفرا

من ذا يناغني وذكرك منـــدل
أوردتـــه من نار فكري مجمرا

ولئن وجدت نسيم حمدى عاطر
فلقد وجدت نسيم برك أعطرا

واليكها كالروض زارته الصبا
وحنا عليه الطـــل حتى نورا

ان هذه اللهفة وهذا التوسل والرجاء المنبعث من هذه الالفاظ القويه التركيب المتينة البنيان قد يعطي هذه الابيات قيمة أدبيه لاتجدها فيما سبق . ومع ذلك فاننا نترك الحـــكم عليها للقارىء حيث يجدها كاملة في القسم الثانى من هذا الكتاب .

لقد كان تأثير هذه القصيدة على المعتضد كبيراً جداً فاعجب بالشاعر وقربه اليه وضمه الى ديوان الشعراء (١) حيث يتمتع برزق خاص .

الدالية

وبالاضافة الى هذه الرائية فان لدينا ست قصائد لا بد أن يكون الشاعر قد كتبها فى هذه الفترة من حياته ، أهمها قصيدة داليه تستحق أن نوجه نحوها اهتماماً خاصاً وعناية كبيرة . مطلعها :

ألا للمعالي ما تعيد وما تبدى

وفي الله ماتخفيه عنا وما تبدى

---

(١) المعجب ، ص ١١٧

ويبدو أن الشاعر نظم هذه القصيدة بعد الانتصار الرائع الذى احرزه الجيش الاشبيلي على البربر المقيمين فى قرمونة قرب إشبيلية. ويبدو واضحاً فى أبيات هذه القصيدة تحمس ابن عمار لهذا النصر وفرحه به، ولا غرابة في ذلك فقد كان بين الأندلسيين والبربر حقد متبادل جدير بأن يفرح كلا منهما بمصائب خصمه، وقد كان لهذا الشعور دون شك. أثره في اعطاء هذه القصيدة قيمة خاصة ولنستمع الى الشاعر فى احدى مقاطعها يصف هجوم الأمير اسماعيل بن المعتضد على قرمونه:

ورب ظـــلام سار فيه الى العدى
ولا نجم الاما تطلع من غمد

أطـل على قرمونه متبلجـــاً
مع الصبح حتى قيل كانا على وعد

فأرملهـا بالسيف ثم اعارهـــا
من النار اثواب الحداد على الفقد

فياحسن ذاك السيف في راحة الندى
ويا برد تلك النار فى كبد المجد

افلا نحس برضى الشاعر وابتهاجه وبتشفيه بما حل بالبربر من ضيم؟!

وعداء ابن عمار للبربر متأصل في نفسه وسنرى أنه كان ذا اثر كبير فى اعماله وسياسته طيلة حياته، فلا عجب اذن في أن نحس بعواطف الشاعر واحساسه فى ابياته التى يتحدث فيها عنهم. فيقول مشيراً الى ابن اسحاق البرزالي حاكم قرمونه وباديس بن حبوس حاكم غرناطة، وكانا من اشد امراء البربر شكيمة واقواهم سطوة:

يهوداً وكانت بربراً فانتض الظبي
وأنبئهم منهـــا بألسنـه لد

أقول وقد نادى ابن اسحاق قومه
لأرضك يرتاد المنية من بعد

لقد سلكت نهج السبيل الى الردى
ظباء دنت من غابه الاسد الورد

كأني بباديس وقد حط رحله
الى الفرس الطاوى عن الفرس النهد

الى الفرس الجارى به طلق الردى
سريعاً غنياً عن لجام وعن لبد

يحن الى غرناطة فوق متنه
كما حن مقصوص الجناح الى الورد

ظفرت بهم فارنح وأومض كؤوسها
بروقاً لها من عودها ضجة الرعد

لقد كان النزاع بين الاندلسيين والبربر صفة بارزة من صفات القسم الاول من عهد ملوك الطوائف فى الأندلس . وما نلاحظه في هذه القصيدة وامثاله ماهو الا انعكاس لهذا العداء المستحكم والنزاع الدامي .

وكما فعل ابن عمار في قصيدته الرائية السابقة ، فعل في هذه القصيدة ، إذ خصص الأبيات الأخيرة منها لاستدرار عطف الملك واستجدائه وكسب رضاه ونواله . والواضح ان الشاعر لم يتورع عن الاستجداء الصريح والالحاح

فى طلب هبة الأمير مبيناً بوضوح أنه إنما يمدح ليحصل على الجزاء. ولا شك فى أن أصل ابن عمار الطبقى وما كان يعانيه من فقر وعوزهما اللذان دفعاه الى سلوك هذا السبيل فى استجداء الأمير.

ولو قارنا اسلوبه هذا واسلوب ابن دراج وهو فقير مثله بأسلوب ابن زيدون مثلا وبغيره من الشعراء ذوى المراتب الأجتماعية الأكثر سمواً، لتبين لنا الفرق واضحا بين النفسيتين.

وابيات ابن عمار الأخيرة هذه قوية التركيب متينة البنيان ناجحة فى التعبير عن لهفة الشاعر وأمله وشدة ثقته بالأمير واعجابه بما بذله هو نفسه من جهد في نظم قصيدته:

ودونكها من نسج فكرى حلة
مطرزة العطفين بالشكر والحمـــد

الذ من الماء القراح على الصدى
واطيب من وصل الهوى عقب الصدى

وما هذه الأشعار الا مجامر
تضوع فيها للندى قطع الند

وكنت نثرت الفضل في وانمـــا
نثرت سقيط الطل في ورق الورد

وها انا باغ من نداك بقدر ما
يضاف لتأميلي ويعزى الى ودي

فأقسم لو قسمت جودك في الورى
على قدر التأميل فزت به وحدى

قنعت بما عندى من النعم التى
يفسرها قولي قنعت بما عندى

ورغم أن هذه القصيدة تفوق سابقتها، كما اعتقد فى قيمتها الأدبية، فانها لم تحظ بالاهتمام الذى حظيت به القصيدة الرائية من قبل المؤرخين عدا صاحب الخريدة فقد خصها بقسط كبير من المدح والأطراء

اما القصيدة الثالثة التى لدينا من هذه الفترة فهى رائية (١) من البحر « المتقارب » تتكون من ثلاثة عشر بيتاً يبدو ان الشاعر نظمها بعد معركة ناجحة خاض غمارها المعتضد ضد اعدائه، استعمل فيها الدهاء والرأى بالأضافة الى السلاح. وفى هذه القصيدة صور مليئة بالحركة والحياة. ساعد فى اعطائها هذه الصفة وزن القصيدة المتحرك وقافيتها « الساكنه »

تعاطى الخوارج حتى برز (م)
ت تقوم من خدها ما صعر

واقبلتها الخيل حمر البنود
دهم الفوارس بيض الغرر

فكروا فلم يغنهم من مكر
وفروا فلم ينجهم من مفر

---

(١) ديوان قص ٣

ودارت دماؤهم كالكؤوس
وفاحت نفوسهم كالزهـــر

فعـــاقر سيفك حتى انحنى
وعربد رمحك حتى انكسر

اما القصيدة الرابعه (١) فهى كافية من البحر « الكامل » تتألف من عشرة ابيات فقط يصف فيها الشاعر مجلساً من مجـــالس الأنس حضره المعتضد .

وتتضح فى هذه الأبيات صفات شعر ابن عمار الرئيسه كاهتمامه بالمحسنات البديعية والبيانية وتعلقه بالتزويق اللفظى مع براعة فى اختيار الألفاظ وصياغة الأبيات تلفت النظر .

اما بقية مالدينا من شعر هذه الفترة (٢) فلا يكاد يلفت النظر فيه شيء إلا اننا نلاحظ فى احدى هذه المقطوعات ، وهى قطعة من قصيدة مطلعها :

أشاقك برق ام جفاك حبيب
فليلك فضفاض الرداء رحيب

امراً يلفت النظر يتصل بعلاقة الشاعر بالملك .

ولا نمتلك من هذه القصيدة سوى أحد عشر بيتاً فقط ، يمدح فيهـا الشاعر المعتضد ، ولـكنه يعبر فى الوقت نفسه عن خوف داخلي وحذر من وقوع مكر ويحاول تجنبه بالتحدث عن الوفاء والغدر ولا سيما وفاء الملك

---

(١) ديوان ص ٤ .
(٢) انظر الديوان ص ٦ ، ٧ ، ٨

ومحافظته على العهود وعزوفه عن الغدر .

مزحت فانى يا ابنة القيل لم اكن
لأفشي سراً ضمنته قلوب

سأشهد قومي أن طرفك من دمي
برىء وإن كان الفتور يريب

وكيف ارى فى للغدر نهجاً لسالك
وعهدى بالملك الوفي قريب

فتى نسخ الغدر اقتضاء وفائه
فلا تحكمن أن الوفاء غريب

ان الحاح الشاعر على هذه الناحية مع ما نعرفه من بطش المعتضد وغدره ليترك في نفوسنا انطباعاً قوياً عن حذر الشاعر وخوفه واحساسه بتغير نفس الملك تجاهه . مما ستبدو آثاره بعد ذلك كما سنرى .

ابن عمار والامير محمد بن عباد (المعتمد)

وفي إشبيلية تفتحت امام ابن عمار آفاق جديدة ، ترتبت عليها نتائج مهمة كان لها اكبر الأثر في مستقبله . ففى بلاط المعتضد تعرف الشاعر بالأمير محمد ابن الملك وخليفته على العرش . ويبدو أن صفات مشتركة وميولا متشابهة جمعت بين الرجلين ومتنت عرى صداقة وثيقة اصبحت فيما بعد مضرب

الأمثال (١)

وعندما أرسل الأمير محمد فاتحاً لشلب ثم حاكماً عليها، كان ابن عمار ساعده الأيمن ورفيقه المقرب اليه(١) وهناك في شلب اصبح الشاعر البائس الشريد شخصاً آخر لا يكاد يمت الى سابقه بصلة، فقد غيرت الحياة المترفة التي كان يحياها الى جانب الأمير في قصر الشراجيب كل مظهر من مظاهر حياته القديمة البائسة. لقد استجاب الرفيقان لدواعي المتعة والأنس واستسلما للملذات والمباهج وانغمرا في التبذل والمجون بشكل بقيت ذكراه عالقه في نفسيها بعد ذلك بزمن طويل. فعندما أرسل المعتمد صديقه بعد ذلك بسنوات حاكماً على شلب، خاطبه، بابيات ذكر فيها هذه الحقبة السعيدة من حياته، قال فيها(٢)

ألا حيي أوطان بشلب أبا بكر
وسلهن هل عهد الوصال كما أدرى

وسلم على قصر الشراجيب من فتى
له ابداً شوق الى ذلك القصر

منازل آســـاد وبيض نواعم
فناهيك من غيل وناهيك من خدر

وكم ليلة قد بت أنعم جنحها
بمخصبة الأرداف مجدبة الخصر

---

(١) المعجب، ص١١٧

(٢) قلائد، ص ٥، ديوان المعتمد ص١١

وبيض وسمر فاعلات بمهجتي
فعال الصفاح البيض والأسل السمر

وليل بسد النهر لهواً قطعته
بذات سوار مثل منعطف النهر

نضت بردها عن غصن بان منعم
نضير كما انشق الكمام عن الزهر

وباتت تسقيني المدام بلحظها
فمن كأسها حيناً وحيناً من الثغر

وتطربني اوتارها وكأنني
سمعت بأوتار الطلى نغم البتر

وابن عمار نفسه لم ينس هذه الأيام الهانئة فقد بقيت ذكراها عالقة في خاطره يستعيدها كلما حاقت به الكروب وداهمته المصائب، وها هو ذا يذكرها في قصيدته التي بعث بها الى الأمير محمد بعد ذلك بسنوات وهو في سرقسطة خائفاً من غضب المعتضد وبطشه وطامحاً بالحصول على عفوه ورضاه، قال(١):

أشلب، ولا تنساب عبرة مشفق !
وحمص،(٢) ولا تعتاد زفرة نادم !

---

(١) ديوان قص ٩ .

(٢) يقصد بحمص (اشبيلية) اذ كانت تسمى كذلك لان جند حمص نزلوا فيها بعد الفتح .

كساها الحيا برد الشباب فانها
بلاد بها عق الشباب تمائمي

ذكرت بها عهد الصبا فكأنما
قدحت بنار الشوق بين الحيازم

ليالي لا ألوى على رشد لائم
عنانى ولا أثنيه عن غي هائم

أنال سهادى عن عيون نواعس
وأجني عذابى من غصون نواعم

وليل لنا بالسد بين معاطف
من النهر ينساب انسياب الأراقم

بحيث اتخذنا الروض جاراً تزورنا
هداياه في ايدى الرياح النواسم

تبلغنا انفاسه فتردها
باعطر أنفاس واذكى مناسم

تسر الينا ثم عنا كأنها
حواسد تمشي بيننا بالنمائم

سقتنا به الشمس النجوم ومن بدت
له الشمس فى جنح من الليل فاحم

وبتنا ولا واش يحس كأننا
حللنا مكان السر من صدر كاتم

هو العيش لاما أشتكيه من السرى
الى كل ثغر آهل مثل طاسم

فيبدو واضحاً أن الصديقين الشابين لم يدعا سبيلا من سبل الأنس لم يسلكاه ولم يتركا باباً من ابواب المتعة لم يطرقاه ، حتى اصبحا مضرب امثال الناس وموضع حديث البعيد والقريب . لقد كان لهذه الأيام السعيدة وهذه الحياة والصفات المشتركة أثرها الفعال في تشديد روابط الصداقه وتوثيقها حتى اصبح احدهما كما يقال لا يكاد يفارق الآخر . ومع ذلك فقد كان يخالج قلب ابن عمار الذى عرف الناس وخبرهم ، قلق عميق من مستقبل هذه الصلة الوثيقة كما يقول دوزى (١) . تدل على ذلك القصه التى يرويها مؤرخو الأدب الاندلسي والتي يقال انها حدثت في هذه الحقبة من حياة ابن عمار ، ويبدو أن لهذه القصة اساساً من الصحة لأنها رويت فى مصدرين : ذكرها ابن بسام في كتاب « الذخيرة »(٢) نقلا عن المعتمد بن عباد ، ورواها عبد الواحد المراكشى في كتابه « المعجب » (٣) نقلا عن ابن عمار نفسه .

يقول ابن بسام ... ويتعلق بهذا القتل الشنيع خبر غريب المسموع من ذلك الأوان وحديث طريف من الحدثان ، اخبرت به عن غير واحد من وزراء المعتمد ، وذلك أنه لما مضت لقتل ابن عمار ايام ، حضروا مع المعتمد

(1) Mus. Esp, T. 3 P84 ,

(١)
(٢) الذخيرة ق ٢ ، ف . ابن عمار
(٣) المعجب ص ١١٧

في مجلس أنس . فلما طابت الأنفس وأخذت منهم حميا الكؤس ، وراح المعتمد وهز عطفه ، وبدا على قسماته عطفه ، سئل عن هذا الخبر المستظرف الذى كانوا سمعوه من بعض السلف واقسموا عليه بتخليد ملكه في ان يحدثهم بحديث كان اليه ينسب ، وقالوا هو من فم مولانا اطيب . فقال لهم كلاماً معناه ، لعل هذا الأستخبار عن شأن ابن عمار . قالوا : أجل . وطفقوا يغدونه بالأنفس واكثروا فى وداده من شرب الأكؤس ، فأخبرهم أنه كان أيام مقامه بشلب قد غلب ابن عمار على نفسه ، وأخذ بمجامع انسه ، فأمره واخذ عليه ، اذا دعا اصحابه أن يكون أول داخل وآخر خارج ، ليأنس به ويتمع بأدبه ، فيجده ينفر نفار العثار ويتسلل من مجلسه تسلل الطريدة من يد الصائد . فلما ابى الا اطراداً عن اصله وطال عليه ذلك من فعله ، تقدم الى اصحاب سدته ليلة فى ترقبه ومنعه عن مذهبه ، وانذر وتهدد وابرق في ذلك وارعد . وقام ابن عمار كعادته فلم يحفل المعتمد ليلته بمكانه لما كان قدم من شأنه . فلما انفض من كان عنده التمسه ففقده ، وطلبه منتهى جهده فما وجده . واحضر من كان تقدم فيه ، فاخبر انه لم تقع له عين عليه . فرابه امره وخفى عنه سره ، فشهر فيما بلغنى سيفه واخذ الشمع بين يديه ، وجعل يطلبه حيث يحسبه ولا يحسبه ، فلما انتهى الى بعض الدهاليز ، اذا بحصير مطوى وابن عمار فيه اغمض من سرخفى ، عريان كالا فعوان . فأمر بحمله وهو قد تعجب من فعله . فلما استقر بالمعتمد المجلس جعل يبسط جانب ابن عمار ويؤنسه ، وابن عمار يبكى فيضحك ، ويشكو فيشكك . فلما سكن قليلا وأفرخ روعه ورقى دمعه ، سأله عن شأنه .

فاخبره أنه كلما كانت تأخذ منه الشمول يسمع كأن قائلا يقول : يامسكين هذا يقتلك ولو بعد حين . كلاماً هذا معناه . فلا يزال يطلب الأنس بوسعه فيبعد عليه ذلك ويمتنع حتى يصنع مايصنع الى ان كان له معه الذى قدر (١)

هكذا يروى ابن بسام هذه الحكاية مستنداً على حديث للمعتمد مع وزرائه . أما عبد الواحد المراكشى وهو أبعد عهداً عن عصر ابن عمار من سلفه ، فقد رواها بشكل يختلف بعض الاختلاف عن رواية ابن بسام . معتمداً على حديث لابن عمار نفسه . قال المراكشي :

«وله معه (اى لابن عمار مع المعتمد) أيام كونها بشلب خبر عجيب . وذلك ان المعتمد استدعاه ليلة الى مجلس أنسه ، على ماكانت العادة جارية به ، الا انه في تلك الليلة زاد في التحفي به والبره على المعتاد ، فلما جاء وقت النوم أقسم المعتمد عليه : لتضعن رأسك معي على وساد واحد ! فكان ذلك . قال ابن عمار فهتف بى هاتف فى النوم يقول ! « لا تغتر ايها المسكين انه سيقتلك ولو بعد حين ! » قال : فانتبهت من نومي فزعاً ، وتعوذت ، ثم عدت ، فهتف بى الهاتف على حالته الاولى ، فانتبهت ، ثم عدت ، فسمعته ثالثة ، فانتبهت ، فتجردت من اثوابى والتففت فى بعض الحصر ، وقصدت دهليز القصر مستخفياً به ، حتى آتى البحر فاركبه واقصد بلاد العدوة فاكون في بعض جبال البربر حتى أموت . فانتبه المعتمد فافتقدنى فلم يجدنى . فامر بطلبى ، فطلبت له في نواحي القصر ، وخرج هو بنفسه يتوكأ على سيفه والشمعة تحمل بين يديه ، فكان هو الذى وقع عليه ، وذلك أنه اتى دهليز القصر يفتقد الباب هل فتح ، فوقف بازاء الحصير الذى كنت فيه ، فكانت

(١) الذخيرة ، ق ٢ ، ف ابن عمار

مني حركة فأحس بي وقال ما هذا يتحرك في هذا الحصير ؟ ثم أمر به فنفض ، فخرجت عرياناً ليس علي إلا السراويل . فلما رآني فاضت عيناه دموعاً وقال : يا ابا بكر ، ما الذي حملك على هذا ؟ فلم ار بداً من أن صدقته ، فقصصت عليه قصتي من أولها الى آخرها . فضحك وقال : يا ابابكر اضغاث احلام ، هذه آثار الخمار ، ثم قال لي : وكيف اقتلك ؟ أرايت أحداً يقتل نفسه ؟ وهل انت عندي الا كنفسي . فتشكر له ابن عمار ودعا له بطول البقاء ...» (١) .

ولا يهمنا الاختلاف بين الروايتين بقدر ما يهمنا اتفاقها في وصف متانة عرى الصداقة بين الشاعر والمعتمد وشدة تعلق هذا الأخير بالأول مما سيكون له اكبر الاثر في حياته المقبلة .

وهكذا كانت حياة ابن عمار في شلب ، حياة كلها متعة وانس ، وترف وبذخ بين جدران قصور الامراء حيث العيش فيها اشبه بالاساطير .

العودة الى اشبيلية

في عام ٤٥٠ هـ. (١٠٥٨) قتل المعتضد ابنه اسماعيل لاتهامه بالتآمر ضده ودعا ابنه الأمير محمد (المعتمد) حاكم شلب ليحل محل ابنه القتيل ولياً للعهد وحاجبا للخليفة هشام المزعوم (٢) ، الذي اصطنعه ملوك بني عباد تبريرا لتسلمهم مقاليد الحكم . وهكذا عاد الامير الى إشبيليه يصحبه صديقه ابن عمار ليعيش في بلاط المعتضد الملك المرعب .

---

(١) المعجب ، ص ١١٧ . الحلة السيراء ، ف ابن عمار . بنو عباد ، ج ٢ ، ص ٩١١

(٢) البيان المغرب ، ج ٣ ، ص ٣٤٨ ؛ المعجب ص ١٠٠

ولكن مقام الشاعر لم يطل من هذه المدينة إذ سرعان ما اضطر الى مغادرتها منفياً الى سرقسطة وشرق الاندلس . وقد ذكر ابن بسام في سبب هذا الفراق بين الصديقين أن ابن عمار « أوجس خيفة في نفسه من ابيه المعتضد ففر عن البلد ولحق بشرق الاندلس . . . (١) » اما عبد الواحد المراكشي فيقول في سبب ذلك ان المعتمد « سلم اليه (اى الى ابن عمار) جميع اموره فغلب عليه ابن عمار غلبه شديدة ، وساءت السمعة عنها .. فاقتضى نظر المعتضد التفريق بينهما فنفى ابن عمار عن بلاده . . . (٢) .

وسواء أكان سبب ترك ابن عمار لاشبيلية خوفه من بطش المعتضد او نفيه منها ، فانه لم يترك دون شك هذه المدينة وحياته الهانئة الرضية فيها ، مختاراً راضياً ، بل مكرها حزيناً وخائفاً مترقباً . وواضح من قصائده التي نظمها بعد ذلك أنه لم يكن ليستطيع الرجوع اليها دون الحصول على عفو الملك ورضاه .

ابن عمار في المنفى

عاد ابن عمار الى حياته الشاقة المتعبة ، تمسك بخناقه الحاجه ويطارده الحرمان رغم رعاية المقتدر بن هود أمير سرقسطة له وعنايته به ، وطفق يتنقل بين هذه المدينة ومدن شمال شرق الأندلس الأخرى ولا سيما لاردة حيث المستعين بن هود اكبر اولاد المقتدر ، دون كبير جدوى او نفع ، فقد كانت حياته عسيرة شقية تذكره دائماً بالايام السعيدة التي قضاها الى جانب صديقه في شلب وإشبيلية . لذا فقد كان هم الشاعر السعي بكل ما اديه

---

(١) الذخيرة ، ق ٢ ، ف ١ ، ابن عمار

(٢) المعجب ، ص ١١٧

من وسائل واساليب للحظوة بعفو المعتضد والعودة الى إشبيلية مرتع احلامه ومحط امانيه ، ولم تكن هذه الوسائل والاساليب تتعدى التوسل الى المعتضد حيناً والى ابنه الامير محمد حيناً آخر والى هذا الصديق او ذاك ممن يتمتع لدى ملك إشبيلية بحظوة وتأثير في اطوار اخرى . وهكذا كان بعد ابن عمار عن إشبيلية وشوقه الشديد اليها مصدر إلحاح مستمر ومبعث الهام شعري دائم له مدة بقائه في هذه البلاد . فترك لنا نخبة من خيرة انتاجه الادبي رغم أنه نزر قليل إذا ماقورن بالمدة الطويلة التي قضاها الشاعر في تلك الاصقاع والتي يبدو أنها قاربت عشر سنوات .

إن ما لدينا من شعر ابن عمار الذي لابد أن يكون قد نظمه في هذه الفترة لا يتجاوز في الواقع اربع قصائد ، واحدة كتبها الى المعتضد والثانية ارسلها الى المعتمد والثالثة والرابعة ارسلها الى أبي الوليد بن زيدون وزير المعتضد ومشاوره الاول . ولكن هذه القصائد على قلتها نماذج قيمة لاروع ما نظم ابن عمار من شعر وخير ماقدمه من مساهمة في التراث الأدبي الأندلسي .

الميمية

اما القصيدة الاولى فميمية (١) من البحر الطويل تشتمل على ثلاثة وتسعين بيتاً ارسلها الشاعر من سرقسطه الى صديقه الأمير محمد (المعتمد) في إشبيلية وضمنها كل ما كان يجول في نفسه من افكار وانطباعات ، وما يعتمل في قلبه من مشاعر وعواطف وانفعالات واحساسات ، كما سكب فيها كل ما يمتلك من

(١) ديوان ص ٩

مقدرة على نظم القصيد وبراعة فى سبك الالفاظ ، حتى اننا لنستطيع اعتبارها النموذج الحى لشاعرية ابن عمار في وجوهها المختلفة ، فى قوتها وضعفها ، فى أصالتها ونكلفها ، فى تحليقها وهبوطها . إننا نستطيع أن نكتشف خلال هذه الابيات الثلاثة والتسعين شاعراً مبدعاً جديراً بأن يحتل مكاناً احسن بكثير من هذا الذى يحتله الآن ، شاعراً يجمع بين غزارة الشعور وتدفقه ، وتملك ناصية الصياغة الشعرية والصناعة الكلامية .

اما فاتحة هذه القصيدة فهى شكوى وتذمر ، ولكنها شكوى تختفي فيها العواطف الملتهبة خلف التكلف البياني الواضح والتشبيهات المصطنعة التي تكاد تقرب من الابتذال ، بل وتكاد ابن عمار يرد على قصيدة ابن زيدون اللامية المشهورة التي نظمها شاكيا مراره السجن وعنت الحياة وقسوة الدهر والتي قال في مطلعها (١)

الم يأن أن يبكى الغمام على مثلي
ويطلب ثأرى البرق منصلت النصل

وهلا اقامت انجم الليل مأتماً
لتندب في الآفاق ما ضاع من نبلي

فيقول (اي ابن عمار):

عـــلي والا ما بكاء الغمائم
وفى والا ما نياح الحمـــائم

(١) الذخيرة ، ق ، ج١ ، ص ٢٧٣

وغني أثار الرعد صرخة طالب
لثأر وهز البرق صفحة صارم

وما لبست زهر النجوم حدادها
لغيرى ولا قامت له فى مآتم

وهل شققت هوج الرياح جيوبها
لغيرى او حنت حنين الروائم

ويستمر كذلك محاولا تقليد الشعراء القدامى ، فيصف الخيل وسرعتها الى أن يصل الى التحدث عن ذكرياته السابقة في إشبيلية وشلب ، فنلاحظ آنذاك روحاً جديداً ابتدأ يسرى في القصيدة ، روحاً منشؤها الاخلاص والصدق والعواطف الفياضة ، وقد مرت بعض هذه الأبيات عند حديثنا عن حياة ابن عمار في شلب .

ينتقل الشاعر بعد ذلك الى ذكر حاله فى سرقسطة ليتضح الفرق بين الماضي السعيد والحاضر الشقى ، فهو يشكو من كل شيء : من صعوبة العيش ، وجفاء الناس وجهلهم وما يحيط به من دسائس ونمائم فيقول :

هو العيش لا ما أشتكيه من السرى
الى كل ثغر آهل مثل طاسم

وصحبة قوم لم يهذب طباعهم
لقـــاء أديب او نوادر عالم

صعاليك هاموا بالفلا فتدرعوا
جلود الأفاعي تحت بيض النعائم

ندامي ولا غير السيوف أزاهري
لديهم ولا غير الغموغ كمائمي

وما حال من ربته ارض أعارب
والقت به الاقدار بين الأعاجم

ويغضب ابن بسام لتحامل الشاعر على اهل سرقسطة هذا التحامل العنيف وهجوهم هذا الهجاء المقذع فيقول : « وما ينقضي عجبي من ابن عمار أن ينكر تلك الهيئة على اهل ثغر ابناء قتلي وبقايا اسرى فما خلوا من شيعة من النصارى اذ مسافة ما بينهم اقصر من ابهام الحبارى ، وبلدهم مجرعواليهم وموقد صاليهم ومخفق اعلامهم ودربة سهامهم . (١) » ويستمر ابن عمار قائلا :

يقبح لي قوم مقـــامي عندهم
وقد رسفت رجل السرى في الادامم

يقولون لي دع ايدى العيس انها
تؤدى الى أيدى الملوك الخضارم

فديتهم لم يبعثوا حرص عاجز
ولا نبهوا اذ نبهوا طرف نائم

---

(١) ابن بسام . الذخيرة . ق ٢ ، ف ابن عمار

ولكنها الايام غير حوافـل
بأرب اريب او حزامة حازم

وانى لأدعو لودعوت لسامع
وانى لأشكو لوشكوت لراحم

اريد حياة البين والبين قاتلي
وارجو انتصار الدهر والدهر ظالمى

ثم يعود يبحث عن خلانه واصدقائه الذين يرجو منهم ان يقفوا الموقف الذى يتطلبه الاخاء وتقتضيه الصداقة :

ونبئت اخوان الصفاء تغيروا
وذموا الرضى من عهدى المتقادم

لقد سخطوا ظلما على غير ساخط
عليهم ولاموا ضلة غير لائم

ومع ذلك فان الذى يراود احلامه ويستهوى خيالاته ، هو عفو المعتضد ورضاه . عند ذلك فقط تبدأ حياته من جديد رضية مشرقه فينمحى الماضي بكل ما فيه من عنف وقسوة وآلام وتزول الضغائن من النفوس ويبتسم الدهر وتزهو الحياة :

ولو أن عفواً من هنالك زارنى
لزرت وما عدو الزمان بدائم

أجر ذيول الليل سابغة الدجى
واركب ظهر العزم صعب الشكائم

فاورد ودى صافياً كل شارب
والبس حمدى ضافياً كل شائم

وأغضي لمن يلقي بوجه مكاره
حياءً فألقاه بوجه مكارم

وما هو الا لثم كف محمد
وتمكين كفى من نواصى المظالم

ان اتفقت لي فالعدو موافق
على كل حال والزمان مسالمي

بعد هذه الموضوعات الشخصيه ينتقل الشاعر لمدح الأمير محمد وابيه المعتضد فيطيل فى ذلك كل الأطالة ويفتن فى استعمال البديع والبيان ويغوص خلف التشابيه النادرة والمجازات الغريبة فيستثير اعجاب نقاد عصره ومن جاء بعدهم ممن اولعوا بالصنعة وشغفوا بتنميق الكلام. ولكن رغم ذلك فاننا نحس بلوعه الشاعر وتلهفه الى رضى الأمير، نحس بشعور عميق يحرك الشاعر ويدفعه الى التوسل والرجاء والاستعطاف، بل وحتى الى المبالغة في المديح. فيقول مقدماً قصيدته الى الامير محمد:

ابا القاسم اقبلها اليك فانما
تناؤك مسكي والقوافي لطائمي

محملة عذراً فانك جملة
من الفضل لم استوفها بتراجم

فديتك ماحبل الرجاء على النوى
بواه ولا ربع الوفاء بقائم

انا العبد فى ثوب الخضوع لوانني
ارى البدر تاجى والنجوم خواتمي

وما عز فى الدنيا طلاب لماجد
ولا اعتاص فى الايام ورد لحائم

ولكن ذاك الظل اندى غضارة
لضاح وذاك البرق اوفي لشائم

وانى - اذا انصفت، بعدك خادم
لدهرى وكان الدهر عندك خادمي

الى أن يقول :

وثقت بحظى منك لم اخش نبوة
عليك وأرم بالظنون الرواجم

ولو نهضت بي قدرة كل ساعة
لأديت من تقبيل كفك لازمي

لعل الذى أقذى بترحة راحل
عيوناً سيجلوها بفرحة قادم

فترجع ايام مضت وكأنهـــا
اذا امتثلتها النفس لذة حالم

ثم ينهي الشاعر قصيدته متمنياً للأمير السعادة والهناء وطول البقاء .

لقد حظيت هذه القصيده كما مر باعجاب اهل عصر الشاعر ونقاده فاطنبوا في اطرائها ومدحها واقتباس ما جاء فيها من المعانى والافكار والتشبيهات حتى ان ابن بسام يقول « اما معانى هذه القصيدة فحجة مسلوكة ومضغة ملوكة . قد كثر تجاذب الشعراء أهدابها وقرعوا بابها حتى صارت كالجمل المذلل والمهيع من السبل ... (١) ويذكر بعض مؤرخي الأدب الاندلسى كعبد الواحد المراكشي (٢) أن ابن عمار نظم هذه القصيدة فى سرقسطة وأرسلها من هناك الى الامير محمد بن عمار ، الا أن ابن الابار يذكر (٣) أن الشاعر كان في لاردة فى شرق الاندلس حين نظم قصيدته هذه وارسلها لصديقه من تلك المدينة . وسواء أصح هذا القول ام ذاك فان من الواضح أن ابن عمار نظم قصيدته بعد مفارقته لاشبيلية اثناء حكم المعتضد وأنه كان لايزال قريب عهد بحياته السعيدة التي قضاها هناك .

أما القصيدة الثانية التي نظمها فى هذه الفترة فلدينا منها ابيات غزلية لابد ان تكون فاتحة قصيدة طويلة ارسلها الى المعتضد من منفاه . واهمية هذه الابيات التي لدينا تنحصر فى كونها خير نموذج لغزل ابن عمار

---

(١) ابن بسام ، الذخيرة ، ق ٢ ، ف ابن عمار .
(٢) المراكشي ، المعجب ص ١١١ .
(٣) ابن الابار ، الحلة السيراء ، ف ابن عمار .

ولأسلوبه في وصف مشاعر الحب والصبابة، وهو اسلوب قد يرضى نقاد عصر الشاعر ولكنه بعيد جداً عن أن يحدث هذا الاثر في نفوس من لايكتفون بالتنميق اللفظي والعبث البياني والمبالغة المملة، بل يبحثون عن العواطف العميقة والتحسس الفني، يقول في مطلع هذه الابيات (١)

جاه الهوى - فاستشعروه - عاره
ونعيمه - فاستعذبوه - أواره

قالوا اضر بك الهوى فاجبتهم
ياحبذاه وحبذا أضراره

الى ان يقول واصفاً حبيبه:

من قد قلبي اذ تثنى قده
وأقام عذري اذ اطل عذاره

أم من طوى الصبح المنير نقابه
واحاط بالليل البهيم خماره

غصن ولكن النفوس رياضه
رشأ ولكن القلوب عراره

سخرت ببدر التم غرته كما
أزرت على آفاقه ازراره

أتحسّ في هذه الطباقات المتكلفه والجناسات المصطنعه أي أثر للشعور

(١) انظر ديوان ص ١٠.

الحس والاحساس العميق ؟ كلا طبعا . . إن هذه الظاهرة لدى كثير من الشعراء المتمكنين من النظم لتجلب اليها الانتباه . فما نعرفه عن ابن عمار يدل على انه كان منهمكا باللذات مغرماً بالنساء، حساساً تجاه الغلمان ، فلم لا ينعكس هذا الميل فى الشعر ؟!.. فنحن لانكاد نلحظ فى الشعر الذى نظمه الشاعر في هذه المناسبات سوى معان مبتذلة وافكار اخلقها الشعراء اعادة وتكراراً . أفنستطيع القول إن ابتذال المرأة نفسها فى الاوساط الارستقراطية الاسلامية افقدها أثرها الروحى وجعل منها اداة للعبث واللعب والتمتع ؟ وهل يمكن ان تكون المرأة مصدر وحى والهام اذا لم تكن ذات منزلة رفيعه فى نفس الشاعر وموضع احترامه وتقديره ؟!

وعلى كل حال فما لنا نتطلب من ابن عمار أن يخلص ويبدع وهو لم ينظم هذه الابيات تغزلا بحسناء او شوقاً الى حبيب وانما اتخذها وسيلة يبدأ بها قصيدته لينتقل بعد ذلك الي غرضه الاصيل وهو الاعراب عن شوقه الشديد لاشبيلية ومدحه لمليكها المعتضد عباد حيث يقول :

فوحسنه لقد انتدبت لوصفه
بالبخل لولا ان حمصاً داره

بلد رمتني بالمنى اغصانه
وتفجرت لي بالندى انهاره

بلدمتى أذكره هيج لوعتي
واذا قدحت الزند طار شراره

اما القصيدتان الاخريان اللتان لدينا من هذه الحقبة فقد ارسلها

الشاعر الى الوزير أبي الوليد بن زيدون الشاعر المعروف مستشار المعتضد الاول ويده اليمنى . والقصيدتان تمثلان نموذجاً رائعاً من ادب الرسائل الشعرية . فاما اولاهما فهي بائية من البحر الطويل لدينا منها اثناعشر بيتاً ، مطلعها (١)

تأملت منك البدر في ليلة الخطب
ونلت لديك الخصب في زمن الجدب

يقول فيها معاتباً صديقه القديم :

أحين سقى صوب اعتنائك ساحتى
فنعمها واهتز روضى في تربي

ثنيت لعطف قد ثنيت مدائحي
عليه وسرب قد بدلت به سربى

أما انه لولا عـــوارضك التي
جرت فى جرى الماء في الغصن الرطب

لما ذدت طير الود عن شجر القلى
ولا صنت وجه الحمد عن كلف العتب

ولكن سأكنى بالوفاء عن الجفا
وأرضى ببعد بعد ما كان من قربى

وان لفحتنى من سمائك حرجف
سأهتف بابرد النسيم على قلبى

---

(١) ديوان ، ص ٨

وإني اذا قلدت جاهك مطلبي
واخفقت فيه قلت يازمني حسبي

أيظلم في عيني كذا قمر الدجى
وتذبو بكفي شفرة الصارم العضب

وأما ثانيتهما فهي لامية من البحر الكامل المجزوء، فيها من الابداع الشعري ما يلفت النظر ويجلب الانتباه، مطلعها (١) : (م)

كيف اعتززت على الدليل
وقطعت أسباب الوصول

وفي القصيدة عتاب مرير وشكوى قارصة من موقف ابن زيدون تجاه صديقه القديم رغم ما يجمعهما من ذكريات وما تمتعا به مشتركين من سويعات .

أبرزت في خلق الكريـ ... (م)
ـم وراءه خلق البخيل

ودعـوتني حتى أجبـ .. (م)
ـتك ثم حدت عن السبيل

جد بالقليل فان نفـ .. (م)
ـسي منك تقنع بالقليل

واذكر على زمن قطعـ (م)
ـناه بصافية شمول

---

(١) ديوان ص ١١ ، الذخيرة ، ج ١ ، ٣٧٣

اذ نسحب الأذيـــال ما
بين الخليج الى النخيـل

ونحل من سيف الغدير .. (م)
ر بقبة الظـل الظليـــل

والروض ممطـــور تنم
عليـــه أنفـــاس القبول

والشمس ترمقنا خـــلال (م)
الغيم عن طرف كليل

أبان يحـــدو الرعد من
ورق السحائب كالحمـــول

ويهز كف البرق في (م)
الآفاق مرهفة النصـــول

زمن ستبكيه الحمـــام (م)
معى وتذهل عن هديل

يـــابـــرق أد رســـالتى
تفديك نفسى من رسول

عـرج بشلب محييـــاً
ماشئت من تلك الطلول

واطلع على شرفات حمص
قرارة الشرف الاثيل

فاذا اجتلاك ابو الوليد
بناظر اليقظ النبيل

فاقرأه من قلبي سلاماً
يقتضى حسن القبول

ثم يمضي الشاعر بعد ذلك فى مدح الوزير طالباً منه الشفاعة لدى الملك المرعب :

إشفع عنايتك الجليلة (م)
لي لدى الملك الجليل

وعاقداً أمله كله عليه .

وواضح أن فى هذه الابيات غير قوة التركيب ومتانه التعبير شيئاً آخر يتفجر من الالفاظ فينفذ الى النفوس ، شيئاً نستطيع أن نقول إنه جزء من نفس الشاعر نجح فى أن ينتزعه انتزاعاً ويصله باحساسنا ، فشعرنا به دون أن نستطيع تميزه بوضوح .

هذا كل مالدينا من شعر ابن عمار في هذه الحقبة العسيرة من حياته التى قضاها منفياً في سرقسطة وشمال شرقى الاندلس . إن مؤرخي الأدب الذين عنوا بأخبار الشاعر لم يحددوا لنا بدايتها ، فكل ما نعرفه عن ذلك ، هو

أن ابن عمـــار نفى من إشبيلية كما ذكرنا بعد رجوع الأمير محمد (المعتمد) اليها عام ٤٥٠ بفترة من الزمن لاسبيل الى تحديدها اعتماداً على ما لدينا من أخبار . ولـكن الشيء الذى اتفق عليه هؤلاء المؤرخون ، أن هذه الحقبة المريرة من حياة الشاعر انتهت بوفاة المعتضد عام ٤٨١ هـ (١٠٦٩ م) ومجيء ابنه المعتمد على عرش إشبيليه . إذ سرعان ما استدعى ابن عمار من منفاه ليحتل قرب الملك الجديد أعلى المراتب وأسمى المناصب

ابن عمار
في أثناء حكم المعتمد بن عباد

لقد أحدث مجيء المعتمد الى العرش تحولاً خطيراً فى حياة ابن عمار. فلم يعد ذلك الشاعر الأفاق الذى يعيش من إحسان الآخرين وعطفهم ، ولا ذلك الذى يعتمد فى حياته على رضى وارتياح كبار رجال عصره الذين سخر كل مواهبه ، ولاسيما الشعر به ، لخدمة أغراضهم والاستجابة لأهوائهم. لم يعد ذلك الشاعر البسيط ذا الأصل المغمور والمنزلة التافهة والمكانة المزدراة ، وإنما أصبح شخصاً آخر يختلف كبير الاختلاف عن سابقه ، فقد استبدل بمهنته مهنة أخرى أسمى مركزاً وأعلى مقاماً ، واتخذ لنفسه ، بدل طبقته الواطئة طبقة اخرى أرفع جاهاً وأبهى حياة . لقد أصبح من خاصة الاشراف بكل ما يتطلبه الانتساب لهذه الطبقة من ترف وبذخ وحياة ناعمة ومشاعر خاصه. لقد أصبح رجل دولة وقابضاً على زمام حكم ، مع جميع ماتقتضيه هذه الرتبة من غنى وقوة ونفوذ . وأما الشعر فلم يعد وسيلته الأصيلة للعيش ، وإنما حلية وزينة تتطلبها مقتضيات الحياة الأرستقراطية ومركزه الاجتماعى الجديد .

إنه لمما يبعث العجب أن نلاحظ الى اى مدى هائل أثر تبدل طبقة ابن عمار ، أى تبدل حالته الاقتصادية ومنزلته الاجتماعية في شعره . ولو أن ذلك لايعنى أنه قطع صلته بماضيه ، بل على العكس من ذلك فقد بقي لأيامه

الماضية اثرها الكبير فى حياته السياسية والأدبية . وسنرى الشواهد على ذلك حينما نستعرض نشاطه السياسي والادبى .

ابن عمار السياسى

لقد كان من ألمع شخصيات عصره السياسية ، بل إنه نموذج فريد من نماذج الساسة فى العصور الاسلامية المختلفة ، يستحق مناكل عناية واهتمام . وقد كان لحياته الأولى ونشأته أثر واضح في سعة معرفته بالعصر الذين يعيش فيه والناس الذين يخالطهم . وها نحن نحاول في السطور القادمة إيضاح الخطوط الاساسية في سلوكه السياسي قبل أن نتطرق الى أعماله السياسية التي هزت إسبانيا المسلمة طيلة تسلمه مقاليد الوزارة في اشبيلية .

لقد كان همه الأول في هذا الميدان هو احتكار صداقة الامير - إذا صح هذا التعبير - وتقوية نفوذه لديه (١) إلى أن شهد فى نفسه القوة على العمل لحسابه الخاص والاستغناء عن سيده . ولم تكن الجهود التى بذلها للوصول الى هدفه هذا صعبة التحقيق ، إذ لم يكن أمامه عند رجوعه الى إشبيليه سوى أبى الوليد بن زيدون وزير المعتضد . ولدى المؤرخين الاندلسيين إشارات عديدة الى الشعور غير الودى الذى كان يعتمل في نفس ابن عمار تجاه وزير دولة بني عباد المتنفذ ، والى المحاولات المختلفة التى قام بها للتخلص من غريمه . وقد نجح أخيراً في مسعاه عندما أقنع المعتمد بارسال ابن زيدون من قرطبة الى إشبيلية لاخماد ثورة قامت ضد اليهود هناك . ولم تكن حال ابن زيدون الصحية لتسمح له بتحمل مشقات السفر ومتاعبه فما كادت تمر بضعة أيام على وصوله الى إشبيلية حتى لفظ أنفاسه الاخيرة في عام ٤٦٣ هـ

(١) الذخيرة ، ق٢ ، ف ابن عمار . ابو الوليد بن المصبحي .

(١٠٧١م) (١) .

لقد بقي ابن عمار صاحب الفوذ الأوحد تقريباً على المعتمد ، مبعداً عنه كل من لا يرغب فيه . وقد قلنا تقريباً ، لأن شخصية اخرى فى حياة الملك لم تكن قليلة التأثير فيه حتى أخر أيام حياته ، ونقصد بها اعتماد الرميكية زوجة المعتمد الحسناء ، التي كان قد التقى بها على شاطيء الوادى الكبير في مرج الفضة في ضواحى إشبيلية ، فتن بجمالها وشغف بها حباً ، فاشتراها من سيدها رميك بن الحجاج وتزوج بها . لقد كانت الشخص الوحيد الذى شارك المعتمد في سرائه وضرائه حتى نهاية حياته في منفاه النائي .

إن ما نعرفه عن علاقة ابن عمار باعتماد يشير الى أن الشاعر كان مع المعتمد حين التقى بهذه الجارية الحسناء ، كما نعلم ايضاً أنها كانت عدوته اللدود في آخر حياته ، بل إنها كانت سبباً رئيساً من اسباب القضاء عليه . ويذكر المؤرخون الاندلسيون أن سبب هذا العداء العنيف هو قصيدة نظمها ابن عمار في هجاء المعتمد (٢) وكان لاعتماد فيها من هذا الهجاء أوفى نصيب . حيث قال :

تخيرتها من بنات الهجان (م)
رميكية ما تساوى عقالا

فجاءت بكل قصير العذا (م)
.. ر لئيم النجارين عماً وخالا

---

(١) الذخيرة ج ١ ، ص ٣٥٥ . عبد السلام الطود ، بنوعباد ، ص ١٤٢ .
(٢) انظر الديوان ، قص ٥٩

بصفر الوجوه كأن استها
رماهم فجاءوا حيارى كسالا

ولكن ، لنا أن نتساءل ، أكان ابن عمار يصل في الاقذاع الى هذا الحد لو لم يكن العداء بينهما مستحكماً منذ أمد طويل ؟ ! من الواضح أن كرهاً متبادلا كان متغلغلا في نفسيهما قبل ذلك بوقت ليس بالقصير ، أي في أثناء مقام ابن عمار في إشبيلية وهو في قمة مجده وعنفوان نفوذه ، وإلا لما اختارها ليصب عليها جام غضبه ويوجه اليها أقذع شتائمه . ولا نريد أن نزعم أن صداقة المعتمد الشديدة لابن عمـــار أثارت غيرة اعتماد فليس بين أيدينا من المعلومات ما يثبت ذلك ، الا أننا لانريد ايضاً ان نتغافل تماماً عن وجود أثر لعلاقة الملك بوزيره على علاقة زوجته به وشعورها نحوه وسلوكها تجاهه .

لقد استطاع ابن عمار أن يزيح من طريقه جميع منافسيه عدا اعتماد التي بقيت عدواً خطراً لم يكل عن محاربته حتى قاده الى حتفه .

أما في ميدان السياسة العامة فقد كان ابن عمار يمثل اتجاهاً مهماً جداً في سياسة ملوك الطوائف في إسبانيا المسلمة آنذاك . لقد كان لابد للساسة المسلمين في تلك الفترة المضطربة من التأريخ الأندلسي أن يختاروا ـ كما اعتقد ـ واحداً من هذه الخطوط السياسية الرئيسة الثلاثة ، متخذين مصالح دويلاتهم التي تكون جزءاً لايتجزأ من مصالحهم الشخصية قاعدة لسياستهم .

اولا : سياسة إسلامية . باعتبار أن مصلحة دويلاتهم مرتبطة بمصلحة

الاسلام ، وعندئذ لابد لهم أن يضعوا نصب أعينهم توسيع نفوذ الاسلام ومحاربة المسيحيين ، وتضحية جميع الأهداف الثانوية الاخرى فى سبيل هذه الغاية النبيلة السامية العليا . ولسنا الآن بصدد بحث إمكان تطبيق مثل هذه السياسة آنذاك ، ولكن ما نستطيع قوله ، هو أن أنصارها لم يكونوا كثيرى العدد بين الساسة الاندلسيين في حياة ابن عمار ، ولم يكن لهم تأثيرهم فى حياة البلاد السياسية آنذاك . وعلى كل حال ، فلم تكن هذه السياسة مطلقاً سياسة ابن عمار .

ثانياً : سياسة مسالمة وحفظ للتوازن . وذلك بقبول الحال الموجودة والمحافظه بكل الوسائل على التوازن السياسى ، والتشبث بفكرة التعايش السلمى بين جميع دول الطوائف . وربما كانت اسباب إتباع سياسة مثل هذه ، هى الضعف ، او عدم التمكن من عمل غير ذلك ، او الاكتفاء بالوضع القائم . وقد كان أنصار هذه السياسة عديدين بين حكام المقاطعات الصغيرة والحصون المستقله القائمة هنا وهناك فى أطرافها . وقد اتبعت فى حياة ابن عمار السياسية بشكل يختلف قوة وضعفاً من قبل بنى الأفطس أمراء بطليوس ، وبنى زيرى أمراء غرناطه وبنى عامر أمراء المنسيه وبنى طاهر أمراء مرسية ..الخ.

ولكن تزايد خطر المسيحيين فى الشمال فى أواخر هذه الفترة وضع ملوك الطوائف امام ظروف جديدة تفرض عليهم تبديل سياستهم والاتجاه نحو سياسة تقارب في مظهرها السياسة الاسلامية التى مر ذكرها ، وسنتحدث عن ذلك في حينه . إلا أن سياسه التعايش السلمي هذه لم تكن هي ابداً

سياسة ابن عمار .

ثالثاً : سياسة توسع وطموح ، تهدف الى توسيع رقعة المملكة بكل الوسائل الممكنة ، سواء أكان ذلك عن طريق الحرب او المؤامرات او الشراء او المعاهدات الخ ... وقد كانت أهم الدويلات التي اتبعت هذه السياسة بوضوح ممالك بني عباد في إشبيلية ، وبني ذي النون في طليطلة . وبني هود في سرقسطة . وكانت قوة هذه الدويلات النسبية حافزاً مهماً دفع رؤساءها الى اتباع هذه السياسة .

ولكن هذه الامارات لم تكن مع ذلك على مبلغ من القوة بحيث تستطيع الدفاع عن نفسها تجاه الأمراء المسيحيين الاقوياء من جهة . والتوجه نحو التوسع والفتح ومهاجمة الحصون القوية والمدن المنيعة التابعة للدويلات الاخرى من الجهة الثانية . فليس هناك اذن سوى سبيل واحد لاتباع مثل هذه السياسة ، وذلك بضمان صداقة الدويلات المسيحية الشمالية بالتنازل لرغباتها وشروطها ، بل وبالتعاون معها إذ اقتضى الامر . وقد كانت شروط الدول المسيحية ومتطلباتها الثقيلة سبباً مهماً من أسباب تحديد نطاق مثل هذه السياسة . ومع ذلك فقد كان ابن عمار بطلها الأول في أقصى حدودها واوضح مظاهرها .

ولا شك أن اتجاه ابن عمار نحو هذه السياسة وتشبثه بها كان مرجعه الى معرفته التامة بحال الملوك الاندلسيين ، هذه المعرفة التي اكتسبها من سفراته الطويلة وتجاربه الكثيرة والتي أملت عليه موقفه تجاه

الملوك المسيحيين عموماً وتجاه الفونس السادس على وجه الخصوص .

كان أبو بكر يعرف ضعف ملوك الطوائف المسلمين ويدرك قوة ملك قشتالة النامية ، لذا وجه همه الى توثيق الروابط وتقوية الصلة بهذا الاخير . فقد كان الفونس السادس في الواقع الحكم الوحيد القادر على فرض وجهة نظره في النزاع المرير القائم بين الأمراء المسلمين ، فالجميع يدفعون له الأتاوات ويستميحونه الرضى والعطف ليتجنبوا هجماته ويحظوا بصداقته. ويبدو واضحاً من أقوال المؤرخين المسلمين أن ابن عمار كان يوجه عناية خاصة لأرضاء الملك المسيحي واكتساب وده وأن جهوده هذه آتت ثمارها وعادت عليه بنتائج لم يستطع نيلها غيره من ساسة المسلمين . فقد ذهب لزيارة الملك مرات عديدة ، آنا رسولا للمعتمد وطوراً بصفته الشخصية ، حتى أن بعض المؤرخين ليقول ، إنه كان موضع إعجاب الملك وتقديره (١) ، بل من المحتمل جداً ان لا يكون ابن عمار قد تمرد على المعتمد دون رضى الفونس السادس وتشجيعه أو على الأقل ، دون مشورته ، وروى ابو الطاهر التميمي في هذا الموضوع أن الفونس السادس اهدى لابن عمار بعد احتلاله لمرسية التي تمرد فيها ، وطرده لابن طاهر كما سيأتي ذكره ، خاتما ، فلما سمع هذا الاخير بذلك قال متهكماً « أخاتم التأمير أم التأمين » فغضب ابن عمار عند سماعه بذلك وهدده بقصيدة قال فيها (٢)

---

(١) المعجب ، ص ١١٩ .

(٢) بنو عباد ج٢ ، ص ٩٨ . الحلة السيراء ، ف . ابن عمار ، الديوان ، قس

بلغت دعابتك التي أهديتهـا
في خـــاتم التأمين والتأمير

ولا نريد أن نحمل هذه الحكاية اكثر مما تتحمله ، إلا أنها اذا اضيفت الى القرائن الأخرى التي لدينا عن علاقة ابن عمار بملك قشتاله ، فانها توضح لنا دون شك جانباً من سياسة الوزير الأندلسي ، وتشعر بوجود علاقة خاصة بينهما دفعت ابن خاقان الى وصف ابن عمار بالتبعية لألفونس ، اذ قال « واصطفاه العدو فاتفق به السكون والهدو، وتهالك فيه كلفاً وهياماً وامطره من الحظوة غماماً ، واهتصر منه موادعة وائتلافاً ، استدر بها ملوك أوانه أخلافاً ، فارتاعت منه الأقطار وطاعت له البانات والأوطار... »(١) . وأشار الى مثل هذا الرأى عبد الله بن زيرى ملك غرناطة فى مذكراته التي نشرها ليفى بروفنسال في مجلة « الاندلس (٢) الاسبانية ، واعطى أمثالا عديدة على الخدمات التي قام بها ابن عمار للملك المسيحى .

فقال مانصه « ولأنه (اى ابن عمار) قد استمال النصارى واندخل معهم بحيلة فمتى مادهمه أمر من قبلهم وجهه (اى المعتمد) اليهم فيجلي من امرهم ما يضيق الصدر به الخ .. » .

إن من الطبيعى أن نعتقد أن علاقة الفونس بالوزير الاندلسي لم تكن نتيجة اعجاب شخصي وحب بريء ، وإنما كانت قائمة على اساس من المصالح

---

(١) للائد العقيان ، ص ٨٦ .

(٢) مجلة الاندلس ، ١٩٣٥ ، ص ٣٢٤ ،

المشتركة ، لذا نرى ملك قشتالة ينفض يديه من نصرة ابن عمار بعد هروبه من مرسيه، كما سيأتي ذكره ،عندما لايجد في هذا الأخير ما يغني او يسمن من جوع . إلا أن هذا لا ينفي بعد نظر ابن عمار ، ودقة حسابه في التمسك بصداقة الفونس السادس وتوثيق الروابط معه لتحقيق أهدافه التي لم تكن، كما اوضحنا ، تتجاوز توسيع رقعة نفوذه وضرب منافسيه .

فبناء على مامر اذن ، نستطيع القول إنه بالاضافة الى اسلوب ابن عمار الأول في العمل السياسي ، ونقصد به احتكار صداقه ملك إشبيلية ،كان همه الثاني ، توثيق الروابط مع الفونس وتقوية الصلات به وجلب رضاه إذ كان لابد له من ذلك لكي يحقق مشاريعه ويطبق خططه وينفذ سياسته .

ونستطيع أن نضيف الى مامر من أساليب ابن عمار شيئاً آخر حرص على التزامه والتمسك به ، وهو تقوية صلاته بالشخصيات الأندلسية وحرصه على ارضائها بمختلف الاساليب والطرق ، ونظرة سريعة على مالدينا من إنتاجه الأدبي (١) خلال مدة وزارته يدلنا بوضوح على كثرة علاقاته وتعدد اتصالاته بها . ولكن محاولة ابن عمار لتحقيق هذا الهدف لايعني بأي حال من الاحوال ،أنه كان ناجحاً في ذلك ، كما لا يعني أنه كان مخلصاً في علاقاته وفياً لاصدقائه : فالظاهرة الواضحة في هذه العلاقات أنها تبدأ قوية عميقة لتنتهي بعداء شديد وحقد متبادل عميق . لقد كان

---

(١) انظر الديوان ، قص ٤٣، ٤٥، ٤٦، ٤٨، ٤٩، ٥٢

ابن عمار «وصولياً» - اذا اصح هذا التعبير - مع أخلص اصدقائه . فقد خان المعتمد صديقه وولى نعمته ، واستغل ضعف ابن طاهر ، رغم مابينهما من علاقات وثيقة ، ليوقع به . كما لم يسلم من لسانه السليط امير بلنسية عبد العزيز ابن أبى عامر (١) . والمعتصم بن صمادح اميردانيه نفسه ، الذى كانت تربطه بالشاعر اوثق الصلات ، غضب عليه واستنكر اعماله (٢) . وسنرى انه أساء فى استعمال علاقته ببعض قواد الحصون ، فاستغل ثقته به ليقتله وينتزع قلعته . كما حاول أن يفعل الفعل نفسه مع بنى سهيل حكام حصن شقورة ففشل فى ذلك ووقع في الفخ الذى نصبه لغيره حيث آل الامر به الى السجن ، فتلفت يبحث عبثاً عن صديق ينتشله من وهدته ، فلم تصطدم عيناه بغير الشماتة والسخرية ، ولم ير سوى أعداء يتحينون له الفرص ويتمنون هلاكه .

قد يبدو للقارىء بعض التناقض فيما قلناه عن محاولة ابن عمار كسب الأصدقاء وما ذكرنا عن كثرة اعدائه . والواقع ان محاولات ابن عمار كانت قليلة الأثمار ، وان أثمرت فان ثمارها آنية وقتية ، سرعان ما تجف ويتخرفيها الفساد ، إذ لم يكن الاخلاص مما ينسجم وسياسة ابن عمار واهدافه فقد كان ابو بكر رغم ذكائه مندفعاً تعميه المطامع ويمتلك عليه نفسه حب السلطان ، فلم يكن فى حال يستطيع معها تحقيق غايته هذه فى

---

(١) انظر الديوان ، قص ٥٨

(٢) » » » ٥١٤

ميدان العلاقات الشخصية اذ لم تكن هذه الغاية نفسها سوى وسيلة لتحقيق غاية اخرى اكبر منها وهي تحقيق مطامعه . ولا بد من الاشارة هنا الى ان ابن عمار لم يقصر جهوده على الحظوة بصداقة الحكام والامراء ، وانما توجه الى كل من وجد في علاقته به فائدة ونفعاً ، فوزع الهدايا وأغدق الاموال عند قدومه الى شلب والياً عليها وعند احتلاله لمرسية بعد خروج ابن طاهر منها ، وكان يهدف من كل ذلك الى الحصول على رضى الناس وتقريبهم اليه .

وسياسة ابن عمار هذه التي حاولنا رسم خطوطها الاساسية العامة ، كانت مستوحاة من معرفته العميقة بحال المسلمين في إسبانيا آنذاك . لقد كانت مستندة إلى ضرورة توسيع مملكة إشبيلية مع الحصول على رضى الملوك المسيحيين والتعاون معهم لتحقيق ذلك . وقد بدا لنا واضحاً أن هذه الغاية نفسها لم تكن هي آخر ما يطمح به ابن عمار ، بل كان طموحه يتجاوز ذلك ويجول حول شخصه ومصالحه الخاصة ، كما سنرى من تسلسل الحوادث . لذا نراه أول من ازدرى مصلحة مملكة إشبيلة وتمرد على أميرها المعتمد صديقه الحميم سابقاً ، عندما تهيأت له الفرصة وخلاله الجو .

ومع ذلك ، فإننا ، رغم نهاية ابن عمار المفجعة ، لا نستطيع أن نقول إنه قد فشل فشلا تاماً في تحقيق غايته وتنفيذ مطامحه ، فقد كان اسمه يتردد في جوانب إسبانيا المسلمة فيبعث الرعب والهلع في نفوس ملوك طوائفها وأمراء حصونها وقلاعها(١) . وكان نفوذه في اشبيلية لا يكاد يقل عن نفوذ الملك نفسه . ولكن طموحه الشديد وتعقد مشاكل تلك الفترة ،

(١) انظر قلائد العقيان ، ص ٨٦ .

بل وربما مساعدة الفونس السادس له ، منعته من إدراك عواقب أعماله والتنبوء بمصيره . كما لا بد من الاشارة الى أن اعنف ضربة وجهت له لم تأت من اعدائه وانما من اتباعه ومساعديه كما سنرى بعد قليل .

إذن فنستطيع القول إن ابن عمار كان مدركاً كل الادراك لأهدافه وللاساليب التى يستعملها لتحقيق هذه الاهداف . ولكن اسبانيا المسلمة لم تكن في حال يمكن فيها وضع خطة دقيقة مضمونة النتائج متيسرة التطبيق، أيا كان واضعها. فقد كان النزاع محتدماً بين رؤساء المسلمين وامرائهم ، والشك المتبادل ، الذى كان يزيد فيه شعورهم بالضعف والخور ، وفقدانهم لأساس شرعي لسلطتهم يقربهم من رعاياهم ، أقول إن هذا الشك زاد في تعقيد الحالة السياسية وشجع المغامرين من أمثال ابن عمار على إدلاء دلوهم بين الدلاء وتجريب حظهم فى المعمعة . لقد كان هؤلاء المغامرون منتشرين آنذاك في كل جوانب الاندلس ولا سيما في بلاطات الملوك وقصور الامراء يتلمضون بانتظار فرصة سانحة وصفقة رابحة ولقمة سائغة . وكان محتدماً بينهم ، دون رحمة ولا شفقة ، نزاع مرير ترتبت عليه أفظع النتائج ، لاسيما في حكم المعتضد وأبيه ؛ فقد صنع الأول حديقة ملأها برؤوس ضحاياه الذين كان بينهم عدد غير قليل من وزرائه واعوانه(١) . ولم يكن أبوه القاضي أبو القاسم بن عباد بأكثر رحمة منه(٢) . أما في زمن المعتمد فقد استتب

---

(١) الذخيرة ق ٢ ، ف المعتضد .

(٢) - - ، - القاضي ابو القاسم بن عباد .

الأمر في المملكة لبني عباد واستطاع وزيرهم ابن عمار ان يقبض على زمام الامور بيد من حديد ، فبدا الحال اكثر هدوءاً داخلها واقل اضطرابا . فقد اختفى منافسو الوزير الشاعر خوفاً من بطشه وإدراكاً لقوة نفوذه منتظرين الفرصة السانحة للنيل منه . ومع ان هذه الحال المضطربة قد اوقفت ابن عمار ومنعته من مواصلة طريقه الشائك ، فانها فسحت له المجال لاجتياز جزء مهم منه . ولم تكن نهاية الامراء الاندلسيين الآخرين بأسعد من نهايته على وجه العموم . فقد ذهب بعضهم كبني ذى النون وبني هود ضحية للملوك المسيحيين . وسقط الأخرون صرعى تحت سيوف المرابطين كبني عباد وبني الافطس وبني صمادح ، وفريق آخر كبني جهور وبني طاهر كانوا فرائس سهلة لجيرانهم الاقوياء وضحية نزاعهم مع بعضهم البعض .

هذه هي الخطوط الرئيسة لنشاط ابن ، عمار السياسي ولحياته الحافلة بالمطامع والاعمال والتنقل والتعطش للسيطرة والسلطان .

ابن عمار حاكما لشلب

ما ان حا ابن عمار من سرقسطة إلى اشبيلية وابتدأ حياته قرب المعتمد حتى بدأ نشاطه السياسي بأن طلب من صديقه الملك تعيينه حاكماً لمدينة شلب التي نشأ فيها(١) . فقصدها في موكب كبير مثقلا بالهدايا التي وزعها على كل من رأى في اعطائه فائدة وجدوى . يجذب بذلك قلوب الناس

(١) المعجب ، ص ١١٨

ويستميلهم نحوه ، فقد سبق أن ذكرنا أن هذه وسيلة من وسائل ابن عمار واسلوب من اساليب عمله السياسي .

كما أشرنا أن كرمه امتد الى من سبق أن اعطاه مخلاة شعير في أيامه العسيرة فملأها بالفضة ، ولكنه كما يبدو لم يبق طويلا في شلب ، إذ سرعان ماترك مدينته وتوجه إلى إشبيليه حيث تولى وزارة المعتمد الاولى وبقى فيها يدير شؤون الدولة ، فيدبر المكائد ويحوك الشباك حتى ضج الأمراء منه وخافوا شره (١) ، او كما يقول ابن خاقان «فارتاعت منه الاقطار وطاعت له اللبات والأوطار» (٢) . حتى كان عام ٤٧٤ هـ (١٠٨١-١٠٨٢م) فسافر فى رحلة الى مرسيه لم يعد بعدها الى إشبيلية الا مكبلا بالحديد على حمار بين عدلي تبن .

وقد عال المؤرخون العرب وتابعهم في ذلك دوزى عودة ابن عمار السريعة الى عاصمة الملك . بشوق المعتمد وتعلقه بصديقه وعدم استطاعته الابتعاد عنه وتعليل عاطفي مثل هذا لايمكن أن يبرر عودة الشاعر المغامر الطموح ، رغم مانعرفه عن صداقته الملك إشبيلية وقوة الروابط التي تصله به . فقد كان المعتمد آنذاك فى الثلاثين من عمره ، وكان ابن عمار يبلغ التاسعة والثلاثين ، فلم يكن مايقومان به إذن فى هذا السن يرجع لاندفاعات عاطفية فحسب ، هذا فضلا عن أن الصديقين سبق أن افترقا بضع سنين عندما

---

(١) مذكرات عبد الله بن زيرى ، نشرة ليفي بروفنسال ، سنة ١٩٣٥

(٢) القلائد ، ص ٨٦ .

كان الشاعر في المنفى هرباً من بطش المعتضد عباد . إذن فقد لعبت المصالح المشتركة للمعتمد وابن عمار ، ولا سيما لهذا الاخير ، دوراً رئيساً في تسنم الاخير وزارة الاول وتعهده لشؤون الدولة .

فلم يكن من مصلحة ابن عمار فى تلك الفترة القلقة الصاخبة أن يبقى بعيدا عن صديقه وملكه . فقد كانت كل مطامحه التي عرضنا لها قبل قليل ، والتى ابتدأت تتضح الآن ، تدفعه للذهاب الى إشبيلية والتمكن فيها قرب السلطان . وقد كان المعتمد نفسه فى أشد الحاجة لرجل مثل ابن عمار يساعده فى الاخذ بزمام الدولة والسير بها فى طريق التوسع والتقدم بعد أن استتبت له الامور في الداخل نتيجة سياسة البطش والعنف التي سار عليها والده . لقد كان لابن عمار صفات قل ان تجتمع في غيره ، فذكاؤه الوقاد ولباقته ومعرفته لأحوال البلاد وامرائها كانت خير مشجع للملك على اختياره لهذه المهمة الشاقة . ولا نستطيع القول إنه أساء الاختيار نصل من ذلك الى أن عودة ابن عمار الى إشبيلية كانت بدوافع سياسية اكثر منها عاطفية .

ابن عمار وزير اولا لمملكة اشبيلية

إذن فقد أصبح ابن عمار بسرعة رجل دولة بنى عباد الاول . ولم يكن نفوذه وتأثيره يقتصران في الواقع على هذه الدولة فحسب ، بل قد تجاوزاها الى اكثر مناطق إسبانيا المسلمة . ويبدو صدى هذه الشهرة الكبيرة والنفوذ الخطير اللذين حصل عليهما فى الأوصاف التى أسبغها عليه مؤرخو العرب

والتي اشرنا اليها من قبل ، فهو مخيف (١) ، شديد الخبث ، واسع الشهرة (٢) فاذا اضفنا ذلك الى رأى الملك عبد الله بن زيرى ملك غرناطة الذى اوضحه في مذكراته (٣) والذى يبرر هذه الاوصاف بما يذكره من اعماله ، استطعنا أن نتمثل الدور المهم الذى كان يلعبه فى حياة الاندلس السياسية والتي سنرى وجوها منها في الصفحات القادمة .

فعندما نتحدث عن سياسة إشبيليةاو سياسة المعتمد بين ٤٦١ هـ (١٠٦٩م) و ٤٧٤ هـ (١٠٨٢ م) ، فانما نتحدث فى الواقع عن سياسة ابن عمار نفسه فقد كان فملا العصب المحرك لهذا الاضطراب الذى شمـــل علاقات دولة بني عباد مع جيرانها حتى لقد أطلق عليه ملك غرناطه عبد الله بن زيرى إسم « وسيط السوء » فقد اكد هذا الملك الذى قاسى من ابن عمار الامرين « ارتباط المعتمد الى الخير وايثاره للصلح بعد زوال هذا هذا الفاسق ابن عمار عن دولته . فلم ير بعده (أى بعد ابن عمار) فتنة فيما بيننا وبينه (اى بين ابن زيرى والمعتمد) . فهو يعزو جميع الاضطرابات التي قامت بين المعتمد وغيره من ملوك الطوائف الى سياسة ابن عمار وتأثيره على الملك . ومع ذلك فعبد الله بن زيرى نفسه رغم عدائه الشديد للوزير الاشبيلي يعترف بأنه قدم لملكه خدمات جليلة فقد دفع النصارى عن

---

(١) قلائد العقيان . ص ٨٦ . درزى ، بنو عباد ج ٢ ٦٩ .

(٢) المعجب ص ١١٩ .

(٣) مذكرات الملك عبد الله بن زيري ، الاندلس ١٩٣٥ ج ٣ ص ٢٢٥ .

إشبيلية بضع مرات ، آنا بدهائه ، وآنا بمكائده كما اشرنا الى ذلك من قبل ولكن ملك غرناطة رغم اعترافه بأهمية النتائج التي توصل اليها ابن عمار ، لايريد ان يرجعها الى ذكاء ابن عمار وبراعته السياسية وإنما يقول ان « كل ذلك بأموال رئيسه وسعادة ايامه وهو (اى ابن عمار) بجهله يعتقد أن ذلك لايتهيأ الا بسببه ويرد الحمس كله الى نفسه .. »(١)

ولا نريد ان نزعم هنا أن سياسة ابن عمار لم تكن سياسة المعتمد نفسه ، او أن أمكن أن ماجرى من تبدل ، بنهاية دور ابن عمار فى حكم إشبيليه لايرجع لرحيل ابن عمار بقدر ما يرجع الى تبدل عام فى الظروف التى احاطت بمملكة إشبيلية دفع المعتمد الى تعديل سياسته . فسياسة التوسع التى اتبعها ملك اشبيلية ووزيره لم تكن الا امتداداً للسياسة التي سار عليها المعتضد ولكن صفتها المميزة الخاصة بها كانت التعاون مع النصارى ، وذلك نظراً لأهمية الاهداف التي حاول الملك ووزيره تحقيقها ، فرغم هجمات المؤرخين المسلمين على ابن عمار ورغم الروح « الانتهازيه » التي كانت تتمثل فى الوزير ، ورغم النغمات الباعثة التي كانت تتطلبها سياسته (نغمات حربية وأناوات لأمراء المسيحية) : تقول رغم ذلك فان هذه السياسة نجحت فى توسيع رقعة مملكة إشبيلية الى حد كبير . لقد كان ابن عمار يضحى للمسيحيين بمبالغ طائلة ولكنه قلما كان يضحي لهم بالأرض ، وفي هذا الحساب دهاء وبراعة لايمكن تجاهلهما .

---

(١) مذكرات عبد الله بن زيرى ، الاندلس ١٩٣٥ ، ص ٢٢٠

ابن عمار وقرطبة

عندما ارتقى المعتمد عرش إشبيلية ، كانت دولة بنى عباد تسيطر على جنوب غربى شبه جزيره إيبيريا . وكانت قد نجحت في القضاء على الدويلات الصغيرة التى تكتنفها فضمتها تحت جناحها . ولم يبق في غرب شبه الجزيرة الا مملكة بنى الافطس فى بطليوس الواقعة شمال غربى إشبيلية ، والتى نجح المعتضد عباد في توجيه ضربات قوية لها واقتطاع اجزاء كبيرة من ممتلكاتها. ولم يكن وضعها الجغرافى مما تحسد عليه ، إذ كانت متاخمتها لبلاد النصارى تجعلها دائماً مطمح انظارهم وموقع ضرباتهم . لذا فقد كان على المعتمد أن يولي وجهه نحو الشرق والجنوب الشرقى . اى نحو دويلتى قرطبة وغرناطة. أما فى الشمال فقد كانت مملكة طليطلة القوية التى يحكمها المامون بن ذى النون الطموح ، صديق الفونس السادس ملك قشتالة وليون ، منافساً منافساً قوياً يحسب له بنو عباد ألف حساب . فليس من المستغرب أن تكون قرطبة هي هدف المعتمد الاول .

ولا نريد أن نبالغ في دور ابن عمار فى هذا الفتح ، إذ لم يكن قد مر على مجيئه سوى اقل من سنة ، إلا أن أثره لا يمكن أن يكون معدوماً في هذه الخطوة الجريئة التي تنسجم كل الانسجام مع سياسته ، ففى عام ٤٦٢ هـ (١٠٧١ م) طلب بنوجهور حكام قرطبه العون من بنى عباد ، بعد مظاهر الصداقة التى أبداها لهم المعتمد ووزيراه ابن زيدون وابن عمار ، ضد جيش طليطلة الذي يقوده المأمون بن ذى النون والذى هاجمهم من الشمال .

وسرعان ما أرسل المعتمد جيشه استجابة للدعوة ، مما اضطر ابن ذي النون على الانسحاب بجيشه . ولكن بدلا من أن ينسحب الجيش الاشبيلي ، هاجم المدينة واحتلها بالتآمر مع قسم من سكانها وضمها الى مملكة ابن عباد . ولا نريد أن نطنب في وصف هذا الفتح فقد وجهنا نحوه اهتماما أكبر في بحثنا عن المعتمد ، وانما نكتفي بالتنويه باهمية قرطبة الكبرى ، تلك المدينة التي كانت عاصمة الخلافة والتي بقيت حتى ذلك الوقت مركز الاندلس العلمي والثقافي ومحط انظار الاندلسيين ، فكان لفتحها أثر مادي ومعنوي كبير .

ابن عمار وغرناطة

ولم يكد ينتهي أمر قرطبة ويستتب الأمر فيها حتى وجه ابن عمار انظاره نحو غرناطة ، التي كان يحكمها آنذاك أمراء بني زيري ، من قبائل صنهاجة البربرية . وقد كان دور الوزير في هذا المشروع واضحاً ، إذ قد تحدث عنه بمرارة ملك غرناطة نفسه في مذكراته . فقد ظل يتربص الدوائر بهذه الدويلة الصغيرة وينتظر الفرصة الملائمة ، حتى سنحت له عند ابتداء التصادم والاحتكاك بين ملك غرناطة والفونس السادس ملك قشتالة القوي .

فقد أرسل هذا الأخير سفيره الكونت كاريون الى الملك عبد الله بن زيري يطلب منه أتاوة سنوية قدرها عشرون الف دينار ، اسوة بما كان يفعله ملوك الطوائف الاخرون ، فرفض ملك غرناطة ذلك ورد السفير المسيحي

غائبا يهدد بالويل والثبور . وفي طريق عودته وجد ابا بكر بن عمار يفتخره في باغه ، ليعرض له مشروعاً أسال لعابه . لقد كان الوزير الاشبيلي مستعداً لأن يدفع لألفونس خمسين الف دينار لقاء مساعدة هذا الاخير للجيش الاشبيلي على احتلاله غرناطة وضمها الى مملكة بني عباد . وبالاضافة الى ذلك فقد وعد الوزير السفير المسيحي بأن تكون جميع نفائس وكنوز قصور بني زيري غنيمة باردة للقشتاليين . فوافق السفير على ذلك وأمضى مع الوزير الاشبيلي عقداً به . ولكن ابن عمار كان يعلم حق العلم أن مدينة حصينة كغرناطة سوف لاتترك نفسها فريسة سهلة للمهاجمين ، فقرر أن يبني بمساعدة المسيحيين حصناً قوياً أمام غرناطة يسد عليها السبل ويمنع عنها المؤن . وقد بني فعلا حصن يابلش . ولنترك الملك عبد الله بن زيري نفسه يروي لنا ما قام به ابن عمار ومدى نجاح خطته. إذ يقول في مذكراته « رأى كري ابن عمار من عسكر العونس ماقوى به على البنيان باعداد من الأموال جسيمه ، يسوقهم فيها تارات ، ويعدهم ويخادعهم حتى تم البنيان، وجعل المعتمد يحاول ذلك بنفسه ويبرز أبداً على مقربة من غرناطة مدة كونه ، طمعاً في أن يقوم معه أهل البلدة . فلما تم بنيانه ، قواه بالندب واتخذ فيه جميع الأقوات وأمرهم بالتضييق وكانت الحال شديدة . . . وعند انصراف المعتمد عنه وعساكر الروم عبينا عسكراً كبيراً ونهضنا اليه فلم نقدر فيه على شيء وانقطع رجاء الناس من دولتنا لاجتماع المطالبين عليها مع الروم ، وندمنا على التفريط أولا في معاقدته حسب ما سأل ...

فكان يلبلش قد أفسد وضيق على لحص (اى سهل) غرناطة ... (١)

وهكذا يبدو أن ابن عمار قد احكم رسم خطته وقلبها من جميع الوجوه وضمن لها النجاح . ولكن شيئاً لم يكن في الحسبان أفسد عليه خطته واضطره الى إيقاف تنفيذ مشروعه، ولو موقتـــا . فقد قام عام ٤٦٧ هـ (١٠٧٥ م) أحد المغامرين من قواد الحصون المحيطة بقرطبة المسمى بابن عكاشه ،متآمراً مع المأمون بن ذى النون ملك طليطلة، بمؤامرة استطاع فيها أن يفاجىء قصر الامارة في قرطبة ويقتل الأمير عباد بن المعتمد وقائد الجيش الاشبيلي محمد بن مرتين ويعلن انضمام المدينه الى مملكة ابن ذى النون الذى سرعان ما قصد قرطبة بجيشه وتهيأ للدفاع عنها ضد المعتمد بن عباد . ولكن القدر لم يمهله ، إذ توفي بعد مقدمه بستة شهور فعاد المعتمد الى المدينة وبسط عليها نفوذه (٢) .

لقد كان لهذا الحدث أثره الكبير في خطة ابن عمار ، إذ اضطر بعد دخول المأمون بن ذى النون قرطبه الى ان ينصرف عن غرناطه فيسحب من حولها جنوده ليستعين بهم فى استرداد قرطبة او ملافاة ماقد ينتج عن احتلال ابن ذى النون لها من نتائج سيئة . فاخلى حصن يلبلش وتنفس ابن زيرى الصعداء .

ولكن اطمئنانه هذا لم يطل اذ ما كاد الاشبيليون يستردون قرطبة

---

(١) مذكرات عبد الله بن زيرى ، الاندلس ج ٣ . سنة ١٩٣٥ . ص ٢١٨ .
(٢) انظر دراستنا عن المعتمد بن عباد . (تحت الطبع)

حتى عاد ابن عمار لموالاة مؤامراته لاحتلال غرناطة متوجها هذه المرة ايضاً الى الفونس السادس . ولنترك ملك غرناطة نفسه يحدثنا عن هذه المحاولات ويصف لنا الوضع السياسي المضطرب الذي كان يسود البلاد آنذاك، فيعطينا صورة واضحة للمسرح الذي كان يلعب فوقه ابن عمار ادواره . ولا بدأن نشيرهنا الى أن ركاكة الاسلوب ترجع الى كون الملك البربري كان يكتب مذكراته ببساطة وبلغة لاتصنع فيها ولا تزويق .

يقول الملك ابن زيري (١): « وبقي ابن عمار مرتهناً بما جعل على نفسه للنصراني (اى الفونس السادس) من كراء يليلش في تبعات كثيرة وجرايات جسيمة ، يقطعها له ، ويعده بها ، وادخل سلطانه (اى المعتمد) من ذلك في تشغيب ، لأنه كان لا يريد أن يجعله يخلد الى راحة لكي يحتاج اليه في تلك الفتنة ، لا يقر عن ادخال ضرر على المسلمين . ومتى ما كان المعتمد يسعى في تهدين الامر ونروم معه الصلح ، أو تنشأ مهادنة ، لا ينام في نقضها واشعال نار الفتنة ، فعاد ثانية الى النصراني اذ فونش وزين له غرناطة وصور نا عنده في صورة من لا يقدر على كل شي من أجل الصبا ، وأنه ضامن له أموال غرناطة لتصير له بأسرها ، على أن يعاقده ، إن تمكن من البلدة ، أن يجعلها ملكه (أى ملك ابن عمار) وله (أى لألفونس) مالقي من اموالنا . والقي يده في يد أذفونش عاز ما عليه في الاقبال إليها ، واعطى على ذلك اموالا جسيمه ، ووعده بخمسين الف مثقال ، اذا تمت القضيه ،

---

(١) مجلة الاندلس ، سنة ٥ ، ١٩ ، ص ٣١٩ .

ليعطيها زائدة على ما يجد لمساعدته على السير ، فأدرك الرومى من ذلك طمع كثير ، وقال : هذه نصبة لست اخلو فيها من فائدة وإن لم تحصل البلدة ، فأى فائدة لي في اعطاء بلدة من واحد لآخر الا تقويته على نفسى ، وكما كثر الثوار ووقع بينهم التنافس ، كان لي افأد (كذا) . فأتى على نية اخذ مال الفريقين ، يكسر رؤوس بعضهم ببعض ، ولا كان ايضاً من امله ان يأخذ البلاد لنفسه ، فانه عمل فى ذلك حساباً ، أن قال : انا من غير الملة ، وكل الناس يشنأنى ، فبأي وجه أطمع في أخذها ؟ ان كان من باب الطاعة فأمر لا يمكن ، وان كان من وجه القتال ، فيهلك فيها رجالي وتذهب اموالي وتكون الخسارة علي اكثر مما نرجوه إن صارت إلي ، ولو صارت لم تمتسك الا بأهلها ، ثم لا يؤمنون ، ولا يمكن أن نستبيح اهلها ونعمرها بأهل ملتى ، ولكن الرأى كل الرأى تهديد بعضهم ببعض ، واخذ أموالهم ابداً حتى ترق وتضعف ، ثم هى تلقى بيدها اذا ضعفت وتأتي عفواً ، كالذى جرى لطليطلة ، إنما كان من فقر اهلها وتشتتهم مع اندبار سلطانها ، وصارت الى بلا مشقة ... »

ويواصل ابن زبرى كلامه فى مذكراته فيقول :

« وكنا نحن نعلم هذا من مذهبه ، على ما كان يخبر وزراءه . ولقد قال ذلك شيشلاند في حال هذه السفرة . وشافهنا بذلك ، وقال :

« إنما كانت الاندلس للروم في اول الامر حتى غلبهم العرب والحقوهم بأنحس البقع جيليقية ، فهم الآن عند التمكن طامعين (كذا) بأخذ ظلاماتهم ، ولا يصح ذلك الا بضعف الحال والمطاولة ، حتى اذا لم يبق مال ولا رجال

اخذناهم بلا تكلف .

فكان الجميع (اى ملوك المسلمين وامراؤهم) يساير الامور ويدافع الايام ، ويقول : من هنا الى ان تتم الاموال وتهلك الرعايا ، نعمهم ، يأتى الله بالفرج وينصر المسلمين ! ..

فورد علينا من اقبال الفونش مع ابن عمار هول عظيم ، وصح عندنا انه لم يأت الا طالباً لملكنا ، قد استوثق من الفونش على ما قدمنا ذكره ثم ارسل (اى الفونس) الينا ينذر باقباله ويأمرنا بالخروج اليه ، يرى انه يذهب الى تجديد العهد والاجتماع بنا ، على ما يفعله مع السلاطين . فلم نشك ان ذلك للتقبض (كذا) علينا ، وانجاز ما عاقدهم (اى الاشبيلين) عليه .

فاجتمع الينا اهل الراى والمشورة ، وقالوا : ما الذى تذهب اليه ؟ هذا عدو قد جاء لطلبك ، ولا قدرة بك على مناوأته ، وسواء عليك خرجت ام بقيت ، فان انت بقيت حلت بك الداهية العظمى ، ووقعت المفاسدة ، واصاب مطالبك سبيلا الى العمل ، وتكون هذه اشد من الاولى .

وقد رفضنا بطرة شولس (وهو سفير سابق لالفونس قدم لغرناطة يطلب الاتاوة للملك المسيحى فرده ابن زيرى) والقى ابن عمار يده فيه حتى بنى علينا يليلش ، والآن لم يتروح مخنقنا حتى نعود الى ما هو أدهى وامر .

فلو رأت الرعايا بعض خلاف من هذا الجيش لم تبق ولا تذر لمشقة ماقددهوا به قبل ، وكاد الرجاء ينقطع ويتلف الكل حتى نؤخذ وهنا باليد على غير

صلح ، فلا يرقب فينا إلاًّ ولا ذمة . فالخروج اليه أيسر الأمرين . فان كانت سلامه شكرت رأيك وثبت ملكك . وإن كانت الاخرى ، كان خروجك عن أمان وصرت خيراً فى العافية (كذا) فاعزم على لقاه (أى الفونس) وقل له قولا ليناً ، ولله أن ينفذ قضاءه .

فاستعددنا لذلك جهدنا واجمعنا حرالينا من نثق به من رجالنا ، واخذنا أهبة للحال ، ولقيناه على مقربة من المدينة ، وبالغنا بالضرورة في إكرامه ، فاعرض علينا وجهاً بسيطاً وخلقاً حسناً ، ووعدنا ان يحامى عنا كما يحامي عن بلده .

ثم وقعت المعاملة ، ومشت الرسل منا اليه ومنه الينا ، يدين ما عوقد عليه ، وانه سيق سوقاً ، ويقول : اني قد تثبت فى الامر ، ولم نعجل حتى نسمع ما عندكم ، فان جاملتمونى ورأيتم لقصدى وجهاً ، انصرفت عنكم على خير ، والا فها أنا مع من عاقدنى . وطلب خمسين الف مثقال . فشكونا اليه قلة البلاد ، وان ذلك لايقدر عليه ، وفيه من القطع لنا ما يفترصنا به ابن عباد (اى المعتمد) ، فانه لوأخذ غرناطة قوى عنصره ولم يطع اليك ، فهذا ما نقدر عليه واترك رمقاً لانستأصل من أجله ، وما تركت نجد عندنا متى ما طلبت . فقبل العذر بعد جهد عظيم ، وقاطعناه لقصده بخمسة وعشرين ألفاً ، نصف العدد ، ثم أعددنا له من الفرش والثياب والآنية كثيرا ، استدفاعاً لشره . وجمعنا ذلك كله فى خباء كبير ، ودعوناه اليه . ولما رأى الثياب استحقرها ووقع الاتفاق معه على زيادة خمسة آلاف مثقال لتتم بها

ثلاثون (كذا) الفاً ، فأكلناها له لئلا ينفسد الا كثر عن الا قل . فشكر على ذلك كله وكاتب عليه نفسه ، ورجع على ابن عمار يقول له : كذبت لي فى قولك إن غرناطة فى ضعف وإن صاحبها من صغر سنه لا يعقل . ورأيت من رتبتها وأحوالها ما خالف قولك . فرجع ابن عمـــار يسأله أن يعقد بيننا عقداً يوقف عنده . واستمله على اخذ اسطبة من عندنا . وكان معقلا عظيما مما يلي جهات إشبيلية ، أخذه قائدنا كباب فى الفتنة ، وسألناه نحن خبر القلعة ، فوقع الاتفاق على أن تكون قلعة أسطلير عوضاً عن أسطبة .

وكانت قاشتره ومارتش المعقلين على جيان ، ومن أجلها انقطع صاحبها عمنا . ولم يكن لجيان معنى إلا بهما . فترامى ابن عمار فى أمرهما على الفونش ووعده على مارتش بأموال ، أنه يشتريهـــا ، فعزم (أى الفونس) علينا فيها للطمع في المال ، وعدنا نحن على قاشترة بالمطمر ، وكان (اى المطمر) ايضاً حصناً قد اشترك في نظره مع نظرنا ابن ذى النون . فضمن خبره (كذا) ان يعطيه لنا عوضاً منها (اى من قاشترة) . فدافعنا الأمر جهدنا فلم نقدر على أكثر ، فعل القوي مع الضعيف ، ثم إنه عقد العقد بين يديه على ذلك ، وانه لا يتعدى منا أحد على صاحبه . وذكر فيه ما نعطي كل عام من الضريبة . فجعل علينا عشرة الاف مثقال في العام وطيب لنا الـكلام بأن قال : طمع ابن عمار أن نغدر بك ، ومعاذالله من ذلك ، أن يشيع فى الدنيا أن مثلي كبير في الروم يقصدك وانت كبير فى جنسك ، ثم نغدر بك . فابق على أمان ، لا أكلفك الا الضريبه ، توجه الى بها كل عام دون مطل . وإن تأخرت بها أتاك رسولى

عنها، وتلزمك عليه نفقات فبادر بها . فقبلنا قوله ورأينا اعطاء عشرة الاف فى العام ندفع بها مضرته ، خيراً من هلاك المسلمين وفساد البلاد . إذ لم لم تكن بنا قدرة على ملاقاته ومكابرته ولا وجدنا من سلاطين الاندلس عونا عليه ، إلا من يسوقه الينا لهلاكنا . فبقيت الأمور على مصالحة ومهادنة ورفاهية لايسمع فيها بفتنة .

ومما هيأه الله ، ان فقدنا وسائط السوء بعد ذلك بفقد ابن عمار وشغله فى مرسيه ... الخ ...(١)

في هذا الجزء القيم من مذكراته ، يوضح لنا ملك غرناطة عبد الله بن زيرى الدور الخطير الذى كان يلعبه ابن عمار فى الحياة السياسية لاسبانيا المسلمه في ذلك العصر ، والاسلوب الذى كان يلجأ اليه لتحيق اغراضه والوصول الى اهدافه ، عارضاً أثناء ذلك صوراً دقيقة للأوضاع السياسية فى تلك الفترة المضطربة من تأريخ المسلمين فى تلك البلاد . إن المعلومات التي يمكن أن نستخلصها من هذه السطور التى نقلناها عن الملك الأندلسي ومن تلك التي لم ننقلها ، لذات أهمية كبرى فى إدراك كثير من تيارات السياسة الاندلسية ودور الملوك المسيحيين الخطير وموقف امراء الطوائف منهم ، مما لا يدخل الآن فى صميم هذا البحث . ان ما يهمنا قبل كل شيء هو ادراك سياسة ابن عمار ومعرفة اساليبه في العمل واهدافه التي سبق أن أشرنا اليها ؟ ولا شك أن هذه الأساليب والأهداف تتمثل بأوضح

(١) الاندلس . سنة ١٩٣٥ . ص٣١٩ . ص٣٢٣ .

وجوهها في مغامرة ابن عمار هذه ، ولا سيما ما يختص منها بعلاقته بألفونس السادس وعمله معه ، مما سنأتي الى بحثه بشيء أكثر من التفصيل .

إذن فلم يستطع ابن عمار تنفيذ خطته التي وضعها لضم غرناطة الى مملكة بني عباد ، رغم الجهود الكبيرة التي بذلها في هذا السبيل ، ولكنه مع ذلك لم يخـــرج من الصفقة صفر اليدين ، فضم بعض الحصون المهمة الى مملكة إشبيلية متهيئاً لمغامرة اخرى وباحثاً عن فريسة جديدة . فوقع نظره على مرسية المدينة الغنية الواقعة على ساحل البحر الابيض المتوسط ، والتي كان يحكمها ، مستقلا فيها ، الأمير الاديب ابن طاهر . ولكن قبل ان يبدأ بهذه المغامرة كان عليه أن يتجنب خطراً كبيراً كان يهدد إشبيلية آنذاك وهو خطر الفشتاليين مسيحيي الشمال الذين كانوا يرون في ضعف ملوك الطوائف دوافع قوية تحثهم على استنزاف اكبر المنافع منهم . فزحفوا على إشبيلية وهددوها بالويل والثبور ، فكان ابن عمار هو رجل الساعة .

ابن عمار ومسيحيو الشمال

لقد سبق أن ذكرنا أن الوزير الاشبيلي كان يدرك قوة المسيحيين في الشمال الى جانب ضعف ملوك الطوائف المسلمين وتخاذلهم ؛ لذا فقد جعل أول أهدافه السياسية التقرب من الفونس السادس وجلب رضاه وتجنب خطره بجميع الوسائل الممكنة ، وأهم هذه الوسائل المال . فكانت مملكة إشبيلية ، كغيرها من الدويلات الأندلسية آنذاك ، تدفع للملك القشتالي ، أتاوة سنوية معينة تجنباً لشره وحفظاً لصداقته . وكان الفونس يعرف قوة مركزه

وضعف موقفهم ، فاستغل ذلك إلى اقصى حدود الاستغلال . فكان كلما وجد الفرصة سانحة للحصول على قطعة من الارض او مبلغ من المال لم يتركها تفلت من يديه ، فيزحف بجحافله مرعداً مزبداً ، يخرب الحقول ويحاصر المعاقل حتى يخضع الأمراء المسلمون لارادته فيهدئوه بما يقدمون اليه من مال .

ورغم جهود ابن عمار الكثيرة فى الحصول على رضى الملك المسيحى فيبدو أن ألفونس بعد عقده اتفاقيته التي أشرنا اليها مع غرناطة بفترة لانستطيع تحديدها ضبطاً ، رغم أننا نستطيع القول إنها لايمكن أن تكون قبل ٤٦٨ هـ ، وهو التأريخ الذى يرجح أنه عقد فيه معاهدته مع غرناطة ، ولا بعد ٤٧٠ ، إذ أن ابن عمار كان يدبر بعد هذه السنة مؤامرته ضد مرسية كما سيأتى ذكره . نقول ، رغم جهود ابن عمار ، فقد زحف ألفونس السادس بجيشه على مملكة إشبيلية وهددها بالدمار . ويروى لنا أحد المؤرخين المسلمين ، وهو عبد الواحد المراكشي ، فى كتابه « المعجب » قصة ظريفة عن الدور الذى قام به ابن عمار في صد هذا الهجوم ، يبدو أن الخيال قد ساهم فى نسجها لحد غير قليل ، ومع ذلك فنحن ننقلها هنا نصائم نناقش ماجاء فيها بعد ذلك . وقد نقلها عنه دوزى دون ان يشك فيها(١) .

قال عبد الواحد المراكشي (٢) :

ولم يزل المعتمد يعده (أى ابن عمار) لكل أمر جليل ويؤهله لكل

---

(١) - Mus Esp., T. 3. P. 102

(٢) المعجب، ص ١١٩ .

رتبة عالية . وكان ابن عمار مع هذا لا يناط به أمر الا اضطلع به وكان فيه كالسكة المحماة . واشتهر أمره ببلاد الأندلس ، حتى كان ملك الروم الأذفنش ، اذا ذكر عنده ابن عمار قال : هو رجل الجزيرة ! وكان ابن عمار هو الذى رده عن قصد إشبيلية وقرطبة واعمالها . وذلك أنه خرج في جيوش ضخمة يقصد بلاد المعتمد طامعاً فيها ، فخافه الناس ، وامتلأت صدور أهل تلك الجهات رعباً منه ، وتيقنوا ضعفهم عن دفاعه . فتولى ابن عمار رده بألطف حيلة وايسر تدبير ، وذلك أنه أقام سفرة شطرنج في غاية الابداع لم يكن عند الملك مثلها ، جعل صورها من الأبنوس والعود الرطب والصندل ، وحلاها بالذهب ، وجعل أرضها فى غاية الإتقان . فخرج من عند المعتمد رسولا الى الاذفنش ، فلقيه في أول بلاد المسلمين ، فأعظم الاذفنش قدومه وبالغ فى إكرامه ، وأمر وجوه دولته بالتردد الى خبائه والمسارعة في حوائجه . فاظهر ابن عمار تلك السفرة ، فرآها بعض خواص الأذفنش فنقل خبرها اليه . وكان العلج - أعني الاذفنش - مولعاً بالشطرنج ، فلما لقى ابن عمار سأله : كيف أنت فى الشطرنج ؟ وكان ابن عمار فيه طبقة عالية - فاخبره بمكانه فيه . فقال له : بلغنى أن عندك سفرة فى غاية الاتقان . قال ابن عمار . نعم ، فقال : كيف السبيل الى رؤيتها ؟ فقال ابن عمار لترجمانه : قل له أنا آتيك بها على أن العب معك عليها ، فان غلبتني فهى لك ، وإن غلبتك فلي حكمي . فقال له الأذفنش : هلمها لننظر اليها ؟ فأمر ابن عمار من جاء بها . فلما وضعت بين يدى العلج صلب وقال : ماظننت أن إتقان

الشطرنج يبلغ إلى هذا الحد ! . ثم قال لابن عمار : كيف قلت ؟ فأعاد عليه الكلام الأول . فقال له الأذفونش: لا ألعب معك على حكم مجهول لا أدرى ماهو، ولعله شيء لا يمكننى :. فقال ابن عمار : لاألعب إلا على هذا الوجه. وامر بالسفرة فطويت . وكشف ابن عمار سر ما اراده لرجال وثق بهم من وجوه دولة الأذفنش ، وجعل لهم اموالاً عظيمة على أن يؤازروه على أمره، ففعلوا . فتعلقت نفس العلج بالسفرة ، وشاور خاصته فيما رسمه ابن عمار . فهو نوا عليه وقالوا له : إن غلبته كانت عندك سفرة ليس عند ملك مثلها وإن غلبك فما عساه أن يتحكم ؟ وقبحوا عنده إظهار الملك العجز عن شيء يطلب منه . وقالوا له إن طلب ابن عمار مالا يمكن فنحن لك برده عن ذلك . ولم يزالوا به حتى اجاب ، وارسل الى ابن عمار فجاء ومعه السفرة . فقال له : قد قبلت مارسمته . فقال له ابن عمار : فاجعل بينى وبينك شهوداً سماهم له : فامر الأذفونش بهم فحضروا ، وافتتحا يلعبان . وكان ابن عمار ـ كما ذكرنا ـ طبقة في الاندلس ، لايقوم له أحد فيها . فغلب الأذفنش غلبة ظاهرة لجميع الحاضرين ، لم يكن للعلج فيها مطمن. فلما حقت الغلبة قال له ابن عمار: هل صح أن لى حكمي؟. قال : نعم، فما هو ؟ .قال: أن ترجع من هنا الى بلادك: فاسود وجه العلج وقام وقعد ، وقال لخواصه : قد كنت أخاف من هذا حتى هو نتموه على : . في أمثال لهذا القول . وهم بالنكث والتمادى لوجهه ، فقبحوا ذلك عليه ، وقالوا له : كيف يجمل بك الغدر وأنت ملك ملوك النصارى فى وقتك : فلم يزالوا به حتى سكن ، وقال : لا أرجع حتى

آخذ أتاوة عامين خلاف هذه السنة ! فقال ابن عمار : هذا كله لك . وجاءه بما أراد ، فرجع وكف الله بأسه ، ودفعه بحوله وحسن دفاعه عن المسلمين ، ورجـــع ابن عمار الي إشبيلية وقد امتلأت نفس المعتمد سروراً به . » (١)

هذه هي الحكاية التي رواها المراكشي وواضح أن الخيال قد يكون أسهم في تكوينها لحـد غير قليل ، لاسيما وأن المؤرخون الذين عنوا بحياة ابن عمار والذين سبقوا المراكشي ، فكانوا اقرب منه الى عهد الوزير لم يشيروا لها بوضوح رغم تولعهم بالبحث عن طرائف الاخبار . ومع ذلك فنحن لانستطيع ان نعرض عنها إعراضاً تاماً ونضرب عنها صفحاً ، إذ يبدو أن فيها نصيباً غير قليل من الصحة ، لا سيما ما يتعلق منها بجهود ابن عمار الناجحة في رد غارة الفونس بالوسائل الدبلوماسية وأهمية هذا العمل . فدوزي يذكر في كتابه عن المسلمين في اسبانيا ، أن أحد المؤرخين الاسبان قدماء وهو كاسكاليس ، ذكر أن الفونس السادس كان يوفي برهانه عندما يلعب الشطرنج فقد فعل ذلك مع احد المسلمين رغم عظم أهمية الرهان(٢) ويشير منندث بيدال عند كلامه عن الفونس السادس في كتابه عن اسبانيا في القرن الحادي عشر الى ان هذا الملك قد قام بغارات متواليه حوالي عام ١٠٧٩ (اى ٤٧٠ ـ ٤٧١ هـ) على مملكتي بطليوس وطليطله ويذكر تفاصيل ذلك .

---

(١) المعجب : ص ١٢١

(٢)
1- Mus Esp., T. 3, P. 101
2- M. Pedal, Es ana del cid, T. 2

فان الممكن جداً أن تكون إشبيلية قد نظمت علاقتها معه باتفاق كهذا الذي عقده ابن عمار . والمعاهدة نفسها التي ذكرها المراكشي تنسجم كل الانسجام مع الأساليب الدبلوماسية المتبعة في ذلك العصر . وفضلا عن ذلك فقد مدح أحد شعراء البلاط الاشبيلي وهو حسان بن المصيصي الوزير ابن عمار وأشار الى جهوده العظيمة في دفع النصارى عن المملكة بالحيلة والتدبير (١) وأوضح من هذا وذاك هو أن ملك غرناطة عبد الله بن زيري عدو ابن عمار المدود يذكر نجاح ابن عمار في رد عادية النصارى عن البلاد فيقول : «ولانه (أي ابن عمار) كان قد استمال النصارى وادخل منهم بحيله ، فمتى ماتهم أمر من قبلهم وجهه (اى المعتمد) اليهم ، فينجلي من أمرهم مايضرق الصدر به ، وكل ذلك بأموال رئيسه وسعادة أيامه ...» (٢) .

كل هذه الاشارات واخرى غيرها تدل على دور ابن عمار السياسي في دفع النصارى عن مملكة اشبيلية مستعملا المال والحنكة السياسية . وأما ماعدا ذلك مما ورد في حكاية عبد الواحد المراكشي فلا يهمنا الا قليلا .

يبدو لنا مما مر دور ابن عمار المهم في حياة أسبانيا المسلمة في ذلك الوقت ، والأسلوب السياسي الذي اتبعه في عمله والذي حاولنا ايضاح خطوطه العامة في صفحات سابقة ، فاحرز نجاحاً غير قليل لاسيما اذا اخذنا بنظر الاعتبار الظروف الحرجة المضطربة التي كانت تمر بها البلاد آنذاك . ولا شك أن اهم مظاهر هذه السياسة هي أن مملكة

---

(١) الذخيرة ، ق٢ ، ف حسان بن المصيصي .

(٢) الاندلس ، ١٩٣٥ ، ص٢٢٥

اشبيلية لم تدخل طيلة وجود ابن عمار في وزارة اشبيلية في نزاعات خطيرة مع مسيحيي الشمال كما كان شأن بطليوس وطليطلة وسرقسطة . لقد اصبح ابن عمار بعد اعماله السياسية هذه ألمع الشخصيات السياسية في اسبانيا المسلمة آنذاك ، وكانت له اليد الطولى في ادارة امور مملكة اشبيلية وتوجيه سياستها . لقد اصبح الشاعر البائس المتشرد المهمل محط الانظار ، يستدر رضاه ويتجنب شره ، اصبح الوزير الاول لاكبر ممالك الاندلس واقواها نفوذاً واكثرها ثروة . ولكن مطامعه لم تكن لتقف عند حد ، فطفق يقلب نظره فيما حوله باحثاً عن فريسة يسيرة ، فلفت انظاره بمرسيه المدينة الغنية في شرق الاندلس التي كان يحكمها الامير الكاتب ابن طاهر فحاك حولها الشباك ودبر لها المكائد ، ورغم ما احرزه من نجاح في جهوده ، هذه فان نجمه ابتدأ يأفل وينحدر نحو الافق بعد أن توسط قبة السماء زمناً ليس باليسير . إن حملة مرسيه تعتبر في الواقع فاتحة صفحة جديدة في حياة ابن عمار سنأتي للحديث عنها بعد قليل .

نشاط ابن عمار الادبي أيام وزارته للمعتمد في اشبيلية

بقي علينا أن نبحث في هذه الحياة الصاخبة التي قام فيها ابن عمار السياسي البارع باهم الادوار عن ابن عمار الشاعر ، ولكن جهودنا مع الاسف لاتكاد تحظى بما نأمله من ثمار . اذ يبدو أن حياة ابن عمار الجديدة ، ولا سيما تبديل طبقة قد وضعه في حال يختلف تماماً عما اعتاد سابقاً عليه . فلم يكن من السهل عليه أن يتكيف لها ولما توحيه من موضوعات شعرية لم يألفها في حياة الشباب المريرة . فمن الطبيعي أنه لم يحتج

الى المدح والتكسب بالشعر كما كان يفعل سابقاً ، ولم يكن فى حال يُفسح فيه للعواطف الثائرة والمشاعر الملتهبة محلا واسعاً من نفسه ومشاغله . لقد كان الشعر حلية يتحلى بها الوزراء ويستخدمونها كلما تطلبت المناسبات والظروف ، وهذه المناسبات والظروف لم تكن في اكثر الاحيان عميقة التأثير فى نفس الشاعر بحيث تدفعه الى الابداع ، فلا بد مثلا أن يرد الشاعر على صديق ارسل إليه قطعة شعرية بأخرى مثلها ، ولا بد له حين يتبارى الشعراء فى مجلس لوصف منظر معين اوحال معينة أن يدلي بدلوه بين الدلاء ، وأن يرهق قريحته لتجود بما يتيسر لها من ابيات ، ترضى ذوق الصحب وتحظى على وجه الخصوص بإعجاب الامير ، الى آخر ما هنالك من مناسبات مماثلة .

إننا في الواقع لانكاد نرى فى هذه الفترة أثراً لناظم الرائية والميمية والدالية التى مرت فى الفترة الاولى من حياته ، بل إن كل ما هنالك قطع أكثرها لايتجاوز بضعة أبيات متناثرة ، نظمت لتحية صديق اوللرد على رسالة او استجابة لرغبة غير منبعثة من نفس الشاعر بل مفروضة عليه من خارجها ، اوغزل متكلف بحسناء اوغلام . وهذه الأبيات في أغلبيتها الساحقة تسيطر عليها نزعة عقلية ، ونعني بها جهداً فكرياً مقصوداً في رصف الكلمات واتئاقها بالزخرفة اللفظية والبيانية والصنعة الظاهرة البادية التكلف . فالشاعر يقصر جهده على ابداء براعته اللغوية ، ومقدرته على اللعب بالالفاظ ، فلا نكاد نشعر تجاهها بأى احساس فنى أو قيمة أدبية الا في مقطوعات قليلة وأبيات متناثرة هنا وهناك تحاول فيها العواطف أن تشق طريقها بجهد

خلال البهرجة الكلامية والتصنع اللفظي ، نذكر منها على سبيل المثال قوله يصف جدولا يصب في غدير : (١) .

ومطرد الأجزاء يصقل متنه
صباً اعلنت سر الندى في ضميره

كأن حباباً ربع تحت حبابه
فسارع يرمي نفسه في غديره

جريح باطراف الحصى كلما جرى
عليها شكى أوجاعه بخريره

شربنا على حافاته دور سكرة
واكثر سكراً منه عينا مديره

وقد لاح نجم الصبح باد كأنه
مطرق جيش مؤذن بأميره

الا أن من الواضح أن حكمنا هذا على شعر ابن عمار في هذه الفترة يعوزه كثير من الدقة والاحكام ، إذ لاشك أن مالدينا من انتاج الشاعر لا يعدو أن يكون قليلا من كثير اختفى ولم يصلنا منه الا النزر اليسير . فقد يكون لما اختفى قيمة ليست لما بين يدينا منه ، وإن كان المألوف أن يكون مؤرخو الأدب عنوا باختيار أحسن ما لديه واكثره تأثيراً في نفوسهم . على أن ما سبق أن ذكرناه حول موقف المؤرخين القدامى ، ولا سيما منذ

(١) ديوان ، نص ، ٨٠ .

القرن الخامس الهجري يجعلنا لا نعتد كل الاعتداد بأذواقهم واختيارهم ، فقد يكون في ما اهملوه أصالة وإبداع يفوقان ما في الذي نقلوه . ومع ذلك فان في حياة ابن عمار في هذه الفترة ما يبرر لحد ما هذا الضعف الذي نشاهده في شعره وهذا الهزال الذي نراه في قصائده .

فأولا ، لم يعد ابن عمار شاعراً ممتهناً كما كان سابقاً ، بل اصبح وزير دولة كثير المشاغل والمهام ، فمن الطبيعي جداً أن تأخذ الادارة والسياسة جزءاً غير قليل من وقته وتفكيره وأن يغدو الشعر بالنسبة له وسيلة لهو وتسلية ، ينظمه غالباً عندما يخلو لنفسه ويسمر مع ندمائه مستجيباً لحاجة المجتمع الأرستقراطي الاندلسي الذي سبقت الاشارة اليه فنجد المراسلات الشعرية أو ما يدعى بالاخوانيات تشغل جزءاً غير قليل من إنتاجه الادبي ، كما يحتل وصف مجالس الأنس والتشبيب جزءاً مهماً آخر . اما المديح فقد كان ينظمه أيضاً . ولاسيما في أول هذه الفترة ، ولكنه يختلف عن مديحه في القسم الاول من حياته ، فهو في الغالب مدح صديق لصديقه او وزير لملكه ، يغلب الولاء فيه على الاستعطاف والاستجداء . وهذه الانتاج بجملته كما ذكرنا لا يكاد يقف على قدميه أمام المقاييس الأدبية الحديثة اذ يغلب عليه كما قلنا سابقاً التصنع والتكلف والزخرفة اللفظية والبيانية بشكل غير مستساغ في اكثر الاحيان .

وثانياً . فقد كان لتبدل طبقة ابن عمار تأثيره أيضاً في إضعاف إمكانياته الأدبية . فلم يكن من عادة ابن عمار أن ينظم إلا نادراً في غير المديح وما يتعلق به من موضوعات كالشكوى والاستعطاف . أما الآن

فقد وجد نفسه أمام موضوعات جديدة ، عليه أن يجيد فى وصفها ، فمن الطبعى أن لا يستطيع القيام بذلك بسهولة ويسر ، لا سيما وأن الدوافع التى كانت تدفعه سابقاً كالحاجة أو الخوف لم يعد لها وجود الآن . وسنرى أن شعر ابن عمار يكتسب حيوية وقوة عندما تتوافر له هذه الدوافع ويجد نفسه ثائر المشاعر مضطرب العواطف . لقد سبق أن ذكرنا أن الشعر لم يكن عند ابن عمـــار غاية فى ذاته وإنما كان وسيلة لتحقيق آماله وبلوغ مآربه ، وقد كانت مآربه وغاياته تنحصر فى كسب المال والجاه والحصول على المنصب والتقرب من السلطان ، وقد تحققت أمنياته هذه وتوافرت بين يديه . فلم يعد الشعر إذن ذلك السلاح الفعال والسبيل الذى لابد منه للحصول على ما يطمح فيه ، بل أصبح كما ذكرنا مسلاة ولهوا .

وعلى ذلك فعلينا أن ننتظر الفترات التاليه من حياة ابن عمار حين تجتاح حياته العواطف لنرى قابلياته الأدبية تتفتح وتثمر .

ابن عمار

بين عامى ٤٧١ و ٤٧٧ للهجرة

(١٠٧٨ — ١٠٨٤ للميلاد)

إن هذه السنوات الست من حياة ابن عمـــار حافلة بالاحداث مليئة بالمفاجآت ، بل إن أحداثها ومفاجآتها ذات أهمية حاسمة فى حياة الشاعر ، نقلته من طور الى طور جديد ومن حال الى حال يختلف عن سابقه، حتي قادته اخيراً الى مصيره الذى سنأتى الى ذكره . أما مالدينا من انتاجه الادبى فى هذه الفترة فهو نزر يسير ، إلا أنه يلفت النظر آنا لقيمته الادبية ، وحيناً لفائدته التأريخية والإخبارية ويمكننا أن نضم فى القسم الاول بائيتيه (١) اللتين أرسلها الى المعتمد معتذراً ، وثائيته (٢) التى توخت نفس الغرض ، إذ أنها تحتل مكانها فى الصف الاول من إنتاجه الأدبى .

ابن عمار ومرسية

أما البائيتان فقد نظمهما بعد محاولته لاحتلال مرسية . ولهذا الحدث أهمية خاصة في حياة الشاعر ، فقد مر ذكره لدى جميع المؤرخين الذين تعرضوا لابن عمار وتحدثوا عن حياته مع بعض الخلاف في التفاصيل .

---

(١) الديوان ، ص ٥٤ ، ٥٥

(٢) « ، ص ٥٦

فقد كانت مرسية الهدف الجديد للوزير الاشبيلي بعد أن فشلت جهوده لاحتلال غرناطة ، واكتفى بضم بعض حصونها إلى مملكة إشبيلية ، وبعد أن استطاع أن يبعد ، ولو لأمد محدود ، الخطر المسيحي فيقوى مركزه ويعلو شأنه .

نظر ابن عمار وهو في قمة مجده حوله باحثاً عن فريسة جديدة يرضى بها طمعه ويحوك حولها مؤامراته ، فوجدها في أمارة مرسيه المتاخمه لمملكة إشبيلية من الشرق . وكانت مرسيه هذه تكون ، بعد انحلال الخلافة في قرطبة ، جزءاً من أملاك زهير العامرى ، ثم ضمت بعد مصرع زهير في حروبه مع غرناطة الى مملكة بلنسية . أما فى هذه الفترة التي نتحدث عنها فكانت مستقلة يرأسها أمير عربى ينتسب الى قيس ، يذكر المؤرخون عنه أنه كان واسع الثراء لحد كبير ، إذ أن أملاكه الخاصة كادت تبلغ نصف المقاطعة(١) ، هو أبو عبدالرحمن بن طاهر . وابن طاهر علم من أعلام الأدب الأندلسي في القرن الخامس ، فقد كان كاتباً طويل الباع فى مضمار الترسيل ، واسع الاطلاع في ميدان الادب (٢) ، خصص له مؤرخو الأدب العربى الاندلسي (٣) فصولا مسهبة ، وحفظوا لنا من كتاباته ورسائله نماذج تستحق كل اهتمام وتقدير ، بل إن ابن بسام نفسه وقف عليه كتاباً

---

(١) الذخيرة ، ق٢ ، ف ابن طاهر .

(٢) الخلة السيراء ، ف ابن طاهر .

(٣) نفس المصدر . الذخيرة ، ق ٣ ، ف ابن طاهر . قلائد العقيان ص٥٨ . المعجب ، ص ١٢١

خاصاً وسمه بـ « سمط الجواهر فى ترسيل ابن طاهر » (١). ولكنه كان فى سياسته ، من الأمراء الذين يحرصون على العيش بسلام بعيداً عن مطامع الطامعين ، تصله ببقية أمراء الطوائف روابط الود والصداقة . وقد يكون السبب الأول فى انتهاجه هذه السياسة ضعفه ووهن قواه العسكرية . وكان هذا السبب ذاته من الأسباب التي شجعت ابن عمار على أن يتجه بنظره نحو مرسية دون غيرها من الأمارات . وقد تأكد ابن عمار من ضعف ابن طاهر عن المقاومة عند ما مر عام ٤٧١هـ (١٠٧٨ م) (٢) بمرسيه في طريقه الى برشلونة لمقابلة اميرها الكونت رايموند بيرانجيه الثانى، إذ انتهز فرصة وجوده فى مرسيه فاتصل بطائفة من وجهائها الذين وجد لديهم استعداداً لضرب ابن طاهر فعقد معهم الصفقات وضمن منهم المؤازرة والتأييد . وفى برشلونة بذل ابن عمار جهده لاقناع الكونت رايموند بمساعدته وصوره سهولة الفتح ويسره ووعده بمبلغ عشرة الاف مثقال من الذهب ثمناً لمؤازرته وتأييده (٣). وتم عقد اتفاق بين الأمير المسيحي والوزير الاشبيلي حول هذا الموضوع . ولكي يضمن كل منهما تنفيذ العقد ، فقد وضع ابن عمار الرشيد بن المعتمد رهينة لدى رايموند ، وقبل هذا الاخير إعطاء ابن اخيه رهينة لدى ملك إشبيلية .

ويقول دوزى ،إن المعتمد كان يجهل تفاصيل هذه الاتفاق ، وإن

---

(١) الذخيرة ق٢ ، ف ابن وهبون .

(٢) بني عباد ، ج٢ ،ص ٩٣ .

(٣) مذكرات الملك عبدالله بن زيري ، الاندلس ، ١٩٣٥ ، ص ٢٢٤ .

ابن عمار لم يشأ أن يخبره عنه ، لأنه كان واثقاً من وصول المال في الوقت المحدد له . ولكن قولاً مثل هذا يصعب الأخذ به ، إذ أن ابن أخى رايموند كان رهينة لدى المعتمد لهـــذا الغرض ذاته ، كما كان ابنه نفسه لدى الأمير المسيحى ، وليس من المعقول أن تقوم حملة مهمة مثل هذه ، عقد عليها المعتمد آمالا كبيرة ، بل وساهم فيها شخصياً لحد كبير ، دون أن يكون له علم بأهم شروطها . بل إن تسلسل الحوادث نفسها لا يدل مطلقاً على مثل هذا الجهل . الا أن من الواضح كما سنرى أن هـــذه الحملة كانت سبباً فى اساءة العلاقات وتعكير الجو بين الملك ووزيره ، ومناسبة لتبادل رسائل أدبية شعرية قيمة مما سنأتى لذكره في حينه .

وهكذا توجه الجيش الاشبيلي ، يسانده عـــدد من الجنود البرشلونيين لمحاصرة مرسية ، ولـكن المدينة لم تستسلم للغزاة بالسهولة التي كان ينتظرها ابن عمار . وما لبثت أمور الجيش الاشبيلي أن ساءت عندما استفحل الخلاف بين المسيحيين والاشبيليين لأسباب لانعرفها بدقة ، وان كانت الاشارات الواردة في كتب التأريخ تشير الى أن سببها الرئيس كان الخلاف حول المبلغ الذى تعهد به الوزير الاشبيلي للأمير المسيحي والتأخر فى اعطائه من جهة ، والخيبة التى شعر بها هذا الاخير عندما رأى صعوبة قهر المدينة بعد أن صورها له ابن عمار فريسة سهلة يسيرة المنال من جهة اخرى (١) . فكان أن ألقى الرشيد بن المعتمـــد فى السجن وقبض على الوزير الاشبيلي وشتت شمل قوته حين حاولت انقاذه ، وطالب ريموند فظلا عن ذلك بثلاثين الف

(١) مذكرات الملك عبد الله بن زيري ، الأندلس ١٩٣٥ ، ص٢٢٣ .

ديثار لقاء مجيئه واطلاق أسيريه .

وفى هذا الوقت ذاته كان المعتمد يسير على رأس جيشه متقدماً ببطء نحو مرسيه ومعه ابن أخي الكونت ريموند . ولكنه ما كاد يصل قرب جيان حتى قدمت عليه فلول جيش ابن عمار تنبئه بما حدث ، فاشتد غضبه على وزيره وأمر بالقاء ابن اخي الكونت رايموند فى السجن مكبلا بالحديد ، ثم توجه الى مدينة جيان حيث أرسل الى الامير المسيحى المبلغ الذى طلبه لكى يطلق سراح ابنه ووزيره ، وما كادت النقود تصل حتى اطلق سراحهما . ويذكر فريق من المؤرخين أن المعتمد سك نقوداً ناقصة الوزن خدع بها الكونت ولم ينتبه هذا الأخير لهذه الخدعة إلا بعد إطلاقه لسراح اسيريه (١) .

أما ابن عمار فقد خرج خائفاً يترقب . لقد عرف أن الملك لابد غاضب عليه ، ناقم لفشله . ولم يجد فى موقفه الحرج هذا من سبيل يلجأ اليه لانقاذ نفسه من محنته وتخليصها من ورطته سوى الشعر .

وهنا تبدو ظاهرة ذات معنى فى إنتاج ابن عمار الأدبى سبق أن اشرنا اليها وهى أن شاعرنا لايجيد إلا إذا تملكه الخوف وملأ نفسه القلق واستبد به الرعب ، إذ أن أبياته لا تصبح مجرد عبث لفظي وزخرفة بيانية او بديعية مصطنعة ، وانما تزخر بالشعور الصادق وتفيض بالاحساس العميق والعاطفة الجياشة . ومرد ذلك طبعاً الى الاخلاص فى التعبير ، إذ قل مانراه في الشعر

(١) الحلة السيراء ف ابن عمار

الذى تفرضه المناسبات والذى يكون القسم الأكبر من انتاج ابن عمار الأدبى . فاذا وجد هذا الاخلاص وأضيف الى تمكن الشاعر من ناصية النظم وقبضه على زمام اللغة ، جاء شعره رائعاً ينفذ الى النفس ويحرك أوتار القلب ويبعث فيها ذلك الشعور بالارتياح والمشاركة العاطفية ، ذلك الاحساس الذى تطلق عليه المتعة الادبية اوالتذوق الفني .

البائيتان

ويبدو أن الشاعر كان قلقاً حقاً ، تملأ نفسه المرارة والخيبة ، فقد فشل مشروعه بعد أن أنفق في سبيله ما أنفق من جهة ، وفقد من الجهة الاخرى ثقة ملكه ورضاه . ومن المحتمل أن لا يصل الألم والقلق بابن عمار الى هذا الحد لو لم يكن في مثل هذا الموقف الحرج يعصر قلبه الخذلان وتملأه مرارة الهزيمة . ولنترك ابيات الشاعر نفسها تصف لنا النزاع الذى كان يعانيه والصراع الذى يتجاذبه والقلق الذى كان يملك عليه نفسه ويستحوذ عليه ، إذ يقول (١) :

أأركب قصدى أم أعوج مع الركب ؟
فقد صرت من أمرى على مركب صعب

وأصبحت لا أدرى أفي البعد راحتي
فأجعله حظي أم الخير فى القرب ؟

---

(١) الحلة السيراء ، ف ابن عمار ، 1 - Mus . Esp . T . 3 , P . 109

على أنني أدرى بأنك مؤثر
على كل حال ما يزحزح من كربى

فهو رغم تردده وقلقه ، يدرك أن الملك أقرب الى العفو عنه والتجاوز عن إساءته ، بل إنه لا يتصور أن المعتمد يمكن أن يقف غير هذا الموقف أو يسلك معه غير هذا المسلك ، فهو رغم جريرته التي سببها الحظ العاثر لم يخن الملك او يقوم بعمل يقصد به النيل منه وإضعاف سلطانه ، كما لم يكن ضعف الرأى او العجب والكبرياء سبب نكبته وإنما هي ظروف أقوى منه واشد بأساً من من رأيه وتدبيره :

أيظلم فى عينى كذا قمر الدجى!
وتنبو بكفي شفرة الصارم العضب!

حنانيك فيمن انت شاهد جده
وليس له حاشا انتصاحك من حسب

وما جئت شيئاً فيه بغي لطالب
يضاف به رأى الى الضعف والعجب

سوى أنني أسلمتني لمعة
فللت بها حدى وكسرت من غربى

أما أنه لولا عوارفك التي
جرت في جرى الماء في الغصن الرطب

لما سمت نفسي ما أسوم من الأذى
ولا قلت إن الذنب فيما جرى ذنبي

ســـاستمنح الرحمى لديك ضراعة
واسأل سقياً من تجاورك العـــذب

وإن نفحتني من سمائك حرجف
سـأهتف يابرد النســـيم على قلبي

ففضلا عن قيمة هـــذه الابيات التأريخية ، لأنها تعكس لنا مرحلة من مراحل العلاقة بين المعتمد ووزيره ، فان قيمتها الأدبية لايتطرق اليها الشك . ولعل مصدر هذه القيمة الاخيرة ، هي في أن الشاعر لم يتقصد اللعب بالألفاظ وإظهار براعته فى رصف الكلمات وزخرفة العبارات واستعمال المحسنات البديعية ، بل اراد التعبير فعلا عن شعور عميق كانت تضج به نفسه ويفيض به قلبه ، كان يريد ان تنعكس في كلماته مشاعر الألم والخوف والخيبة والحذر والرغبة فى استرضاء الملك وكسب وده ، كان يريد أن يهز مشاعر المعتمد ويجلب إعجابه ويستدر عطفه ، ولذلك استكملت القطعة الأدبية عناصـرها الاصيلة وهى مضمون قيم ناضج في شكل رائع منسجم .

وقد كان لهذه القطعة أثرها في نفس المعتمد فاجابه قائلا (١) .

لدى لك العتبى تزاح عن العتب
وسعيك عنـدى لايضاف الى ذنب

---

(١) الديوان ، ص ٥٥ .

وأعزز علينا أن تصيبك وحشة
وأنسك ماتـــدريه فيك من الحب

فدع عنك سوء الظن بى وتعده
الى غيره فهو الممكن في القلب

قريضك قـــد ابدى توحش جانب
فجاوبت تأنيســـاً وعلمك بى حسبي

تكلفته أبغي بـــه لك ســـلوة
وكيف يعانى الشعر مشترك اللب

ومما يتصل بهذه الابيات والتي سبقتها أبيات اخرى تشابهها في الوزن والروى ، بل إن مؤرخى الأدب كثيراً ما خلطوها بعضها بالبعض الآخر وأوردوها في المناسبة نفسها ، ولا نجد غير ابن الابار وحده يميزها من الابيات المارة الذكر ، ويذكر نقلا عن أحد جامعى ديوان ابن عمار ، ابى الطاهر التميمى أنها قيلت فى حال أوجبت إيحاشاً بين المعتمد ووزيره(١) ، وهى لا تقل عن الأبيات السابقة من حيث قيمتها الأدبية ، وتكاد تعكس نفساً تشبه تلك النفس التى جادت بالاولى ، كتب ابن عمار :

أصـــدق ظنى أم اصيخ الى صحبى
واقضى عزيمى أم أعوج مع الركب

إذا انقدت مع رأيى مشيت مع الهوى
وإن أتعقبه نكصت على عقبي

(١) الحلة السيراء ، ف ابن عمار ، رواية ابي الطاهر التميمي . الذخيرة ق ٢ ، ف ابن عمار .

وإنى لتثنيني إليك مودة
يغيرها ما قد تعرض من ذنبي

فما أغرب الايام فيما قضت به
ترينى بعدى عنك آنس من قربى

أخافك للحق الذى لك في دمي
وأرجوك للحب الذى لك فى قلبي

وكم قد فرت يمناك بى من ضريبة
ولا بد يوما ان يفلل من غربي

وأعلم أن العفو منك سجية
فلم يبق إلا أن تخف من عتبي

ولي حسنات لو أمت ببعضها
الى الدهر لم يرتع بنائبه سربى

ولا بد مابيني وبينك من ....
يطبقها مابين شرق الى غرب

ويبدو ابن عمار ، فى هذه الابيات ، التي ربما تكون قد قيلت بهذه المناسبة أو في أخرى مثلها ، رغم قلقه وتردده ، أربط جأشاً وأشد ثقة بنفسه ، بل إنه يمتن على الملك بمآثره واعماله ويذكره بخدماته وحسناته التي يذكرها له الدهر .

وعلى هذه الابيات أجابه المعتمد بقوله (١) :

تقدم الى ما اعتدت عندى من الرحب
ورد تلقك العتبى حجاباً عن العتب

متى تلقنى تلق الذى قد بلوته
صفوحاً عن الجانى رؤوفا على الصحب

سأوليك منى ماعهدت من الرضى
وأصفح عما كان إن كان من ذنب

فما أشعر الرحمن قلبي قسوة
ولا صار نسيان الأذمة من شعبي

وهذه الأبيات كما ذكرت كثيراً ما تختلط لدى المؤرخين مع الابيات السابقة وتمتزج بها بحيث يصعب إثبات ما قيل منها فى هذه المناسبة او مالم يقل. ولكن ما نستطيع تأكيده هو أن روحاً واحداً تقريباً يتخللها ويكسبها قيمة ادبية متقاربة ، مصدرها شعور الشاعر المتدفق واخلاصه فى التعبير ومقدرته عليه .

وكان في جواب المعتمد لابن عمار مايطمئنه ويبعث في نفسه الثقة برضاه وعفوه ، فيقدم اليه وينال الصفح منه . وقد حاول المعتمد حل المشكلة التي اوقعه ابن عمار فيها باتفاقه مع حاكم برشلونة المسيحى ، مرسلا اليه عشرة آلاف قطعة من الذهب التي اتفقا عليها ، ولكن الامير المسيحي لم يعد

(١) الحلة السيراء ، ف ابن عمار . الذخيرة ، ق ٢ ، ف ابن عمار .

يقبل بغير ثلاثين الفاً ، فلم يكن من المعتمد ، كما يقال : الا أن ارسل اليه الثلاثين الفاً التي طلبها ولكن بوزن أقل من الوزن المقرر ، فتسلمها رايموند ولم ينتبه اليها الا بعد اطلاقه سراح الرشيد ، ولات حين غضب (١) ، كما سبق أن اشرنا الى ذلك من قبل .

ولدينا حول هذا الموضوع وثيقة تأريخية لا بد من الاشارة اليها وهي رسالة كتبها ابو بكر بن القصيرة على لسان المعتمد الى صديق له نجدها في مخطوط الذخيرة لابن بسام، القسم الثاني ، يقول فيها : ـ « لم يغب عنك من مجلى الحال بمرسيه وجه أجلوه ، ولا انطوى من فحواه امر أنشره وأبديه ، وها أنا أعرض عليك من باطنها ، ماربما خفى ، وأنهى اليك من بخواه ما لعله لم ينم وجهه ولا انهى ، وذلك أن الافرنج ايام تلومهم على صاحبها وإحداقهم بجانبها أرسلو الى من اعيانهم من قرب على وجه مراماها . فاستجبت لندائهم ، ولم يكد يخلج ببالي شك في صدق أنبائهم ، واذا الامر بخلاف ما ذكروه وعلى غير ماسهلوه . ووقع من المطاولة ما وقع ، وآلت الحال معهم الى ما قد فشى وسمع ، فأعدت لها الخيل مع فلان ، لاطاله حصرها والاباحة بعقرها ، وصاحبها مع ذلك أعمى عن رشده ، يقدم رجلا ويؤخر أخرى في إعطاء صفقه يده ليقضي الله تعالى قدره ويبلغ امره (٢) .

فهو يبرر في هذه السطور القصيرة فشله في حملته الاولى على مرسيه ويعرب عن تصميمه على حصارها وقهرها وقراره بايداع هـذه المهمة الى ابن عمار نفسه .

---

(١) الحلة السيراء ، ف ابن عمار ، بنو عباد ، ج ٢ ، ص ٥٠٨ .
(٢) الذخيرة ، ق ٢ ، ف ابو بكر بن القصيرة .

الحملة الثانية على مرسية

ان مانعرفه مما نقله لنا المؤرخون العرب (١) ، هو أن ابن عمار كان المحرض الأكبر على القيام بهذه الحملة والمصمم عليها ، فقد ادعى أنه تسلم كثيراً من رسائل التأييد والتشجيع من أشراف مرسية ونبلائها واستعدادهم لمد يد المعونة والمساعدة له اذا ما غزا مدينتهم . فما كان من المعتمد الا أن استجاب لهذا الاغراء ووافق على مشروع ابن عمار وعهد اليه بتنفيذه. ويذكر ابن قاسم الشلبي عند تحدثه عن هذا الموضوع ان ابن عمار ذكر للمعتمد أو زور أن اهل مرسية قد داخلوه وخاطبوه وأظهر له كتباً ذكر أنهم كتبوها اليه .

وسار بعد استعداداته الخطيرة هذه الى قرطبة حيث ألحق بجيشه جزءاً مهما من حاميتها وقضى ليلة بصحبة أميرها الفتح بن المعتمد حاكم المدينة ، حتى اذا ما بدت خطوط الفجر قدم اليه أحد اتباعه ينبهه الى ان وقت السفر قد حان فيجيبه ابن عمار :

اليك عني فليلي كله صبح
وكيف لا وسميرى الحاجب الفتح

ويترك الجيش الاشبيلي قرطبة متوجهاً الى مرسية ، وفي طريقه اليها يمر بحصن بلج . وبلج قائد عربى من شقير قدم على رأس حملة تأديبية عندما

(١) الذخيرة ، ق. ، ف ابن عمار

ثار البربر فى القرن الثانى الهجرى (الثامن الميلادى) مرسلا من قبل الخليفة فى دمشق وقد قام بدور مهم في حياة الاندلس قبل الامارة الاموية لامجال للتحدث عنه الان . وكان يحكم حصن بلج هذا حاكم من سلالته عرف بابن رشيق . فما كاد ابن عمار يصل الحصن حتى استقبله ابن رشيق بحفاوة وترحاب وقدم له من ضروب المساعدة والتأييد ما اقنع ابن عمار باخلاصه له وتآزره معه ، فالحقه بركابه وتعاون واياه على تنفيذ غرضه .

وسار ابن عمار بجيشه يعاونه ابن رشيق وضرب حصاراً محكماً حول مرسيه ، ولا سيما بعد استيلائه على حصن موله الذى كان يحمى الطريق الرئيس الذى يمون المدينة بالزاد والطعام (١) . وكان لاحتلال حصن موله اثر كبير في اهل المدينة ، فشعروا بالضيق والحرج ولاشك ان تأثر العامة بمثل هذه الازمات يأخذ شكلاً مؤلماً في غالب الاحيان . بل ان نصيبهم هو الاوفر عادة من النتائج السيئة التى تترتب على هذه المشكلات . فاذا اضفنا الى ذلك ما بذله ابن عمار من المال والوعود لوجهاء المدينة ونبلائها أدركنا أن المدينة لم تكن لتستطيع الصمود طويلا امام جيش اقوى منها عدة واكثر عدداً ، اذا لم يتيسر لها من يساعدها ويشد أزرها ممن يجاورها من الأمراء الاقوياء . ولكن لم يكن من سبيل للحصول على هذه المساعدة والمؤازرة ، فابن عمار قد ضمن صداقة الفونس السادس وحياده . ولم يكن لابن عبد العزيز ابن ابى عامر أمير بلنسية قدرة على حشر نفسه فى

(١) الحلة السيراء ، ف ابن عمار .

مأزق مثل هذا رغم صداقته لابن طاهر أمير مرسيه ورغبته القويه في مساعدته ورغم مقته لابن عمار ونفوره منه ، فقد كانت المشكلات الداخلية والخارجية تهدده بالويل والثبور وقل مثل ذلك عن عبد الله بن زيرى امير غرناطة الذى لم يكد يصدق أنه تخلص من مؤامرة ابن عمار ومن مكائده ، فلم تكن له رغبة إذن في الدخول معه في صراع جديد ، رغم أنه كان ينظر الى حركة الاشبيليين هذه بغيظ وحسد (١) .

بعد أن أحكم ابن عمار حصاره لمرسيه وتأكد من عدم قدرتها على الصمود وأدرك ان سقوطها اصبح مسألة زمن ليس غير ، عاد لاشبيلية تاركاً لابن رشيق أمر قيادة جيشه وتنفيذ خطته وبقي هناك ينتظر ورود الانباء .

روى ابن القاسم الشلبي ، قال (٢) « وما زال ابن رشيق يغاديها ويراوحها بالغارات ويداخل اهلها فى القيام على ابن طاهر ويمنيهم الحظوة ، حتى لان قيادهم وصرحوا له بالانحياز ووصلت كتبهم على يديه الى ابن عمار وهو باشبيلية . قال ابن قاسم، ولقد شهدت ابن عمار فى القصر باشبيلية يقرأ هذه الكتب وكانت أزيد من عشرين ، فلما استوفاها قال لنا كانكم بفتح مرسيه من غد الى بعد غد ، فكان كذلك » وقد حدث ذلك فعلا ، فلم تكد تمضى ايام حتى استسلمت مرسيه نتيجة تمرد في داخل المدينة أسنده وأيده المحاصرون ، فأسقط فى يدى ابن طاهر ولم يستطع حتى الفرار فوقع اسيراً فى أيدى أعدائه .

---

(١) مذكرات الملك عبد الله بن زيري ، الاندلس ١٩٣٥ ، ص ٢٢٤ .

(٢) بنو عباد ، ج ٣ ، ص ٨٥ .

وما كادت الأنباء تصل الى ابن عمار فى اشبيليه حتى استأذن المعتمد بالرحيل وترك اشبيلية فى موكب حافل تخفق فوقه الرايات وتضرب حوله الطبول . تتبعه مئات المطايا والبغال المحملة بنفائس الهدايا وفاخر الثياب .

ويجتاز هذا الموكب الرائع قرطبة فى احتفال كبير يحف به الناس تملأه نشوة النصر ويشيع فى نفسه الزهو والخيلاء . ومنها يمضي الى غيرها من المدن التي تقع فى طريقه حتى يصل مرسيه . إن من الطريف أن يبقى هذا المشهد ماثلا في ذاكرتنا بضع سنوات بعد ذلك عند عودة ابن عمار الى قرطبة حاسر الرأس بين عدلي تبن علي حمار هزيل والناس تلقي فى وجهه الشتائم وترميه بالحجارة .

وصل ابن عمار مرسيه فدخلها بموكبه المهيب ناثراً العطايا والهبات ، سالكاً مسلك الملوك فى توقيعاته (١) حتى اذا كان اليوم الثانى جلس فى قصر الامارة يستقبل المهنئين ويوزع الجوائز ، وقد ارتدى فلنسوة طويلة اعتاد المعتمد أن يختص بلبسها وكان يكتفى بان يكتب في ذيل ما يقدم اليه ... « ينفذ هذا إن شاء الله » ، دون ان يذكر المعتمد سيده او يشير اليه كما تقتضي الاصول الادارية المتبعة آنذاك وكانت هذه بادرة خطرة لسلسلة من اعمال العصيان والتمرد قام بها ابن عمار وكان لها اكبر لاثر فى مستقبله السياسي .

---

١ . الحلة السيراء ، ف ابن عمار

تمرد ابن عمار في مرسية

لاشك أن بذور التمرد كانت متمكنة في نفس ابن عمار منذ زمن ليس بالقليل قبل دخوله لمرسية . وكانت تغذى هذه البذور وتدفعها الى الانبات عوامل عديدة أهمها :

أولاً :- الفترة المضطربة التى كانت تعيش فيها بلاد الأندلس آنذاك ، فلم تكن ثمة حكومات قوية تستطيع فرض سيادتها وسلطانها على جميع البلاد ، بل كانت الخلافات والنزاعات الداخلية تفعل فعلها في إضعاف شوكة ملوك الطوائف وفل عزمهم والفت في عضدهم ، وكان ابن عمار يعرف ذلك حق المعرفة ويدرك أن اشبيلية نفسها ليست في وضع يساعدها على أن تدخل منفردة في نزاع حاد وصراع عنيف .

ثانياً : - اعتداد ابن عمار بنفسه وإيمانه بحنكته السياسية ودهائه في إدارة دفة الحكم - بل لانبالغ اذا قلنا إنه كان يعتقد أن إدارة دولة بنى عباد وتوسيع نفوذها يرجع الفضل فيها اليه ، لذا فلا يرى أنه مدين لسيده بشيء وقد رأينا أنه كتب للمعتمد يوماً من قطعة :

ولي حسنات لو أمت ببعضها
الى الدهر لم يرتع بنائبه سربي

وسنراه وهو فى أحرج حالاته يطلب من المعتمد العفو والمغفرة مذكره بخدماته السابقة حين يقول في قصيدة :

وإن رجائى أن عنـــدك غيرما
يخوض عدوى اليوم فيه ويمرح

ولم لا وقد أسلفت وداً وخدمة
يكران فى ليل الخطايا فيصبح

ويتحدث عن غروره هـــذا عبد الله بن زيرى ملك غرناطة فيقول ، عدا ماذكرنا سابقاً من رأيه حول نجاحه في رد المسيحيين عن إشبيلية وإرجاع ابن عمار كل الفضل الى نفسه ، « إنه (اى ابن عمار) بفسوقه كان يتكبر على اولاده (اى اولاد المعتمد) ويضيق عليهم ويسيء الصنيعة مع من يجب عليه إكرامه من قرابة سلطانه، والمعتمدفي هذا كله يصبر »(١) .

ثالثاً : ـ صـــداقة ابن عمار لألفونس السادس ملك قشتالة وثقته بتأييده وإسناده . وكان الوزير الاشبيلي كما ذكرنا يدرك أهمية الفونس في الأندلس وتأثيره الكبير على توازن القوى . فضمانه لصداقته وتأييده ، كسب ذو قيمة خطيرة وتشجيع كبير له على الاستغناء عن سيده السابق . ولدينا فى هذا الموضوع قصة طريفة يرويها لنا ابن الأبار فيقول ، إن ابن عمار كان يتختم بخاتمين . وإنه حكي أن ابن طاهر غمز على رسول ابن عمار المعـــلم بخاتميه وأنه نسب أحدهما للمؤتمن بن هود والثانى لألذفونش بن فردلند ! ! وقال أبو الطاهر التميمى إن الوزير أبا بكر بن عبد العزيز قد

(١) مذكرات الملك عبد الله بن زيري ، الاندلس ، ١٩٣٥ ، ص ٣٢٥ .

« ندر فيه حين بلغه أن أذفونش ملك الروم أعطاه خاتماً عند اجتماعه به ولياذه فراراً من الوحشة الواقعة بينه وبين ابن عباد وتخوفاً منه ، فقال « أخاتم التأمير ام خاتم التأمين » (١) فقال ابن عمار عندما بلغه ذلك قصيدته التي مطلعها « قل للوزير وليس رأى وزير » والتي سنعرض لها فيما بعد .

رابعاً : ـ غنى مرسية وثروة ابن طاهر كما ذكرنا ، فقد كان واسع الثراء وتقدر املاكه بنصف كورة مرسية .

خامساً : ـ عدم وجود أساس شرعى للسلطة غير المال والقوة في الأندلس آنذاك . فمن امتلك المال استطاع تجنيد المرتزقة وجمع الاتباع وضم الاعوان ، ونظرة بسيطة على الاصول التي انحدر منها ملوك الطوائف تثبت لنا هذه الحقيقة . فلم يكن ابن عمار إذن يتحرج عن طلب الملك والسلطان مادام المال متوفراً لديه وما دامت ظروف البلاد تشجعه على ذلك كل التشجيع .

كل هذه العوامل وأخرى غيرها دفعت ابن عمار الى التفكير في التمرد في مرسية وقطع كل علاقة تربطه بالمعتمد بن عباد . وقد بدت مظاهر هذه الرغبة كما رأينا منذ بدء قدومه الى مرسيه ، بل إن اشارات كثيرة سبقت هذا القدوم كانت تعرب عن نيات الوزير المبيتة ، وتدل على أن المعتمد نفسه ، لم يكن غافلا عن هذه النيات ، حتى ان ابن الابار يروى لنا رواية تبعث على الدهشة والاستغراب فهو يقول نقلا عن أبي بكر محمد بن

(١) ابن الأبار الحلة السيراء ، ف ابن عمار .

القاسم الشلبي ما تلخيصه « إن ابن رشيق لما قرىء كتابه المضمن دخول مرسية ، باشبيلية ، ارتاح ابن عمار واعمل نظره في اللحاق بها واشار على المعتمد بذلك ، فما خالفه فواقاً ، فلم يترك ابن عمار باشبيلية فى ملك سلطانه ولاملك أحد من معارفه فرساً عتيقاً ولا مطية ولا زاملة إلا استخرج ذلك من أيديهم رغبة ورهبة وأحضر له التجار ما بأيديهم على اختلاف بضائعهم من الديباج والخز الى ما دون ذلك من نفيس الكساء ليعم بذلك أهل مرسية على قدر منازلهم عنده ، ولم يخف عن ابن عباد وجه مراده ، فلما سلم عليه مودعاً ، قال له : سر الى خيرة الله ولا تظن أني مخدوع ، فقال (ابن عمار) : لست بمخدوع ولكنك مضطر ، فخلم عنه وخرج من إشبيلية ، وأقام بظاهرها أربعة ايام يستوفي أغراضه ثم رفع ألويته وقرع طبوله ، وسار لايمر ببلد من اعمال ابن عباد الا استخرج منه كل ذخيرة حتى وصل الى مرسية .. » (١)

ويذكر ابن زيرى ملك غرناطة فى حديثه عن محاولة ابن عمار فتح هذه المدينة أنه « كان الناس يتوقعون عليه الفساد عند محاولة أمرها (اى مرسية) (٢) .

ابتدأت شقة الخلاف تتسع بين المعتمد وابن عمار وازداد الخلف بينهما شدة وقوة ، لابسبب الأعداء ، كما يدعي ابن عمار في أبيات بعث بها الى المعتمد

---

(١) الحلة السيراء ، ف ابن عمار . دوزى ، بنو عباد ، ج٢ ، ص ٩٧ .

(٢) مذكرات الملك عبد الله بن زيري ، الاندلس ، ١٩٣٥ ، ص ٢٢٤ .

حيث يقول (١) :

أظن الذي بيني وبينك أذهبت
حلاوته عني الرجال الخبائث

تذكرت لا أني لفضلك ناكر
لدى ولا أني لعهدك ناكث

ويؤيده فى هذا الادعاء دوزى (٢) . وإنما بسبب ما اوضحناه من مطامح ابن عمار ومطامعه واعتداده بنفسه ورغبته القوية فى أن يشيد لنفسه سلطاناً مستقلا يناسب ما يعتقد أنه يمتلك من عزم وحزم ودهاء . لقد كان واثقاً كما قلنا ، من استطاعته الصمود فى معقله الجديد لاسيما وأن الفونس يقف الى جانبه . وسنرى أن شعره في هذه الفترة يعكس نفسيته واعتداده الشديد بنفسه وغروره الذى قد يبعث على الاستغراب من رجل فى مثل مركزه قد خبر الحياة وعرف حلوها ومرها . ولكن العوامل التى كانت تحيط به والتى سبق أن أشرنا اليها تخفف لحد كبير من هذا الاستغراب .

لقد كان ابن عمار يعتقد بأنه قادر بما يملك من قوة ومن تأييد على أن يقف فى وجه جميع ملوك الطوائف في الأندلس . ولم تكن علاقاته سيئة مع المعتمد بن عباد ملك إشبيلية وسيده القديم فحسب ، وإنما كانت كذلك مع ملوك الطوائف الآخرين . فابن عبدالعزيز ابن أبى عامر أمير بلنسية يبطن له الحقد

---

(١) ديوان ص ٥٦ .

(٢) 2 - Mus . Esp , T . 3 , P ; 109

والضغينة (١) . والمعتصم بن صمادح أمير المرية وحليف المعتمد كان ينظر اليه بريبة وحقد وقلق (٢) وقل مثل ذلك عن علاقاته بابن زيرى أمير غرناطة (٣) . ومع ذلك فلم يكن يعتقد أنهم سيكونون مصدر خطر عليه وسبباً فى آذاه ، فكان يسلقهم بلسانه ، ويكيل لهم الشتم والسباب ويهددهم بالويل والثبور .

وعلى ذلك فقد سلك ابن عمار في مرسيه بعد أن نما شعوره بقوته واعتداده بنفسه ، مسلك الأمراء المستقلين متمرداً على المعتمد وناكثاً عهده معه . وعندما عاتبه هذا الاخير متمثلا بالبيتين التاليين :

تغير لي فيمن تغير حارث
وكل خليل غيرته الحوادث

أحارث إن شوركت فيك فطالما
نعمنا وما بيني وبينك ثالث

أجابه ابن عمار بقصيدة من خيرة قصائده يتنصل فيها من مسؤولية التمرد ويلقي بتبعتها على النمامين والخبثاء ، ويحاول أن يستعيد ثقة المعتمد به ، مظهراً فى الوقت نفسه خدماته الجليلة للملك وتضحياته السابقة فى سبيله . وليس في هذه القصيدة اعتذار وأسف وانما فيها عتاب ومنه ، فلنستمع اليه يجيبه على بيتيه السالفين (٤) :

---

(١) ديوان قص ٥١ .
(٢) « « ٥٦ .
(٣) مذكرات الملك عبد الله . الاندلس ، ج ٣ ، ص ٣٢٥ .
(٤) ديوان ، قص ٥٦ .

لك المثل الأعلى وما أناحارث
ولا أنا ممن غيرته الحوادث

ولا شاركتك الشمس فى وإنه
لينأى بحظى منك ثان وثالث

فديتك ما للبشر لم يسر برقه
ولا نهضت تلك السجايا الدمائث

ثم يشير كما ذكرنا سابقاً الى أن الوشايات والنمائم هى التي سببت هذه القطيعة وأوجدت سوء الظن . ويعود بعد ذلك ليذكر ملك إشبيلية بخدماته السابقة وتضحياته الكثيرة في سبيل تقويم دعائم مملكته وتوسيع رقعتها معاتبه على عدم تقديره لخدماته ومكافأته على تضحياته :

أبعد مضت خمس وعشرون حجة
تجافت بنا تلك الخطوب الكوارث

مضت لم ترب مني أمور شوائب
ولا تليت عنى مساع خبائث

حللت يداً بى هكذا وتركتنى
نهاباً وللأيام أيد عوابث

وهل أنا الا عبد طاعتك التي
إذا مت عنها قام بعدى وارث !

ويحذره ، لا بلهجة التابع لسيده ، وانما بلهجة الندلند ، تحذيرا فيه شدة وأمتنان ، يدل على أن الوزير لم يعد يحمل لمليكه ما كان يحمله له من ارتباط وثيق وطاعة تامة واخلاص لا تشوبه الشوائب .

أعد نظراً لا تومن الرأى إنه
قديماً كباهاف وأدرك رائث

ستذكرني إن بان حبلي وأصبحت
تئن بكفيك الحبال الرثائث

وتظلمني إن غاب للرأى حاضر
وقد غاب مني للخواطر باعث

أعوذ بعهد نطته بك أن ترى
تحل عراه العاقدات الوافث

وقصيدة ابن عمار هذه من أدب الرسائل الشعرية التي كانت سائدة آنذاك . ولا شك أنها نموذج جيد من نماذج هذا الادب ، إذ أنها تعكس لنا بالاضافة الى أفكار الشاعر ، عواطفه وأحاسيسه ، بل إننا يمكن أن نتلمس خلالها حالة الشاعر النفسية وموقعه الحقيقي من الملك . كل ذلك بأسلوب متماسك ينسجم مع غايات الشاعر ومقاصده من نظم الأبيات .

إذن فقد سادت العلاقات بين المعتمد وابن عمار وبدأ هذا الاخير يسلك سلوك الأمير المستقل ويظهر بوادر تمرد ، دفعت الاول الى أن

يظهر امتعاضه واستياءه في مناسبات مختلفة ، ومن الطبعي أن تتسع شقة الخلاف يوماً بعد يوم وأن ينتهي كل ذلك بعداء مستحكم وحقد عنيف كما سنرى .

قلنا إن ابن عمار بعد دخوله لمرسيه اعتقل أميرها السابق ابن طاهر . ويذكر أنه بعد أن سلبه ملكه وأملاكه حاول مجاملته فبعث اليه وهو في الأسر بكسوة حسنة ، ولكن ابن طاهر رفضها وقال للرسول (١) إنه لا يريد سوى سروال قصير وكساء رث وكان ابن عمار أيام عسره وفقره في مطلع حياته الادبية قد قدم على ابن طاهر يستدر عطفه ويستجدي كرمه بشعره وهو مرتد ملابس رثة تتألف من سروال مهلهل ورداء قصير ، فقصد ابن طاهر تذكيره بماضيه والتهكم من منزلته ، فامتعض ابن عمار وذكر لجلاسه غرض ابن طاهر من تعريضه هذا .

ثم أمر باعتقال ابن طاهر في قلعة مونتيكادو . وكان ابو بكر (٢) بن عبد العزيز بن ابي عامر أمير بلنسيه صديقاً حميماً لابن طاهر ، فشفع له لدى المعتمد . وبعد مفاوضات حول هذا الموضوع تم الاتفاق على إطلاق سراح ابن طاهر بشرط أن ينزل عن إحدى القلاع التي كان يحكمها أحد اقرباء هذا الاخير ، وهو ابو بكر بن موسى ، لابن عمار . وما كاد ابن طاهر يتملص من القيود ويقصد بلنسية حتى نكث باتفاقه ورفض تسليم القلعة ، يحرضه

---

(١) الحلة السيراء ، ف ابن طاهر ،

(٢) الحلة السيراء ، ف ابن عمار . 2 - Mus . EsP . T.3, p.111 ,

على ذلك ابن عبد العزيز أمير بلنسية وعدو ابن عمار اللدود (١) . وأخذ الغضب من ابن عمار كل مأخذ فنظم في ذلك قصيدة (٢) ،ضمنها كل حقده على ابن طاهر وابن عبد العزيز منددا بهما ومتهما إياهما بشتى التهم ، ولا سيما بنقض العهود والوعود ، ولم يكتف بذلك ، بل هدد بلنسية بالويل والثبور . يقول فيها :

خبر بلنسية وكانت جنة
أن قد تدلت في سواء النار

غدرت وفيا بالعهود وقلما
عثر الوفي سعى الى الغدار

ويدعو أهل المدينة الى الثورة والتمرد ضد حكامها :

يا أهلها من غائب أو حاضر
وقطينها من حاضر او سار

جازوا بني عبد العزيز فانهم
جروا اليكم اسوأ الاقدار

ثوروا بهم متأولين وقلدوا
ملكاً يقوم على العدو بثار

ثم ينتقل للتحدث عن ابن طاهر ذاكراً مخالفته للعهد :

---

(١) الحلة السيراء ،ف ابن عمار
(٢) ديوان ، ص ٥٨ .

جاء الوزير بها يكشف ذيلها
عن سوأة سوأى وعار عار

نكث اليمين وحاد عن سنن التقى
وقضى على الاقبال بالادبار

الى أن يقول :

ما كنتم كأمية صـــالح
فرماكم من طاهر بقدار

هذا وخصمكم باشأم طائر
ورمى دياركم بأســوأ جار

لا بد من مسح الجبين فانما
لطمته غدراً غير ذات سوار

وينتقل بعد ذلك للفخر بنفسه ، ولعل هذه الابيات أحسن ماتحتويه القصيدة . إذ تلوح خلالها بوضوح غطرسة ابن عمار وكبرياؤه واعتداده بنفسه والصورة التي لديه عنها . وسنجد أننا نستطيع أن نرى خلال هذه الاوصاف مميزات شخصية ابن عمار كما حاولنا رسمها في السطور السابقة والتالية ، وسنرى أنها كانت سبباً في إثارة المعتمد نفسه ودفعه الى التهكم بوزيرة القديم :

كيف التفلت بالخديعة من يدى
رجل الحقيقة من بني عمار

رجل تطعمه الزمان فجاءه
طرفين فى الاحلاء والامرار

سلس القياد الى الجميل فان يهج
فدع العنان لهبة التيار

طبن بأغراض الامور مجرب
فطن لأسرار المكائد دار

ماض اذا برزت اليه مصمم
هون اذا التفت عليه مدار

كشاف مظالمة وسائس أمة
نفاع أهل زمانه الضرار

عجباً لأشمط راضع ثدى الوغى
منه وطوراً في القنا الخطار

شراب أكواس المدام وتارة
شراب أكواس الدم الموار

وأظن أن ابن عمار نجح كل النجاح في رسم صورة رائعة قوية للسياسي البارع فى ذلك العصر ، وذكر لنا بوضوح الصفات التي يجب ان

تتمثل فيه ، يدل ذلك على أنه كان مدركاً كل الادراك لما يجب ان يكون عليه رجل السياسة وأنه بذل جهده في أن يكون كذلك . ومما يلفت النظر في هذا الموضوع البيت الاخير ، والواقع أن هذه الصفة كانت مصدر فخر واعتزاز في الأرستقراطية الأندلسية ، بل إنها صفة من صفات الرجل المثالي لهذه الطبقة وهو المسرف في اللهو في ساعات الأنس والمسرف في الشجاعة عندما يتطلب الأمر ذلك .

وفي آخر هذه القصيدة يهدد ابن عمار بلذعة بالويل والثبور ويتوعدها بالشر المستطير :

جرار أذيال القنا ظنوا به
قد جاءكم في الجحفل الجرار

وكأنكم بنجومه ورجومه
تهوى اليكم من سماء غبار

الى آخر القصيدة .

وكان لهذه القصيدة نتائج خطيرة جداً ، إذ ما كادت تصل الى المعتمد وكان الموقف بينهما آنذاك قد بلغ حداً كبيراً من التوتر حتى خطرت له خاطرة سرعان ما نفذها ، فقد رأى في اعتداد ابن عمار بنفسه وافتخاره بها ، وهو الذي انتشله آل عباد من وهدة الفقر والتشرد ، رأى في ذلك سخرية ما بعدها سخرية ، فاذا به يكمل بيت الوزير المدعي :

كيف التفلت بالخديعة من يدى
رجل الحقيقة من بنى عباد

بأبيات بالروى نفسه والقافية عينها ، يقولها على لسان الشاعر معتداً بنسبه الكريم وماضيه اللامع وامجاد اسرته العتيدة ، بل إنه ليذهب الى أبعد من ذلك فيذكر شمس أم ابن عمار وقصرها المنيف وحياتها الباذخة ، كل ذلك بتهكم لاذع وسخرية مرة ، فما كان لابن عمار كما رأينا مجد يعتد به او اسرة يذكرها ، وانما قضى حياته الاولى فريسة للفقر وضحية للحرمان ، وعانى من قسوة العيش وفضاضة الزمن ماجعله مغرب المثل فى الرحل المغمور يرقى سلم المجد والشاعر الشريد يصل مصاف العظماء والوزراء والحكام لذا فقد مست فيه ابيات المعتمد جرحاً كاد الزمان يأسى عليه ، فاذا به كما يذكر مؤرخو الاندلس يثور ويسخط ويأخذ منه الحنق والغضب كل مأخذ فينظم أبياناً لاذعة كلها شتم وسباب للمعتمد وذويه مطلعها :

ألاحي بالغرب حياً حلالا
أناخوا جمالاً وحازوا جمالا

ثم أجداد المعتمد الذين يعتد بهم غير رعاة للابل فى بطون الصحراء أنهكهم الجدب وأضناهم العدم :

وعج بيومين (١) أم القرى
ونم فعسى أن تراها خيالا

(١) يومين ، هي القرية التي نشأ فيها بنو عباد .

لتسأل عن ساكنيها الرما
د ولم تر للنار فيها اشتعالا

ويذهب الى أبعد من ذلك فيتناول اعتماد الرميكية زوج المعتمد ويصمها وأولادها باقبح الصفات :

أيا فارس الخيل يازيدها
حميت الحمى وأبحت العيالا

أراك تورى بحب الفسا (م)
ء وقد ما عهدتك تهوى الرجالا

تخيرتها من بنات الهجا (م)
ن رميكية ما تساوى عقالا

فجاءت بكل قصير العذا (م)
ر لئيم النجارين عماً وخالا

بصفر الوجوه كأن استها
رماهم فجاءوا حيارى كسالا

قصار الغدود ولكنهم
أقاموا عليها قروناً طوالا

ويتلو ذلك بهجاء مقذع ، شديد الاقذاع المعتمد نفسه فيصفه بأقبح الصفات وينعته بأبشع النعوت . (١)

(١) الحلة السيراء ، ف . ابن عمار .

ويذكر مؤرخو الأدب الاندلسي أن ابن عمار حرص على أن لا تتجاوز هذه الأبيات خاصته المقربين اليه ، فقد كان على اعتداده بنفسه يخشى غضب المعتمد ، إلا أن القصيدة مع ذلك تسربت لابن عبد العزيز أمير بلنسيه فأرسلها هذا بدوره مسرعاً الى المعتمد ، فما من فرصة أحسن من هذه لاثارة حقد ابن عباد على عدوه اللدود . ويقولون إن ابن عبد العزيز حصل على قصيدة ابن عمار هذه بفضل تاجر يهودى من أهل المشرق عهدت اليه هذه المهمة لقاء جائزة مغرية ، فتسرب الى حاشية ابن عمار وحصل على ثقته وانخرط في سلك خواصه ، فسمع فيمن سمع هذه القصيدة ، بل ويقولون إنه نجح في الحصول على نسخة منها بخط ابن عمار نفسه (١) .

ومهما كان شأن هذه الرواية التي قد تكون ضرباً من الحكايات النادرة والنكت المختلقة ، فان قصيدة ابن عمار هذه وصلت الى يدى المعتمد فأثارت حفيظته وألهبت غضبه وأضرمت حقده وقضت على آخر ما تبقى من ذكريات صداقته لوزيره القديم . وكان شأن اعتماد ، التي خصها ابن عمار في قصيدته بنصيب وافر من سبابه وشتمه ، شأن زوجها ، بل وربما كان حقدها أعمق اثراً وأقوى جذوراً ، فقد سبق أن ذكرنا علاقاتها السيئة بوزير زوجها المقرب اليه ، ويؤكد سوء هذه العلاقة ، تخصيص ابن عمار هذا الجهد في ابياته للنيل منها والغض من قدرها ومنشئها .

وقيل إن ابن عمار لم ينظم هذه الأبيات ، وانها إنما قيلت على لسانه

---

(١) الحلة السيراء ، ف ، ابن عمار .

لاثارة غضب المعتمد وإضرام نار الحقد في قلبه ، وذكر أن ابن عبد العزيز هو مدبر هذه المكيدة وملفق هذه التهمة (١) .

ولكننا نرجح أن ابن عمار قد قال هذه الابيات فعلا فهي تلتئم مع نفسيته وينسجم أسلوبها وافكارها مع أسلوبه وأفكاره . ثم إن المعتمد ذكر بصراحة ووضوح في رسالة بعث بها لأحد معارفه من الحكام أن ابن عمار قد اسرف في الكلام القبيح والسباب الشائن لحد لا يمكن التغاضي عنه (٢) . ولا نعتقد أن هجاء ابن عمار لابن عباد كان يصل لهذه الدرجة من الخطورة لو لم يكن بهذا الشكل الذي رأيناه في هذه القصيدة .

إذن فقد انقطع آخر خيط يصل بين ملك إشبيلية وحاكم مرسيه المتمرد . وأصبح المعتمد يتربص الدوائر بوزيره القديم وينتظر الفرصة السانحة للانتقام منه والبطش به ، ولم يعد في الامكان أن يغتفر هو ولا اعتماد واولادهما سباب ابن عمار وشتائمه .

ولكن شاعرنا الذي كان يعرف حق المعرفة حال ملوك الطوائف آنذاك ، لم يكن ليكترث كثيراً بغضبهم أو رضاهم ، فانطوى على نفسه يتمتع بملكه الجديد ويعب كؤوس المتعة واللهو بكل وسائلها المتيسرة وسبلها المعروفة . وابن عمار ، كما عرفناه ، شديد التعلق بالخمر ، قوي الميل لمجالس الأنس وما فيها من لهو وطرب منعطف نحو اللذات الحسية لانكاد تفوته منها واحدة ولعل احساسه بأنه بعيد عن متناول أيدي أعدائه شجعه على الانصراف الى لهوه

---

(١) الحلة السيراء ، ف ابن عمار

(٢) الذخيرة ، ق ٢ ، ف ابو بكر بن القصيرة .

وعبثه وأنسه . فترك امور الادارة في أمارته لمساعده ابن رشيق الذى لم يتوان عن تقوية نفوذه ووضع أتباعه وأعوانه فى المراكز الحساسة والوظائف المهمة (١) .

وليس بين أيدينا مما أنتجه ابن عمار فى هذه الفترة غير القصائد التي مرت الاشارة اليها (٢) ، وهي كما يبدو بوضوح غير ذات قيمة فنية كبيرة ، فليس فيها سوى طائفة من الافكار المضطربة حاول الأديب سردها قاصداً الافراط فى السب والاغراب في التحقير ، ولكن قيمتها التأريخية فى حياة الأديب ذات خطرين . إذ أنها كشفت عن ناحية مهمة من نفس ابن عمار ، ورسمت لنا صورة عن حاله مع أمراء الطوائف المسلمين وموقفه منهم .

ورب سائل يسأل ، كيف جاز لابن عمار وهو الذكي الأريب أن يخلق لنفسه الاعداء ويحيطها بهم ، دون أن يخشى على سلطته منهم ويحذر من تألبهم عليه . والجواب عن ذلك أنه ، بالاضافة الى ادراكه مدى قوتهم ، كان واثقاً بتأييد أمراء النصارى ولا سيما الفونس السادس ملك قشتالة ومناصرتهم له . وكان الفونس كما سبق أن ذكرنا هو المحرك الوحيد لميزان القوى ـ قبل تدخل المرابطين ـ في تلك البلاء التي تقطعت أوصالها وهدت النزاعات الداخلية والهجمات الخارجية قواها .

---

(١) الحلة السيراء ، ف ابن عمار ، مذكرات عبد الله بن زيري ، الاندلس ١٩٣٥ ص ٣٣٤ ، بنو عباد ، ج ٢ ، ص ١٠٢

(٢) ديوان ، قس ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠ .

ابن عمار وطليطلة

في هذا الوقت الذى استقر فيه الأمر لابن عمار في مرسيه كانت مدينة طليطلة تجتاز أزمة عنيفة جداً ، هي تلك التي أودت بها وأخرجتها من حضيرة الاسلام ، فقد اندلعت في المدينة عام ٤٧٤ هـ (١٠٨٢م) ثورة صاخبة قام بها فريق من شيوخ المدينة ضد ملكها القادر بن ذى النون . وفى الوقت نفسه كانت جنود ألفونس السادس حليف القادر تحوط المدينة لتمنع أهلها من الخروج منها ولتنتظر فرصة مناسبة للانقضاض عليها وانتزاعها من أيدى المسلمين . ودامت هذه الحال في طليطلة مدة سنتين دون أن تحل الأزمة ودون أن يستطيع الملك أو أهل المدينة الثائرون القبض على زمام الامور (١) . فليس من الغريب إذن أن نرى ابن عمار وهو رجل المؤامرات والدسائس يأبه للامر ويحشر أنفه فيه محاولاً استغلاله لمصلحته ، بل العجيب أن لايحدث ذلك .

فما كادت حاله تستقر في مرسية حتى قرر حوالي ٤٧٥هـ (١٠٨٣) او فى اوائل ٤٧٦هـ (١٠٨٤) التدخل مباشرة في أمر طليطلة ، فتوجه اليها تاركاً في مرسية مساعده ابن رشيق يدير الامور ويرتب شؤون المدينة . وفى طليطلة اتصل ابن عمار بأشراف المدينة وادعى أنه رسول من ملك قشتالة المسيحي ألفونس السادس واقترح عليهم مشروعاً أمل أن يحظي هو عند تنفيذه بحصة الأسد . ويقول عبد الله بن زيرى ملك غرناطة آنذاك فى

1 - Levi - proveual , Islam d' occident , p. 127-132

مذكراته ، وهو الوحيد الذى روى لنا هذه الحادثة (١) ، إن ابن عمار كان مرسلا من قبل الملك المسيحي وانه كان في خدمته . الا أن كره ملك غرناطة الشديد لابن عمار وتسلسل الحوادث كما سنرى وطبيعة المشروع الذى عرضه كلها تشير الى انه كان يعمل قبل كل شيء لحسابه الخاص وإن كان لم يغفل الفونس من هذا الحساب ، وربما كان واثقاً من رضاه وموافقته على اقتراحاته .

ويتلخص مشروع أبن عمار الذى قدمه لنبلاء طليطلة وأشرافها ، فى ان يطرد أهل طليطلة أميرهم القادر بن ذى النون ويحكموا أنفسهم مباشرة بواسطة مجلس من الأشراف على أن يؤدوا لألفونس السادس أتاوه سنوية معينة ، أسوة بما يفعله الامراء الاندلسيون الآخرون ليأمنوا شره ويحظو بحمايته . واعتقد فريق من الاشراف الطليطليون بصحة مهمة ابن عمار ووافقوه عليها واتخذوا الأهبة لتنفيذ مشروعهم ، الا أن القادر علم بالمؤامرة قبل تنفيذها فأحبطها ، ونكل بالمتآمرين ففروا ملتجئين الى الملك المسيحى . أما ابن عمار نفسه فتوجه نحو سرقسطة ، وهناك وردته الأنباء المريعة بثورة ابن رشيق مساعده وحليفه في مرسية وتمرده عليه واغتصابه حكم المدينة واستيلائه على ثروة ابن عمار الطائلة لنفسه وطرده لعائلة هذا الأخير من المدينة ، فأسقط فى يد ابن عمار ولم يجد وسيلة لاسترداد ملكه السليب . نظر حوله فلم يجد سوى أعداء يكيدون له ويتربصون به الدوائر ، بل ان

(٢) مذكرات الملك عبدالله بن زيري ، الاندلس ، ١٩٣٥ ، جـ ٣ ، ص ٣٢٤ .

ألفونس نفسه استقبل هذا الحدث ببرود تام، حتى ليقال إنه علق عليه بقوله، إن ابن عمار كالسارق الذى سرق منه ماسرقه (١). ويبدو أن ابن رشيق لم يهمل الفونس من حسابه حين قام بحركته فاسترضاه بما يكفل بقاءه محايداً على الاقل (٢).

ويذكر الملك عبد الله بن زيرى في مذكراته بعد ان يروى مغامرة ابن عمار فى طليطلة أن « ليس كل الناس علم سر الامر كما نصفه » (٣).

ولعل في هذا تفسيراً لعدم ورود هذه الحادثة فيما رواه لنا المؤرخون من حياة ابن عمار والغموض الذى احاط بخروجه من مرسية.

ورغم أننا لا نستطيع تحديد غرض ابن عمار من مغامرته في طليطلة، ولا نعرف فيما اذا كانت لحساب ألفونس السادس كما يذكر ملك غرناطه أو كانت لحساب غيره، فان مانعرفه عن نفسية ابن عمار وأغراضه يدفعنا الى التساؤل فيما اذا كان شاعرنا لم يجد في طليطلة وهى في أزمتها الخانقة فريسة سهلة المنال يرضى بها طموحه ويقنع مطامعه؟!.. وعلى كل حال فقد كان حصيدابن عمار من هذه المغامرة فشلا ذريعاً وضربات قاصمة. فضلا عن فشل مؤامراته فان غيابه عن مرسيه كلفه غالياً وفسح المجال لابن رشيق الطموح لكى يضرب ضربته بحذق وبراعة.

وكان ابن رشيق كما قدمنا قد أحكم تنظيم خطته فوضع أصدقاءه

---

(١) الحلة السيراء، ف ابن عمار. بنو عباد، ج٢، ص١٠٤

(٢) الحلة السيراء، ف ابن عمار. بنو عباد، ج٢، ص١٠٤

(٣) مذكرات الملك عبد الله بن زيري، الاندلس، ١٩٣٥. ج، ص. ٣٢٥.

واقرباءه في المراكز المهمة ، وولاهم إمرة القلاع الحصينة ، وجمع حوله الجند (١) ، ثم ولى وجهه شطر ألفونس السادس حليف ابن عمار الوحيد فأرضاه بالمال والهدايا كما ذكرنا ، حتى اذا تم له الأمر فى الداخل والخارج وجه ضربته الى رئيسه وأغلق أمامه ابواب المدينة .

ابن عمار في سرقسطة

لم يجد ابن عمار بعد أن يئس من الرجوع لمرسية من ملجأ يأوى اليه سوى سرقسطة في الشمال الشرقي من اسبانيا المسلمة حيث يحكم المؤتمن بن هود الذى يكاد يكون الوحيد من بين الامراء الأندلسيين المسلمين الذى لاتزال علاقاته طيبة بابن عمار ، فاستقبله استقبالاً حسناً وخصص له منزلا يسكنه هو وأهله ومنحه رزقاً يساعده على العيش (٢) .

ولكن الاقامة لم تكن ممتعة فى سرقسطة بعد فقد المال والاصدقاء وزوال الملك والسلطان ، فأزمع السفر الى الاررة التابعة لأمارة سرقسطة ، حيث يقيم حاكماً فيها المظفر بن هود . ولكن الاقامة هناك لم تكن اشد إمتاعاً له من إقامته في المدينة الأولى فعاد بعد فترة وجيزه الى كنف المؤتمن يتحين الفرص للقيام بعمل ما يظهر فيه براعته ودهاءه ويرضى به حاجته الى الحركة والعمل .

ورغم حال ابن عمار السيئة والضربات العنيفه التي حاقت به ، فانه لم ييأس من

(١) الحلة السيراء ، ف ابن عمار . ، بنو عباد ، جـ٢ ، ص ١٠٢ .

(٢) الحلة السيراء ، ف ابن عمار . بنو عباد ، جـ٢ ، صـ١٠٤ .

استعادة نفوذه وتحقيق مطامعه ولم يفقد ثقته بنفسه ، ولكن الفرص لم تكن كثيرة والظروف لم تكن مواتية .

وأخيراً سنحت فرصة نادرة لم يتوان ابن عمار عن انتهازها ، فقد تمرد أحد قواد الحصون المنيعة في أمارة سرقسطة على المؤتمن . وكان من معارف ابن عمار ، فاقترح هذا الاخير على الأمير أن يكفيه شره ويعيد الحصن الى الطاعة والخضوع . فنسح المؤتمن المجال لابن عمار لابداء دهائه وبراعته في هذا الامر ، فلم يطلب شاعرنا منه غير عدد قليل من الجنود سار على رأسها الى الجبل الوعر حيث يقوم الحصن المنيع .

كان ابن عمار يعرف عن صاحب الحصن الشيء الكثير ، يعرف أنه عنيد ، وأنه الحاكم الوحيد في الحصن وأن لا أحد غيره ينازعه القيادة و يجرأ على طلبها . واستناداً على معلوماته هذه وضع خطته . فما كاد يصل مع جنوده أمام الحصن حتى طلب مقابلة قائده للمفاوضة ، فوافق هذا الأخير اعتماداً على سابق المعرفة التي بينهما على أن يذهب ابن عمار نفسه الى الحصن ، فوافق ابن عمار على ذلك وذهب مع اثنين من رجاله الأشداء . فارتقى حتى وصل الباب ففتحت له ودخل القلعة المنيعة . وكان قد أوصى رجليه بأن يهجما على قائد الحصن حالما يمسك هو بيده ، ويقتلاه . وحدث هذا ، اذ ما كاد يتقدم القائد لاستقبال ابن عمار صديقه القديم حتى هجم الرجلان عليه وأوسعاه طعناً فسقط مضرجاً بدمائه قبل أن ينتبه أتباعه من

المفاجأة فيتدخلوا لمنعها وايقافها . ولكن فات أوان التدخل ، فبهت الجميع ووقفوا حائرين ولم يجدوا بداً من طلب الأمان من ابن عمار لأنفسهم فمنحهم إياه ، وعاد الحصن خاضعاً للمؤتمن ، فسر بذلك واعجب بدهاء ابن عمار ومكره (١) .

وحسب ابن عمار أن محنته انتهت ، وأن ابواباً من الأمل تفتحت أمام عينيه . وكان المؤتمن نفسه يرجو منذ آوى ابن عمار ، أن يستطيع الاستفادة منه واستغلال مواهبه لتنفيذ اغراضه (٢) ، لذا ماكاد ابن عمار يقترح على المؤتمن ويتعهد له باخضاع قلعة شقورة العصماء باسلوبه الخاص حتى وافقه الملك على ذلك وأرسله مع جيش صغير لتحقيق هذا الغرض . وقلعة شقورة هذه القائمة على قمة جبل وعر بقيت مستقلة بعد أن استولى المقتدر بن هود على مملكة علي بن مجاهد العامري أمير دانية . وكان يحكمها أحد أبناء علي المسمى سراج الدولة ، ثم تولى ادارتها بعد موته بنو سهيل الذين كانوا يشرفون على تربية اولاده الصغار ، وكان بنو سهيل يرغبون في بيع القلعة الى أحد الأمراء المجاورين ، ولكن ابن عمار وعد المؤتمن بأنه سيحصل عليها بأيسر سبيل .

سار ابن عمار الى الحصن يقود كتيبة صغيرة من الجند ، وماكاد يصل الى القلعة الشامخة حتى طلب من بني سهيل أن يأذنوا له بمقابلتهم ، مصمماً كما يبدو على أن يستعمل الأسلوب نفسه الذي لجأ اليه في القلعة السابقة .

---

(١) الحلة السيراء ، ف ابن عمار . بنو عباد ، ج٢ ، ص١٠٥

(٢) مذكرات عبد الله بن زيري ، الأندلس ١٩٣٥ ، ص٣٢٦ .

2 - Mus . Esp . T . 3 , P . 114

ولكن حدث في هذه المرة مالم يكن يتوقعه الشاعر المغامر . إذ ما كاد يصل باب الحصن مع تابعيه ويسحب هو أولا لمدخله المرتفعة حتى ألقى جنود القلعة القبض عليه وأنذروا صاحبيه اللذين فرا هاربين ليعودا بجنود سرقسطة من حيث أتوا بعد أن يئسوا من انقاذه . أما هو فسيق مقيداً الى بني سهيل الذين كانوا يحقدون عليه لابيات هجاهم بها قبل ذلك بوقت قصير ، فألقوا به فى السجن ووجدوا فيه غنيمة باردة قد تدر عليهم الربح الوفير (١).

ابن عمار في سجن شقورة

لقد حدث القبض على ابن عمار فى شقورة في ربيع الاول من عام ٤٧٧هـ (آب ١٠٨٤م) . ولهذا التأريخ أهمية خاصة إذ أنه يحدد نهاية النشاط السياسي لابن عمار ، ولكنه فى الوقت نفسه يشير الى ابتداء فترة أدبية خصبة فى حياته رغم قصرها . فلم يكن لابن عمار اثناء إقامته بسرقسطة وشمال شرقى الاندلس نشاط أدبي يستحق الذكر ـ اذا استندنا الى ما وصلنا من إنتاجه في هذه الفترة ، فكل ما انتجه مقطوعات صغيرة لاتثير الاهتمام ولا تسترعي الانتباه (٢) . وقد اعتدنا ان نرى الخوف والقلق

(١) الحلة السيراء ، ف ابن عمار ، بنو عباد ، ج٠ ، ص٠٠٨ .
1 - Mus EsP . T. 3, p. 114 .

(٢) الديوان ، قص .

والهلع من الموت تثير في الشاعر أعنف المشاعر واعمق الأحاسيس ، وتدفعه الى الانتاج الأدبي القيم ، فلا عجب إذن إن رأينا قريحة ابن عمار تتفجر في هذه الفترة بعد نضوب ، ولا غرابة في أن نراه يلوذ بالشعر مرة أخرى حين ضاقت به السبل وأعيته الحيل ، مستثيراً عطف وشفقة آسريه ، ونادباً حظه العاثر ومصيره التعس .

واهم مالدنيا من انتاج ابن عمار في سجن شقورة رائية (١) جميلة كتبها الى صديقه القديم الفضل بن حسداى يصف له فيها حالته البائسة الشقية وافتقاد الصحب والاصدقاء :

أدرك اخاك ولو بقافية
كالطل يوقظ نائم الزهر
فلقد تقاذفت الركاب به
في غير موماة ولا بحر
طمحت صحابته بلا سنة
وتساقطوا سكرى بلا خمر

ثم ينتقل الى وصف قلعة شقورة المنيعة وصفاتيه كثير من الروعة والابداع وقوة التأثير :

بمعارج أدت الى جرد
حتى من الأنواء والقطر

---

(١) ديوان ، ص ٦٧ ،

عال كأن الجن إذ مردت
جعلته مرقاه الى الذسر

وحش تناكرت الوجوه به
حتى استربت بصفحت البدر

قصر تمهد بين خافقتي
نسرين من فلك ومن وكر

متحير سال الوقار على
عطفيه من كبر ومن كبر

ملكت عنان الريح راحته
فجيادها من تحته تجرى

ويستمر فى قصيدته منتقلا بعد ذلك الى التوسل الى صديقه بأن لا يقطع بينهما الأسباب ، ففى الكتابة اليه عزاء عما لقيه من عنت الدهر .

وأهم ما نلاحظه فى هذه القصيدة هو أن شاعرية ابن عمار تتفتح بعد أن منعتها مشاغل السياسة والادارة من الظهور والتدفق ، فيبدو لنا خياله الخصب وعواطفه الزاخرة ومقدرته على التعبير، كل ذلك باسلوب متين رائع .

حاول بنو سهيل بعد أن الفوا ابن عمار في الاغلال والقيود ان ينتفعوا منه . وكانوا يعلمون حق العلم أن كثيراً من ملوك الاندلس وامرائها يدفعون ثمناً غالياً للحصول عليه والانتقام منه ، فعرضوه للبيع وقرروا

تسليمه لمن يدفع الثمن الأكبر . وحاول هو ان يستجير بمن تبقى له من الاصدقاء (١) ، فلم يحظ بغير الاعراض وعدم الاكتراث ، وقال هو واصفاً هذا الحال :

أصبحت في السوق ينادى على
رأسي بأنواع من المال

فهل فتى يبتاعني ماجد
أخدمه مدة إمهالي

والله ماجار على نقده
من ضمني بالثمن الغالي

فلم يكن بين امراء الاندلس من يرغب فى منافسة المعتمد بن عباد في هذا المضمار ، كما لم يكن فى أخلاق ابن عمار وماضيه مايشجعهم على اصطناعه والاستفادة من خدماته وأدرك هو هذه الحقيقة بعد أن فشل في استنجاد الاصدقاء ، وعرف أن المعتمد سيطلبه وأنه سوف لايكون رحيماً به . فاستبق الحوادث وكتب اليه يستجير به ويرجو منه شراءه واطلاق سراحه (٢) . ولكن المعتمد لم يكن في حاجة لهذا الطلب ، فما كاد يعلم بوجود ابن عمار فى شقورة حتى ارسل ابنه الراضي الى بني سهيل ، فقاده اليه فى حال مزرية مكبلا بالاغلال ، بل واشترى القلعة نفسها منهم ، ولم تجد الابيات التي نظمها في مدح الراضي (٣) عند قدومه شيئاً في استثارة عطفه ورحمته .

(١) ديوان ، قص ٦٩ .
(٢) ديوان ، قص ٧٠ .
(٣) ديوان ، قص ٧١ .

ابن عمار في سجن المعتمد

وصل ابن عمار قرطبة حاسر الراس تشغله القيود ، وقد وضع على بغل بين عدلي تبن ، وقدم الناس من كل انحاء قرطبة ليشاهدوا ذلك الذى خرج قبل سنوات قليلة فى موكب حافل كوا كب الملوك قائداً الجيش الاشبيلي لاحتلال مرسية ، وهو يعود الآن ذليلا مهاناً يسخر منه الناس وترجمه العامة ، بل يقال إن جوارى المعتمد أنفسهن اللاتى سبق أن مسهن بهجائه خرجن ليسخرن منه ويضحكن لمرآه على هذه الحال (١).

واقتيد الى المعتمد فوبخه وأنبه وذكر له افضاله وعدد مآثره ثم سرد خيانات ابن عمار ، بل ويقال إنه اخرج اليه قصيدته الهجائية (اللامية) مكتوبة بخط يده ويصف عبدالواحد المراكشي ـ صاحب المعجب ـ دخوله قرطبة فيقول : « فدخلها (اى قرطبة) ابن عمار أشنع دخول وأسوأه ، على بغل بين عدلي تبن ، وقيود ظاهرة للناس ، وكان المعتمد أمر باخراج الناس خاصة وعامة حتى ينظروا اليه على تلك الحال : وقد كان قبل اذا دخل قرطبة اهتزت له ، وخرج اليه وجوه أهلها وأعيانهم ورؤساؤهم ، فالسعيد منهم من يصل الى تقبيل يده او يرد عليه ابن عمار السلام ، وغيرهم لايصل الى تقبيل ركابه او طرف ثوبه . ومنهم من ينظر اليه على بعد لايستطيع الوصول اليه . فسبحان محيل الاحوال ومديل الدول » ويستمر عبد الواحد المراكشي قائلا :

---

(١) بنو عباد ، ج٣ ، ص ١٠٨ . 1 - Mus , EsP , T.3, p.115 .

« فدخل ابن عمار قرطبة كما ذكرنا ، بعد العزة الفمساء والملك الشامخ والرياسة الفارعة ، ذليلا خائفاً فقيراً لا يملك الا ثوبه الذى عليه ، فسبحان من سلبه ما وهبه ومنعه ما كان به أمتعه » . ويذكر المؤرخ في هذا الباب حادثة حدثت لابن عمار رواها بعض الموكلين به والتي تدل على فطنته وذكائه كما يقول المؤرخ « قال : لما قربنا من قرطبة بحيث يرانا الناس ، خرج فارس من البلد يركض يقصدنا ، فلما رآه ابن عمار وكان معتماً ـ أزال العمامة عن رأسه ، فجاء الفارس حتى وصل الينا ، فنظر الى ابن عمار ودخل معنا فى الصف فمشى ، فسألناه فيم جاء ؟ فقال : الذى جئت فيه صنعه هذا الرجل قبل أن أصل اليه ، فعلمنا أنه ارسل ليزيل عمامته ».

ثم يتحدث المراكشي عن لقاء ابن عمار بالمعتمد فيقول : « فأدخل على المعتمد على الله على الحالة التي ذكرت ، يرسف في قيوده ، فجعل المعتمد يعدد عليه أياديه ونعمه ، وابن عمار في ذلك مطرق لا ينبس ، الى أن انقضى كلام المعتمد ، فكان من جواب ابن عمار أن قال : ما أنكر شيئاً مما يذكره مولانا ـ أبقاه الله ـ ولو أنكرته لشهدت به على الجمادات فضلا عمن ينطق ، ولكن عثرت فأقل ، وزللت فاصفح . فقال : هيهات ، إنها عثرة لا تقال . وأمر به فأحدر في النهر الى إشبيلية ، فدخل به إشبيلية على الحال التي دخل عليها قرطبة . وجعل في غرفه علي باب قصر المعتمد المعروف بالقصر المبارك ، ـ وهو باق الى وقتنا هذا (اى الي وقت المؤرخ في القرن السابع) ـ فطال سجنه

هناك » (١) . وقد فتح أمامه امتداد مدة سجنه باب الأمل ، لاسيما وأنه علم أن بعض الشخصيات الكبيرة تحاول التأثير على المعتمد للعفو عنه ، منهم الرشيد بن المعتمد (٢) . ويذكر ابن بسام ان ابن محقور حاكم شاطبة كتب رسالة للمعتمد يرجوه فيها العفو عن ابن عمار ، ولكن المعتمد رفض هذا الطلب فى رساله كتبها ابو الوليد بن طريف كاتبه على لسانه وهذه الرسالة تستحق منا وقفة قصيرة لأهميتها واحتوائها على رأى المعتمد بوزيره السابق .

التهم الموجهة لابن عمار

تتضمن هذه الرساله نص الاتهام الذى وجهه ملك اشبيلية لابن عمار والذى كان في نظره لايحتمل أية شفقه اورحمه ، لذا رأيت أن أنقلها هنا كما كتبت عن المعتمد لأنها أثمن وثيقه تاريخيه . بين يدينا حول الموضوع: قال الكاتب عن لسان المعتمد :

« وقفت على وجوه السلامة المستنام فيها الى شرف محتدك وصفاء معتقدك أكرم استتمامه في الشفاعه فيمن أساء لنفسه حظ الاختيار ، وسبب لها النكبه والعثار بغمطه لعظيم النعمة ، وقطعه لعلائق العصمة ، وتخبطه فى سنن غيه واستهوانه وتجاوزه في ارتكاب الجرائم ، واسرافه حتى لم يدع للصلح موضعا ، وخرق ستر الابقاء بينه وبين مولى النعمه عنده ، فلم يترك فيه موقعا . وقد كان قبل استشراء رأيه وكشفه لصفحة المعاندة وابدائه

(١) المعجب ، ص ١٢٤ ، ص ١٢٥ .
(٢) الذخيرة ق ٢ ، ف ابن عمار .

عذره في جميع جناياته مقبول ، وجانب الصفح له معرض مبذول ، لكن غيرته الغواية عن طريق الهـــداية ، فاستمر على ضلاله ، وزاغ عن سنن اعتداله ، وأظهر المناقضه ، وتعرض بزعمه الى المساورة والمعارضه ، فلم يزل يريغ الغوائل وينصب الحبائل ، ويركب في العناد اصعب المراكب ، ويذهب منه في أوعر المذاهب ، حتى علقته تلك الاشـــراك التي نصبها ، وتشبثت به مساوىء المقدمات التي جرها وسببها ، فذاق وبال فعله ، ولا يحيق المكر السيء الا بأهله . ولم يحصل في الانشوطة التي تورطهـــا ، والمنحسة التي اشتملت عليه وتوسطها ، إلا ووجه العفو قـــد أظلم وباب الشفاعة فيه قد أسهم . ومن تأمل أفعاله الذميمة ومذاهبه اللئيمة ، رأى عنه الصفح بعيـــداً ، والابقاء عليه داء حاضـــراً . ومثلك برجاحة عقله ومعرفته بابناء زمانه لم يجهل بعد حاله من القل والضعة ، وارتقاءه الى الرفعة والسعة ، وانتشاله من ذل الخمول الى العز العريض الطويل ، وتنويله عقائل الأموال وجلائل الاحوال »

وفى فصل منها :

« فتفوق لمناضلة الدولة نباله ، وأعمل فى مكايدتها جهده واحتياله . ولم يقتصر على ذلك ، بل تجاوز الى إطلاق لسانه بالذم الذى صدر عن لؤم نجاره ، والطعن الشاهد بخبث طويته واضماره . ومن جهل مقدار تلك التي كان سوغها أولا ، أخلق به أن لا يغيره مقدار العفو عنه آخراً . ومن بعد هذا الفساد كيف يرجى استصلاحه ، ومن استبطن مثل علته كيف يؤمل فلاحه ، ومن لك بسلامة الأديم النقل وصفاء القلب الدغل . وعلى ذلك فلا

أعتقد عليك فيما عرضت به من وجه الشفاعة غير الجميل ولا أرتدى فيه حسن التأويل . ولو وفدت شفاعتك في غير هذا الأمر الذى سبق فيه السيف العذل، وأبطل عامل الأقـــدار فيه الألطاف والحيل ، لتلقيت بالإجمال ، وقوبلت ببالغ المبرة والاهتبال . . » (١) .

أعتقد ان هذه الرسالة تغنينا عن كل شرح وتعليق وتثبت ما سبق أن قلناه عن مواقف ابن عمار من ملكه وتدل على مدى خطورة التهم الموجه اليه وتصميم المعتمد على عدم التغاضي عن اخطاء وزيره القديم .

نشاط ابن عمار الادبي في سجن اشبيلية

لم ينقطع ابن عمار طيلة مقامه فى السجن عن إرسال قصائد التوسل والاستعطاف الى المعتمد وأبنائه ومن يلمس منه المساعدة والتأييد ، لدينا منها ثلاث قصائد تستحق كل عناية واهتمام لما فيها من شعور عميق وإحساس فياض ، أوجدتها حال ابن عمار البائسة وخوفه من الموت .

اما أولى هذه القصائد فهي دالية بعث بها الشاعر الى الرشيد بن المعتمد يذكر اليه توسلاته ومشاعره الثائرة ، وهي قصيدة فياضة بالعواطف والشعور . يمتزج فيها الخوف بالامل والجزع بالاستعطاف ، يبدو فيها اسلوب ابن عمار الشعرى الاندلسي بأجلى وجوهه . فعدا الرقة البادية فى كل بيت من ابيات القصيدة نرى بوضوح اثر الطبيعة التي غذت خيال الشاعر ، فاستوحى منها

(١) الذخيرة ، ق ٢ ، ف ابو بكر بن القصيرة .

صوراً نقل بها كل ما يعتلج فى نفسه من مشاعر وأحاسيس ، ثم نجد بعد ذلك فى هذه القصيدة نفسية ابن عمار واخلاقه وهو في هذا الموقف الرهيب ، نجده يستخدم السلاح الوحيد الذى يمتلكه في تلك اللحظة الحرجة إلى أقصى مايستطيع من الاستعمال فتأتى قصيدته نابضة بالحياة والعواطف ، واذا احس القارىء ببعض الاضطراب فى افكار القصيدة وتسلسل أبياتها العاطفي فما ذلك إلا لأن الشاعر كان مضطرباً أشد الاضطراب فاختلطت احساساته وتصادمت مشاعره ، فهو يفتتح قصيدته بهذه الصورة الصاخبة صخب شعور الشاعر ، والعنيفة عنف دقات قلبه (١) .

قل لبرق الغمام ظاهر بريدى
قاصداً بالسلام قصر الرشيد

فتقلب فى جوه كفؤادى
وتثاءب في صحته كالفريد

وانتحب في صلاصل الرعد تحكي
ضجتي في سلاسلي وقيودى

فاذا ما اجتلاك او قال ماذا
قلف إنى رسول بعض العبيد

بعض من أبعدته عنك الليالي
فاجتنى طاعة المحب البعيد

ثم ينتقل لمدحه ويتوسل اليه ويستعطفه مستذكراً ايام الصفاء ومقارناً

(١) ديوان ، ص ٧٢ .

لها بما هو فيه من عنت وتعاسة :

كنت أشدو وعليك يادوحة المجـ (م)
ـد ويارونة الندى والجود

إذ جناحي نـد بظلك طلق
ولسانى رطب على التغريد

وأنا اليوم تحت ظل عقاب
لقوة محوة الجناح صيود

أتقيهـا بناظر خافق اللحـ (م)
ظ مروع وخاطر مرؤود

غير أنى سأصطفى لك جهدى
من ثناء طيب وذكر حميد

في قليل من القوا فى كثير
وذلول من المعانى شرود

كلمات كأنها الدر نظماً
طوقت منك أى طوق وجيد

ثم يمدحه بكل مايمكن أن يمدح به ملك ، فأبوه الشمس وهو بدر النجوم ، وريحانة العلى ودرة التاج وفرند الحسام ووسطى العريد ونكته الخطبة وقصد الحديث وبيت القصيد ، وعين اللواء في الحرب وقلب الجيش ، وهو

فى الليل ليلة القدر وفى النهار يوم العيد . ثم يذكر محله من ابيه المعتمد ومنزلته الكبيرة لديه ويتوسل إليه في أن يشفع له عنده وهل غيره أولى بهذه الشفاعة :

والى أين في الشفيع إذا ما
لم ألذ منك عنده بالرشيد

بفتى نازح المكان مطل
غائب الشخص ذى اعتناء عتيد

مشفق يستجيب لي من قريب
وأنا أستغيثه من بعيد

لو أطلت علي رحمة عينيه
انجلت شدتى وذاب حديدى

والقصيدة كما نرى تحتوى على مجموع من التعابير الأدبية البارعة تلفت النظر وتجلب الاهتمام ، تدل على دقة الحس وقوة الادراك .

وعدا هذه القصيدة التي أرسلها ابن عمار للرشيد بن المعتمد ، فلدينا قصيدة أخرى كتب بها الى الفتح بن المعتمد الملقب بالمأمون (١) يتوسل فيها اليه أن يشفع له لدى والده وينقذه مما هو فيه من العذاب ، يفتتحها بتساؤل بارع يوجهه لنفسه :

هلا سألت شفاعة المأمون ؟!
أو قلت ما فى نفسه يكفيني ؟!

---

(١) ديوان قص ٧٣ .

ما ضـــر لو نبهته بتحية
يسرى النسيم بها على دارين

وهزرت منه فقد يقلب سيفه
يوم الجلاد الحين بعد الحين ؟!

ثم يمزج التوسل بالرجاء والمدح كما فعل في قصيدته السابقة ويتفنن في ذلك أيما تفنن ، فيصفه تارة بالتقى وآنا بالمهابة وطوراً بالتواضع وباشياء اخرى لانكاد نحد :

متوقد الجنبات كالل دوحه
بجنى وفجر صفحه بعيون

دانت لأيدى المجتنين قطوفه
ودنا اليهم من ظلال غصون

ونأى لأبصار العصاة فانما
يتوهمون نعيمه بظنون

ويتخلل المدح وصف لحالته المؤلمة وحظه العاثر مقارناً بين ماضيه وحاضره

كم أسكب العذب الفرات على فمي
يرمي يدى باللؤلؤ المكنون

واليوم قد أصبحت في غمراته
إن لم تغثنى رحمة تنجينى

بعدت سواحله على وأدركت
أمواجه فتـــلاعبت بسفيني

لاشك في أني غريق عبابه
إن لم يمد الفتح لي بيمين

وأنهى قصيدته بالتوسل الى الفتح المأمون في أن لا يأل جهداً لدى أبيه لانقاذه من سجنه وانتشاله من وهدته ، وهـذه القصيدة كسابقتها تستحق الاهتمام وتلفت النظر بتعابيرها البارعة وما يزدهم فى جوانبها من مشاعر وأحاسيس .

* * *

ويقال إن المعتمد ضجر من رسائل ابن عمار وتوسلاته فأمر أن لاتعطى له وسائل الـكتابة ، فتوسل ابن عمـــار اليه في أن يسمح له للمرة الأخيرة بورقتين فأعطاهما اليه . فكتب على احداهما قصيدة استعطاف طويلة أرسلها الى الملك ، فوصلت اليه مساء وهو فى مجلس مع خاصته ، فقرأها ، ويقال إنه أحسن بالعطف والشفقه على صديقه القديم فأرسل اليه بعد انفضاض مجلسه ووبخه وعنفه ، فاعتذر ابن عمار وتوسل الى الملك بدموعه آناً وباعتذاراته آنا آخر وباثارته للذكريات السابقة مرة ثالثة حتى ليقال إن المعتمد أجابه بما فهم منه ابن عمار تشجيعاً ووعداً بالخلاص (١) .

وقصيدة ابن عمار هذه التي أرسلها للملك ، حائية حصلت على إعجاب مؤرخي

بنو عباد ، ج٢ ، ص ١٨ .

1 - Mus. Esp. T.3, p.50

الادب فأطنبوا فى مدحها والاشادة بها . ولاشك انها تعتبر من أحسن ما أنتجه الشاعر، فنرى فيها نحس الاخلاص والعواطف الحارة، فيها يمتزج الخوف بالأمل واليأس بالرجاء . هاجم فيها اعداءه وحاول أن يبعث في نفس الملك عواطف الرحمة والشفقة ، وأن يثير فى خاطره ذكريات الماضي والأعمال والخدمات الجليلة التى قدمها لمملكته ، إفتتحها بقوله (١) :

سجاياك إن عافيت أندى وأسمح
وعذرك إن عاقبت أجلى وأوضح

وإن كان بين الخطتين مزية
فانت الى الأدنى من الله أجنح

ويتوسل اليه ذاكراً أعداءه وحساده ، ومشيراً الى ما قدمه للملك من خدمة في الماضي :

حنانيك في أخذى برأيك لاتطع
عداتى وإن أثنوا على وأفصحوا

وماذا عسى الأعداء أن يتزيدوا
سوى أن ذنبي واضح متصحح

نعم لي ذنب غير أن لحلمه
صفات يزل الذنب عنها فيسفح

---

(١) ديوان ، قص ٧٦.

وإن رجائي أن عندك غـــيرما
يخوض عدوى اليوم فيه ويمرح

ولم لا وقد أسلفت وداً وخدمة
يكران في ليل الخطايا فيصبح

وعبني وقد أعقبت أعمال مفسد
أما تفســـد الأعمال ثمة تصلح

أقلني بما بيني وبينك من رضى
له نحو روح الله باب مفتح

وعف على آثار جرم جنيته
بهبة رحمى منه تمحو وتصفح

ويتحدث عن أعدائه ويصف شجاعتهم بتأثر ومرارة :

تخيلتهـــم لادر لله درهم
أشاروا تجاهي بالشمات وصرحوا

وقالوا سيجزيه فلان بفعله
فقلت وقد يعفو فلان ويصفح

وهكذا يتوسل ويرجو ويهاجم ويدافع فى آن واحد الى أن ينهي قصيدته مسلماً أمره للملك ليفعل به ما يشاء :

سلام عليه كيف دار به الهوى
الى فيدنو او على فينزح

وبهنيه إن مت السلو فإنني
أموت ولي شوق إليه مبرح

والقصيدة كما نرى متينة رائعة فيها ما يتطلبه الفن من فيض العواطف وتدفق الشعور وقوة التعبير . وهي كما تتفق اقوال الرواة ، آخر ما نظمه ابن عمار من الشعر ، وكان لها كما رأينا في نفس المعتمد تأثير غير قليل .

عاد ابن عمار الى سجنه كما يقولون بعد مقابلته للملك ونفسه ممتلئة بالرجاء والأمل بالخلاص ، ولم يستطع أن يكتم شعوره فكتب في الورقة الثانية التي كانت لديه رسالة الى الرشيد بن المعتمد يعلمه فيها بقرب عفو الملك عنه ونجاته من محنته . فوصلت الرسالة الى الأمير الرشيد وهو بصحبة وزيره عيسى بن ابي الحجاج .

فاطلع هذا الاخير على فحواها ، وسواء أكان ذلك بقصد أو بدون قصد ، فان عيسى أذاع الخبر حتى وصل الى آذان أبي بكر بن زيدون الوزير الاول للمعتمد وعدو ابن عمار اللدود (١) . وقد سبق أن تحدثنا عن عداوة هذين الوزيرين وبينا بعض أسبابها ، الا أنه يبدو أن هناك اسباباً خطيرة ، قد تكون اهم مما ذكرنا والتي دعت احد المؤرخين الى أن يشير اليها دون ذكرها قائلا إنه لا يريد ان يلوث كتابه بذكرها (٢) .

ويقولون إن ابا بكر بن زيدون كان في أشد القلق ، إذ أن العفو عن

---

(١) بنو عباد ، جـ ٢ ، ١١٨ .

1 - Mus Esp. T. 3, p. 116.

2 - Mus. Esp. T. 3. p. 116 .

ابن عمار يعني انحدار نجمه نحو الأفول ، بل وربما أكثر من ذلك ، حتى اذا كان صباح اليوم التالي لم ينطلق الى قصر الملك كما كان شأنه كل يوم ، فأرسل اليه المعتمد من يبحث عنه ويدعوه للمجيء ، حتى اذا دخل على الملك استقبله بترحاب طمأنه واعاد الى نفسه بعض السكينة . وعندما سأل المعتمد وزيره عن سبب تأخره ، أجابه بأن الجميع يتحدثون عن العفو عن ابن عمار وعودته الى حظوته السابقة لدى الملك ، حتى ان صديقه ابن أسلام الشلبي هيأ قصراً من قصوره ليسكنه ابن عمار بعد خروجه ريثما تعاد اليه املاكه .

فأخذ الغضب من المعتمد كل مأخذ لانتشار هذه الانباء القائمة على اساس واه ، وحنق على ابن عمار ، وارسل اليه احد عبيده يسأله كيف تيسر له نشر هذه الأخبار ، فأنكر ابن عمار اولا أنه فعل ذلك ، فلما سئل عما فعله بالورقة الثانية التي بقيت لديه ، ادعى انه استعملها مسودة لقصيدته ، وعندما طلبت منه اضطر الى الاعتراف بأنه كتب للرشيد بما قال له الملك .

مصرع ابن عمار

ويقولون إن المعتمد لم يستطع تمالك نفسه وضبط أعصابه فثارت ثائرته وتناول فأساً كانت قد قدمت هدية له من ألفونس السادس وانطلق الى سجن ابن عمار . وما كاد ابن عمار يرى الملك والشرر يتطاير من عينيه

حتى سحب ثيوده وألقى بنفسه على قدميه يخضلها بدموعه ويمسحها بقبلاته ولكن المعتمد لم يأبه لهذه التوسلات والدموع . بل رفع الفأس التي في يده وانهال بها على وزيره وصديقه القديم حتى فارق الحياة (١) .

دفنت جثة ابن عمار قرب قصر المبارك في محل يعرف بباب النخيل، حيث اكتشفت عظامه بعد عشرين سنة من ذلك كما يقول الفتح بن خاقان والأغلال لا تزال محيطة بها (٢) .

وهكذا كانت نهاية ابن عمار المغامر الجريء ذي الأصل المغمور والعائلة الفقيرة البائسة ، ابن عمار الطموح الاريب والسياسي البارع ، وأخيراً ابن الشاعر المشهور الذي اعتبره مؤرخو الأدب في عصره من خيرة الشعراء الذين قدمتهم اسبانية الاسلامية للأدب العربي ولم يجسر أحد على البكاء علناً عليه غير صديقه الشاعر عبدالجليل بن وهبون الذي رثاه ببيت واحد :

عجباً له أبكيه ملء مدامعي
وأقول لا شلت يمين القاتل

أحكام المؤرخين المسلمين على ابن عمار

لقد كانت أحكام مؤرخي الاندلس المسلمين على ابن عمار على وجه العموم قاسية ، فجلهم وصمه بالخيانة والغدر واتهمه بخدمة النصارى والنزغ

(١) الذخيرة ، ق٢ ، ف ابن عمار . بنو عباد ج٢ ، ص١١٩ .
1 - Mus. Esp. T. 3. p, 117 .
(٢) فلائد العقيان ، ص٨٦ . الذخيرة ، ق٢ ، ف ابن عمار .

على أعتاب الفونس فقد أشـــرنا إلى أن ابن خاقان قال عنه « إنه اصطفاه المدو فانفق به السكون والهدو ، وتهاك فيه كلاءً وعياماً وأمطره من الحظوة غماماً »(١) ثم يقول متحدثاً عن نهايته « فأخذه الله بغدره ، وأعان على وضعه رافع قدره (٢) » . وقد رد ابن سعيد فى المغرب (٣) ما قاله ابن خاقان ، وسبق أن سمعنا رأى عبد الله بن زيرى ملك غرناطة فيه ، ويرد ابن بسام كثيراً وصف ابن عمار بان « حب الرياسة في راسه يدور » ل وانه « قد تجاوز فى طمعه بالرياسة طمع أشعب » (٤) ، ومثل هذه الآراء تفهم من حديث ابن الأبار عنه (٥) ، ولم نر مؤرخاً دافع عنه ولام المعتمـــد على قتله سوى لسان الدين بن الخطيب في كتابه اعمال الاعلام .

ورغم هذا السخط الذى أبداه المؤرخون على ابن عمار فانهم جميعاً يعتبرونه شاعراً قديراً بل يعدونه في الطبقة الأولى من الشعراء الأندلسيين . لقد كان إنتاجه الادبى ينسجم تماماً مع ذوق الفترة التي عاش فيها والقرون التي تلتها ، فقد جمع كل ما كان معاصروه يتطلبونه من الشاعر . فقد قال عنه صاحب المعجب « ولم الف احداً ممن ادركته سني من أهل الآداب الذين أخذت عنهم ، إلا رأيته متقدماً ، مؤثراً لشعره (٦) » ، وقال عنه صاحب القلائد

---

(١) قلائد ص٨٦ .
(٢) نفس المصدر .
(٣) ابن سعيد ، المغرب ص٣٨٩ .
(٤) الذخيرة ق٢ ، ف ابن عمار .
(٥) الحلة السيراء ، ف ، ابن عمار .
(٦) المعجب ، ص١١١ .

إنه «كان مع نقض ابرامه ورفض إمامه شاعراً مطبوعاً، قد عمر للاحسان منازل وربوعا (١)» وقال عنه مؤلف كتاب الذخيرة «إن شعره غرب وشرق، واشأم في نغم الحداة وعلى ألسنة الرواة وأعرق، ولا جرم فانه كان ساحراً لا يجارى وشاعراً لا يبارى (٢)».

فاذا اعتبرنا الظروف التي أحاطت بالشاعر والوسط الذى عاش فيه والذى أوحى له افكاره وعلمه اسلوبه في التعبير، هذه الظروف وهذ الوسط الذى كون في الوقت نفسه ذوق أهل العصر وأوجد مقاييسهم الأدبية، اقول اذا أدركنا كل ذلك، استطعنا أن نعرف سبب الحظوة التي نالها ابن عمار الشاعر لدى معاصريه.

القيمة الادبية لشعر ابن عمار

لاشك في أن حكمنا على القيمة الأدبية لشعر ابن عمار فيه كثير من الذاتيه، لأن ادراكنا او عدم ادراكنا للصور الفنية التي يعرضها في شعره يعتمدان كثيراً على إدراكنا للتيارات العاطفية والفكرية التي تمثلت في هذه الصور ولا شك في ان الشاعر نفسه يأخذ بيدنا بقوة تعبيره لمعرفة هذه التيارات، ولكن بعدنا عن الشاعر وعن الاجواء المحيطة به قد يحدد ادراكنا للسبيل الذى سارت فيه عواطف الشاعر وافكاره فتخفى علينا جوانب من أدبه تؤثر في حكمنا عليه كل التأثير.

---

(١) قلائد العقيان، ص ٨٦.

(٢) الذخيرة، ق٢، ف ابن عمار.

وعلى ذلك فان حكمنا على ابن عمار الشاعر يجب ان تتوفر فيه أمور مهمة ، أولها أن نعرف العصر وذوقه ومقياس تقديره للقيمة الأدبية ، فان هذا الذوق يؤثر أكبر التأثير فى توجيه الشاعر وفي خلق مقاييسه الأدبية . وثانيها ، أن نعرف التيارات الخاصة التي اجتاحت حياة الشاعر نفسه ومدى تأثيرها فى إنتاجه الأدبى . وثالثها ، أن تكون لدينا كمية كافية من شعره تسمح لنا بتقدير قيمته . ورابعها أن نقدر مقدرة الشاعر على التعبير وقوته في صناعة النظم وصياغة الالفاظ في قوالب شعرية .

أما ذوق العصر فقد سبق أن أشرنا اليه إشارات كثيرة ، وذوق العصر هو الذى دفع ابن عمار الى معالجة الموضوعات التي عالجها ، كما دفعه الى العناية بالزخرفة اللفظية والمحسنات البيانية والبديعية ، كما أنه زوده بالأفكار والمقاييس الخلقية والاجتماعية والادبية التى تبدو واضحة فى جميع ثنايا شعره .

أما التيارات الخاصة التى أثرت فى حياة ابن عمار وفي تفكيره ومشاعره فقد حاولنا عرضها فى هذه الدراسة وبينا مدى تأثيرها فى الشاعر ورأينا كيف أنها دفعته احياناً الى الابداع واحياناً الى التكلف والتصنع والهبوط .

أما شعر الشاعر فلا شك ، أن مابين أيدينا منه ، كما يتضح من هذه الدراسة نفسها ليس الا جزء يسيراً من مجموع شعره . فهناك فترات طويلة من حياته لانعثر له فيها من الانتاج إلا على ابيات قليلة . ويبدو أن مؤرخي الأدب عنوا قبل كل شيء باختيار القطع التى كان لها صلة بالسلطان او

بالاحوال التأريخية السائدة آنذاك . وقد حاولنا لكي نسد هذا الفراغ أن نجمع كل ما وصل الينا من شعره ، في القسم الثاني من هذا الكتاب ، ولكننا لا نشك في أننا بعيدون جداً عن معرفته كله بل حتى ولا القسم الاكبر منه . ورب قائل يقول إن هذه المقطوعات الشعرية لا بد ان تكون أحسن ما قاله الشاعر لأنها اختيرت من قبل مؤرخي الادب . ولكن من يضمن أننا نتفق وإياهم في الذوق الأدبي ، لا سيما وأن المؤرخين الذين نقلوا الينا هذا الشعر عاشوا في فترات نستطيع أن نقول ، إن الذوق الادبي تدهور فيها واتجه الى العناية بالشكل دون المضمون الأدبي ، وإنهم كانوا يعنون على وجه الخصوص بالأدب الذي يخص الملوك ويتصل بهم من قريب ؟!

ومع هذه الصعوبات التي تعترضنا في الحكم على الشاعر فاننا نستطيع أن نثبت بعض الاحكام على قيمة ابن عمار الأدبية ، أهمها :

١ ـ كان ابن عمار متمكناً من صياغة القصيد وصناعة النظم ، قادراً على التعبير عن افكاره ومشاعره في أبيات متماسكة وقافية متينة واسلوب يجمع بين الشكل العربي والرقة الأندلسية .

٢ ـ كان متأثراً كل التأثير بذوق العصر الذي عاش فيه كما بينا سالفاً .

٣ ـ لم يكن ابن عمار يستخدم مقدرته على الصياغة الشعرية والنظم للتعبير عن مشاعره الحقيقية وعواطفه الخاصة دائماً ، وإنما كان مضطراً في اكثر الاحيان الى استخدامها في المناسبات التي تتطلب ذلك وكانت هذه المناسبات ، بالنظر لمركز الشاعر الاجتماعي والسياسي ، كثيرة متعددة ، لذا جاء

مثل هـذا الانتاج الأدبي رغم قوة صياغته متكلفاً خالياً من الحرارة والشعور الفياض الذين يتطلبهما الشعر الجيد .

ولكن عندما كان ابن عمار يتألم ويقلق وتفيض عواطفه ، كانت مقدرته على الصياغة الشعرية خير عون له على إنتاج أدب قيم فيه حرارة الاخلاص وقوة الشعور والتصوير ، وعلى ذلك فان هذا الجزء من إنتاجه الأدبي ، وهو الذي رأيناه عندما تضطرب العلاقات بينه وبين المعتمد او ما نظمه وهو في الأغلال والقيود ، أقول إن هذا الجزء من أدبه ذو قيمة أدبية لاتجحد : فيه روعة التصوير وقوة البناء وتدفق العواطف والمشاعر وهذا الجزء على قلته ، هو الذي يسمح لنا أن نضع ابن عمار في حضيرة الشعراء .

٥ ـ إن كان هذا رأينا في ابن عمار فان نقاد عصره والعصور التي تلته في الأندلس لا يوافقوننا عليه لأنهم يرون فيه شاعراً كبيراً لا في قصائده هذه التي أوحاها له القلق والألم والخوف ، وإنما في شعر المناسبات الذي نظمه ايضاً ، لانهم يرون فيه روعة النظم والتفنن في استعمال الألفاظ والتشبيهات وغير ذلك من محسنات البديع والبيان .

٦ ـ إننا نعتقد أن اكتشاف شعر ابن عمار كاملا او اكتشاف جزء كبير منه كفيل بأن يلقي أضواء جديدة على قيمته الادبية ويكشف النقاب عن جزء آخر من إنتاجه الرائع الذي يستحق كل عناية وتقدير

القسم الثاني

ديوان ابن عمّار

جمعه وضبط نصوصه

الدكتور صلاح خالص

ديوان ابن عمار

لدينا من المعلومات ما يشير الى أن ديوان ابن عمار كان كثير الانتشار في الاندلس بعد وفاته (١) . ولكن هذه المعلومات بالاضافة الى الظروف العصيبة التي أحاطت بموت الشاعر لاتسمح لنا بالقول بأن الشاعر قام بجمع ديوانه بنفسه قبل مصرعه . فقد أخذ أدباء آخرون على عاتقهم جمع ما تيسر لهم الحصول عليه من شعر ابن عمار ووضعه في كتاب خاص . وأول من وصلت الينا أخبارهم من هؤلاء الادباء هو أبو القاسم محمد بن يوسف الشلبي من معاصري ابن عمار وأهل بلدته . فقد كتب هذا المؤلف كتاباً خاصاً عن المعتمد بن عباد ويبدو أنه خصص قسماً مهماً من هذه الدراسة لابن عمار وأعماله وشعره ، فابن الأبار الذي كتب فصلا مهماً جداً عن حياة الشاعر وشعره في كتابه « الحلة السيراء » يقول إنه اعتمد في مانقله من أخبار عن الشاعر الوزير على كتاب ابي القاسم الشلبي هذا (٢) . ولكن عدا مانقله ابن الأبار فاننا لا نعلم شيئاً عن هذا الكتاب .

وبعد مرور ما يقرب من عشرين عاماً على مصرع الشاعر ، اهتم المؤرخ الاندلسي المعروف ابن بسام به ، ونعرف أنه كتب في أخباره وشعره كتاباً سماه « نخبة الاختيار في أشعار ذي الوزارتين ابن عمار (٣) » . ويبدو أن

(١) المعجب ، ص١١١ .
(٢) الحلة السيراء ، ف ابن عمار .
(٣) الذخيرة ، ق٢ ، ف ابن وهبون .

هذا الكتاب لم يقتصر على اشعار ابن عمار فحسب وانما حوى قسماً من أخباره . ولكن كتاب ابن بسام هذا مع الأسف لم يصل الى ايدينا هو ايضاً . الا أنه وصلنا كتابه « الذخيرة فى محاسن اهل الجزيرة » الذى وقف فصلا مهماً منه على اشعار الشاعر واخباره (١) سنتحدث عن أهميته. وبعد ابن بسام بقليل جاء الاديب الفتح بن خاقان فخصص هو أيضاً فصلا من كتابه « قلائد العقيان » للشاعر فذكر منتخبات من شعره وطائفة من أخباره .

ولا بد أن نضم الى هذه المصادر الرئيسة عن ابن عمار أهم مؤلف عن شعره ، وهو كتاب ابى الطاهر محمد بن يوسف التميمي . فقد بذل هـذا الكاتب جهده في جمع قصائد الشاعر ومقطوعاته وأبياته باحثاً عنها ، كما يقول ابن الأبار ، فى مظانها (٢) .

ويبدو أن الوريقات الأربع عشرة المزقة التي استخرجت من أنقاض مكتبه جامع القرويين هى كل ما نعرفه من بقايا هذا الكتاب .

نعتقد أن هذه هي المصادر الرئيسة لشعر ابن عمار الذى اعتمد عليها المؤرخون الذين جاءوا بعد ذلك . وبما أنها لم تصل كلهـا الى أيدينا ، لذا كانت المؤلفات التي كتبت بعد ذلك معتمدة على هـذه المصادر ذات اهمية كبيرة لنا ، ولا سيما كتاب الحلة السيراء الذى اعتمد فيه مؤلفه عند كتابته عن ابن عمار على كتب ابى القاسـم الشلبى وابن بسام وابى الطاهر التميمى . ولذلك فقد اعتمدنا حين جمعنا لشعر الشاعر على جميع ماتيسر لنا من مصادر

---

(١) الذخيرة ق٢ ، ف ابن عمار .

(٢) الحلة السيراء ، ف ابن عمار .

سواء كانت متقدمة أم متأخرة ، وها نحن نحاول استعراض اهمها مع بيان قيمتها .

* * *

إن من المؤسف أن يكون القسم الاكبر من هذه المصادر لم يطبع وينشر بعد ، لذا فقد كان لابد لجمع هذه المجموعة الشعرية من الرجوع الى المخطوطات المنتشرة في مختلف مكاتب العالم وقد كانت اهم المكتبات التي رجعنا اليها ، هي المكتبة الوطنية في باريس حيث يوجد الجزء الحادي عشر من مخطوط « خريدة القصر وجريدة أهل العصر » للعماد الاصبهاني ، ومكتبة المتحف البريطاني في لندن التي تحتوي على مخطوط « المطرب من أشعار أهل المغرب » لابن دحيه الكلبي ، ومكتبة جامعة اكسفورد حيث توجد نسخة من كتاب « الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة » لابن بسام ، والمكتبة الوطنية في مدريد حيث كتاب « الحلة السيراء » لابن الأبار ، وخزانه الأسكوريال في إسبانيا المحتوية على نصوص أدبية أندلسية قيمة جمعها ابن سيد الناس اليعمري ، وعلى مخطوط « السحر والشعر » للسان الدين بن الخطيب ، ومكتبة الرباط العامة حيث توجد نسخة أخرى من كتاب الذخيرة لابن بسام ، ومكتبة جامع القرويين في فاس حيث توجد الوريقات الممزقة المتبقية من ديوان ابن عمار . هذا بالاضافة الى قسم من المكتبات الشخصية ، كمكتبة العباس بن ابراهيم قاضي مراكش الحالي حيث توجد نسخة جيدة من القسم الثاني من الذخيرة ، ومكتبة الاستاذ

عبد الله گنون في طنجه حيث توجد نسخة فوتوغرافية من كتاب « الحماسة المغربية » لابى العباس الجراوي مأخوذة عن نسخة أصيلة في الاستانة .

وبعد مراجعتنا لهذه المخطوطات المهمة وكثير غيرها مما هو اقل أهمية منها ، عدنا الى الكتب المطبوعة ككتاب المعجب لعبدالواحد المراكشي ، وكتاب قلائد العقيان لابن خاقان ، ونفح الطيب للمقرى ، وأعمال الاعلام لابن الخطيب وغير ذلك مما هو مذكور فى مصادر البحث ، ونتيجة لذلك كله استطعنا جمع هذا المجموع من شعر ابن عمار . ورغم أن ما جمعناه بعيد جداً من أن يكون كل شعر ابن عمار بل حتى ولا أكثره فانه يسمح لنا بمتابعة تطور ابن عمار الشعرى منذ لقائه ببني عباد حتى مصرعه أما إنتاجه قبل هذا اللقاء فليس لدينا منه شي فقد أحرقه الشاعر بنفسه (١) . ويبدو أنه لا قيمة هذا الشعر الفنية ولا مركز ابن عمار المتواضع في تلك الفترة دفعت مؤرخى الادب الى الاحتفاظ به ونقله الينا . ولدينا مما نظمه في حكم المعتضد بضع قصائد طويلة . اما ما نظمه فى حكم المعتمد فليس لدينا منه سوى مقطوعات قصيرة نظمت فى مناسبات مختلفة ، لا نعتقد أنها ذات قيمة أدبية كبيرة . ولكن أحسن ما لدينا من شعر ابن عمار هو ما نظمه فى الفترة الأخيرة من حياته أى بعد تركه لاشبيلية ، ولا سيما اثناء مقامه في السجن ، إذ أننا وجدنا فى هذه الفترة قصائد طويلة جيدة جديرة بكل اهتمام وتقدير .

---

(١) الحلة السيراء ، ف . ابن عمار .

وقد حاولنا جهدنا أن نرتب ما عثرنا عليه من شعر ابن عمار حسب تأريخ نظمه ، ولم تكن هذه المحاولة ناجحة دائماً لا سيما فيما يتعلق بالمقطوعات القصيرة التي نظمت في اشبيلية اثناء حكم المعتمد ، إذ أننا لم نقع على اية اشارة تدل على تأريخ انتاجها ، كما أنه ليس فيها ما يدل على ذلك . ومع هذا فاننا وضعناها في الفترة التي نظمت فيها بحيث لا تؤثر على تتبع تطور إنتاج الشاعر الأدبي والعاطفي . وقد اخترنا الترتيب التأريخي للقصائد دون الترتيب حسب حروف الهجاء او حسب الابواب ، لأن الترتيب التأريخي وحده هو الذي يساعدنا على تتبع التطور النفسي والعاطفي والفكري للشاعر من فترة لأخرى من تاريخ حياته حتى نهايته ، كما يعطينا صورة واضحة لتطور صناعته اي مقدرته على الصياغة الشعرية ، وكل ذلك يسهم إسهاماً كبيراً في فهم الشاعر وفهم أدبه وتذوقه .

إن المصادر التي اعتمدنا عليها في جمع شعر ابن عمار تختلف من حيث أهميتها ومن حيث نوعيه وكمية المعلومات التي تقدمها لنا وسنحاول أن نستعرض بسرعة أهم هذه المصادر ولا سيما المخطوطة منها موضحين قيمتها .

١ - ديوان ابن عمار

يوجد في خزانة جامع القرويين في فاس أربع عشرة ورقة ، (مسجلة تحت رقم واحد في الكتب المكتشفة حديثاً في هذه المكتبة) ، وهذه الوريقات التي يبدو أنها الاثر الوحيد المتبقي من ديوان الشاعر تحتوي على

عدد من القصائد والمقطوعات الشعرية مكتوبة بالخط الاندلسي ومرتبة على حروف الهجاء، ولكنها ممزقة ومخرمة بسبب الحشرات والرطوبة بشكل يصعب معه قراءتها والاستفادة منها، وكانت هذه الوريقات قد استخرجت مع كثير غيرها من أنقاض خزانة مهدمة في الجامع. ومع اننا لم نستطع بسبب ذلك استخراج قصائد كاملة منهـا، فانها ساعدتنا مـع ذلك على تصحيح قسم من النصوص التي عثرنا عليها في المصادر الاخرى واكمالها، كما تمكننا من استخلاص بعض المقطوعات منها ايضاً.

ونحن لا نستطيع أن نعين بشكل قاطع جامع ديوان ابن عمار هذا الذى وجدنا منه هذه الوريقات في فاس. ولكن بما أن القصائد مرتبة حسب الوافي، فمن المحتمل جداً أن يكون هو الديوان الذى جمعه ابو الطاهر التميمي والذى أشرنا اليه سابقاً ومن جهة اخرى فان مقارنة قصائد ابن عمار الواردة في الذخيرة لابن بسام مع المقطوعات المماثلة لها الواردة في هذه الوريقات تقلل لحد كبير احتمال كونها من كتاب ابن بسام عن ابن عمار والمسمى «نخبة الاختيار في اشعار ذى الوزارتين ابن عمار» المشار اليه سابقاً، كما زعم مصنفو فهرست مخطوطات جامع القرويين. بل اننا لنجد مقطوعات في الذخيرة تحتوى على أبيات لا تتضمنها مقطوعات مخطوطة القرويين.

٣ـ ابن الابار، الحلة السيراء

وهذا الكتاب القيم لم يطبع كاملا بعد، وإن كان بعض المستشرقين ولا سيما دوزى قد نشر قسماً منه، وهو القسم الذى يخص الأدب الاندلسي.

وقد طبع القسم الذى يخص ابن عمار منه فى الكتاب الذى جمع فيه دوزى كل ما عثر عليه حول بني عباد والمسمى Scriptorum Arabum Loci de Abbadides

وقد رجعنا الى هذا الفصل . واعتمدنا على وجه الخصوص على مخطوط كتاب « الحلة السيراء » الموجود في المكتبة الوطنية في مدريد برقم ١٢ .

وربما كانت دراسة ابن الأبار هذه عن ابن عمار احسن الدراسات القديمة التي كتبت حول الشاعر ، فقد اعتمد المؤلف فى الواقع على مصادر وثيقة أشرنا الى انها تعتبر المصادر الرئيسة الأولى عنه ، ككتاب ابن بسام حول ابن عمار وديوان شعر الشاعر الذى جمعه ابو الطاهر التميمي ، وما كتبه ابو القاسم الشلبي معاصر ابن عمار حول الشاعر . وأهم المعلومات التي يقدمها لنا تتعلق بحملات ابن عمار على مرسيه وإقامته في سرقسطة قبيل سجنه ووقوعه بين يدى المعتمد ، وفي الفصل الذى خصصه ابن الأبار لابن طاهر ترد بعض الأخبار عن ابن عمار وعلاقته بهذا الامير .

٣ـ ابو علي بن بسام ، الذخيرة فى محاسن اهل الجزيرة

يحتوى القسم الثانى من هذا الكتاب وهو المخصص لشعراء اشبيلية وغرب الاندلس على فصل طويل وقفه الكاتب على ابن عمار . ومن المؤسف ان يكون هذا القسم من الكتاب غير مطبوع كاملا بعد ، فقد طبع القسم الاول فقط في مصر طبعة جيدة ، وهو المخصص لشعراء قرطبة وما حولها ، فى جزءين ، كما

طبع الجزء الاول من القسم الرابع فقط ، ولا زالت الاقسام الاخرى ، اى القسم الثانى الذى نتحدث عنه والقسم الثالث المخصص لشعراء شرق الاندلس ، ويقع كل منها في جزأين ايضاً إذا طبعا بالحجم نفسه الذى طبع به القسم الاول ، والجزء الثانى من القسم الرابع . مخطوطة ومبعثرة في المكتبات . لذلك فقد اضطررنا الى الاعتماد على المخطوطات الموجودة من هذا الكتاب .

وأولى هذه النسخ التي اعتمدنا عليها (اى القسم الثاني من الذخيرة) نسخة مكتبة جامعة اوكسفورد ، وثانيتها نسخة مكتبة الرباط العامة المرقمة ١٣٤٢ . وثالثتها نسخة مكتبة الآثار فى بغداد ، كما يوجد في جامع القرويين في فاس قسماً من هذا المخطوط يتضمن جزء من فصل ابن عمار .

اما مخطوطة اكسفورد التي لدينا صورتها فرغم إنها واضحة الكتابة فان فيها اخطاء فى النسخ وفراغات تقلل قيمتها . عكس مخطوطة الرباط التي مع وضوح خطها الاندلسي ، تتضمن مزايا أخرى ، إذ يبدو انها روجعت بعناية كبيرة بل إن عدداً من نصوصها ، ولا سيما الواردة فى فصل ابن عمار ، قورنت بروايات اخرى وسجلت الخلافات فى حاشية الكتاب ، او سجلت بعض الابيات الناقصة في رواية ابن بسام . لذا فقد كان اعتمادنا على هذه النسخة كبيراً جداً ، فهي في الواقع تستحق كل الاهتمام ولا سيما اذا اتجهت النية الى طبع هذا الكتاب .

وقيمة كتاب « الذخيرة » مرجعها سببان رئيسان . الأول هو ان ابن بسام مؤلفه كتب كتابه عام ٥٠٠ هـ (١١٠٧)(١) ، اى بعد ثلاثة

---

(١) الذخيرة ، ق٢ ، ف ، ابو بكر بن الملح .

وعشرين عاماً من وفاة ابن عمار . اذن فقد استطاع الكاتب أن يجمع اخبار الشاعر ويروى قصائده نقلا عن اشخاص عاصروا الشاعر وعرفوه . والسبب الثانى هو أن ابن بسام قد وجه اهتماماً خاصاً لابن عمار ووقف كما ذكرنا كتاباً خاصاً عليه .

لهذه الاسباب اعتمدنا على كتاب ابن بسام اعتماداً كبير كما اعتمد عليه جميع الكتاب الذين جاء وابعده عند حديثهم عن ابن عمار . فقسم مهم من النصوص التي جمعناها وصلتنا عن طريق ابن بسام هذا .

٤ـ ابن دحية الكلبي ، المطرب في اشعار اهل المغرب

والنسخة الاصيلة الوحيدة المعروفة من هذا الكتاب هي الموجودة فى المتحف البريطانى في لندن برقم ١٦٣١ . كما توجد نسخ مصورة منه فى دار الكتب المصرية وفى كلية الآداب والعلوم ببغداد وفي معهد الدراسات المغربية العليا فى الرباط . وقد صورنا المخطوط الاصيل واعتمدنا عليه فيما نقلناه عن هذا الكتاب . ومخطوط لندن هذامكتوب بخط شرقى واضح ، عدا قسماً من الصفحات التى اثرت فى سطورها الاولى الرطوبة فجعلتها عسيرة القراءة . وقد مر مؤلف الكتاب مسرعاً على ادباء الاندلس وخص ابن عمار بقسم صغير من كتابه ، إلا انه مع ذلك زودنا بأبيات لم نعثر عليها عند غيره ، كما ساعدنا على ضبط نصوص اخرى وردت عنده وعند غيره من المؤلفين .

٥ـ ابن سيد الناس اليعمري (نصوص أدبية أندلسية)

ولا نعرف من هـذا الكتاب سوى نسخة فريدة في مكتبة الاسكوريال في إسبانيا برقم ٤٨٨ اطلعنا عليها واخذنا لها صورة فوتوغرافية . ومؤلف هذا الكتاب محمد بن عبد الله بن عبد العزيز بن سيد الناس اليعمري الذي عاش في القرن السادس الهجري وقد قرأ الجامع نصوصه هذه على استاذه النحوي المعروف ابي علي الشلوبين فاجازه بروايتها . والكتاب يحتوي على نصوص في موضوعات مختلفة لأدباء مختلفين . ولكنها كلها تقريباً ترجع الى النصف الثاني من القرن الخامس وتتضمن رسائل تأريخية قيمة جداً وقطعاً ادبية نثرية وشعرية تعكس ذوق الفترة التي عاش فيها الكاتب ، وقصائد شهيرة من الأدب الاندلسي يندر وجود اكثرها في غير هذا المخطوط بينها بضع قصائد لابن عمار . ولهذا المخطوط اهمية كبيرة جداً في دراستنا ، لأنه زودنا باهم قصيدتين لابن عمار بصيغتيها الكاملتين تقريباً ، ونعني بها الرائية وهي اول قصيدة مدح بها المعتضد وتتكون من خمسة واربعين بيتاً (١) ، والميمية التي ارسلها للمعتمد من سرقسطة وهي في ثلاثة وتسعين بيتاً (٢) ، كما زودنا عدا ذلك ببعض مقطوعات اخرى كانت ذات اهمية في إعداد هذه النصوص .

(١) ديوان ، ص ١ .
(٢) ديوان ، ص ٩ .

٦ـ عماد الدين الاصبهاني (ابو عبد الله بن محمد) خريدة القصر وجريدة اهل العصر

لقد وقف الكاتب الجزءين الحادى عشر والثانى عشر لأدباء صقلية والأندلس والمغرب . ويحتوى الجزء الحادى عشر على فصل مهم عن ابن عمار يتضمن منتخبات شعرية من إنتاجه الادبى . ولا شك ان اهمية هـذا الكتاب تعود الى ان مؤلفه المشرق قد اعتمد على مصادر أندلسية لم تصل الى ايدينا . وقد اعتمدنا هنا على المخطوطة الموجودة فى المكتبة الوطنية فى باريس برقم ٣٣٣٠ . ورغم ان هذا الجزء قد كتب بخط مشرق واضح الا انه ملىء بالأخطاء وبالفراغات الناتجة دون ريب عن سوء النسخ والتي قللت كثيراً من اهميته . ومع ذلك فلا يستطيع الباحث فى موضوع ابن عمار وشعره الاستغناء عنه .

٧ـ ابو العباس الجراوي ، الحماسة المغربية

هذا الكتاب مجموع من الشعر سلك فيه مؤلفه مسلك مؤلفي الحماسات كأبى تمام والبحترى وابى الفرج البصرى وابن الشجرى ، فجمع فيه نخبة مما استحسنه من الشعر العربى . وقد اطلق المؤلف ابو العباس احمد بن عبد السلام الجراوى المغربى (٣) ، على كتابه هذا اسم « مختصر كتاب صفوة الادب ومختصر ديوان العرب »، ولكنه عرف فى الاوساط الأدبية باسم «الحماسة

(٣ـ عبد الله كنون ، ابو العباس الجراوي .

المغربية » كما ذكرنا هنا . ويتميز هذا الكتاب عن غيره من كتب الحماسة بأنه يحتوى على منتخبات من شعر ادباء الأندلس والمغرب ومنهم ابن عمار . والمخطوطة الوحيدة التى علمنا بوجودها هي تلك التى فى الاستانة والتى عثرنا على نسخة مصورة منها لدى الأديب الفاضل الاستاذ عبد الله كنون فى طنجة اعتمدنا عليها فيما نقلناه من شعر ابن عمار .

* * * *

وعدا هذه المصادر واخرى غيرها ، اقل اهمية منها لم يطبع وينشر حتى الآن ، فاننا اعتمدنا على عدد من الكتب المطبوعة كان لها اهمية كبيرة فى انجازنا لهذا العمل .

فكتاب قلائد العقيان للفتح بن خاقان يعتبر كما قلنا مصدراً رئيساً لأن مؤلفه كتبه فى مطلع القرن السادس بعد مصرع ابن عمار بزمن غير بعيد . وقد طبع هذا الكتاب طبعتين الاولى فى القاهرة عام ١٢٨٣ للهجرة ، والثانية فى باريس عام ١٨٦٠ للميلاد ، فاعتمدنا فى عملنا هذا على الطبعتين ، والواقع ان الطبعة الاولى رديئة حافلة بالأغلاط . وأما الطبعة الثانية فرغم انها خير من سابقتها فان ندرتها تجعل اعادة طبع هذا الكتاب ضرورة لابد منها .

وكتاب المعجب لعبد الواحد المراكشي الذى طبع طبعة ثانية محققة جيدة فى القاهرة عام ١٩٤٩ من قبل العلمى والعريان ، كان هو ايضاً مصدراً مهماً عن ابن عمار ولا سيما عن حياته . ويبدو ان الكاتب كتب هذا الكتاب فى القرن السابع الهجرى وهو فى المشرق معتمداً على ذاكرته

وما كان سمعه من حكايات ، لذا تلفت النظر فيه الناحية القصصية التى قللت من قيمته التأريخية كما نعتقد ، ومع ذلك فقد كانت فائدة هذا الكتاب كبيرة فى ضبط قسم من ابيات ابن عمار وفى الحصول عن معلومات قيمة تتعلق بحياته .

وعدا ذلك فقد كان لكتاب المقرى الشهير « نفح الطيب فى غصن الاندلس الرطيب » فوائد لا تجحد رغم تأخره ، فكان للمنتخبات الشعرية التى ذكرها اهمية فى ضبط بعض النصوص ، رغم ان جل ما اتى به لابن عمار كان مذكوراً لدى غيره من المؤلفين الذين مر ذكرهم .

اما الكتب الاخرى الكثيرة التى تتضمنها مصادر البحث فانها لم تزودنا على وجه العموم بجديد لأنها اعتمدت على ما ذكرناه من كتب ، او انها لم تقدم لنا سوى مقطوعات صغيرة ، ولكنها بمجموعها كانت لازمة جداً لضبط كثير من النصوص .

المختصرات المستعملة في الحواشي

ج : جزء

ح : الحلة السيراء لابن الأبار

خ : خريدة القصر لعمادالدين الاصفهانى

ذ : الذخيرة فى محاسن اهلي الجزيرة لابن بسام

ص : صفحة

ع : Scriptorum arabum loci de Abbadides, de Dozy

ق : قلائد العقيان للفتح بن خاقان

قس : قسم

م : مخطوط

م٤٨٨ : مخطوط الاسكوريال رقم ٤٨٨

مط : المطرب لابن دحية الكلبي

مع : المعجب لعبد الواحد المراكشي

ن : نفح الطيب للمقرى

و : ورقة

-١-

قال ابو بكر محمد بن عمار يمدح المعتضد في أول لقـــاء له معه * :

(الكامل)

أدر الزجاجة فالنسيم قد انبرى
والنجم قد صرف العنان عن السرى
والصبح قد أهدى لنا كافوره
لما استرد الليل منـــا العنبرا
والروض كالحسنا كساه زهره
وشياً وقلده نداه جوهرا
أو كالغلام زها بورد رياضه
خجلا وتـــاه بآسهن معذرا
روض كأن النهر فيه معصم
صاف أطل على رداء أخضرا
وتهزه ريح الصبا وفتخاله
سيف ابن عباد يبدد عسكرا

---

* رويت هذه القصيدة كاملة عدا بيتاً واحداً في م٤٨٨ و ١٠٠ ، وفي ق ص ٩٩ ستة ابيات ، في ج ١١ و ١٦٤ اربعة وعشرين بيتاً ، في ن ج ٢ ص ١٧٧ ستة وثلاثين بيتاً ، وفي ذ ق س ٢ ، فصل ابن عمار تسعة وعشرين بيتاً ، وفي مط بضعة ابيات

١ - في م ٤٨٨ أدر الزجاجة : أدر المدامة ن

٢ - في م ٤٨٨ كالحسناء البس .

(٦) في ذ ، فتظنه بدل : فتخاله

الحاجب المنصور سيف الدولة ا (٧)
معطي ..... من الحباء الاكبرا

علق الزمان الأخضر المهدى لنا
من ماله العلق النفيس الاخطرا

ملك اذا ازدحم الملوك بمورد
ونحاه لايردون حتى يصدرا

أندى على الاكبادمن قطر الندى
وألذ فى الاجفان من سنة الكرى

قداح زند المجد لاينفك من
نار الوغى الا الى نار القرى

تختار إذ يهب الخريدة كاعباً
والطرف أجرد والحسام مجوهرا

أيقنت أنى من ذراه بجنة
لما سقانى من نداه الكوثرا

وعلمت حقاً أن روضي مخصب
لما سألت به الغمام الممطرا

ياسائلي ما حمص إلاخاتم
أبصرت اسماعيل فيه خنصرا

---

(٧) كذا فى ق وهو الصحيح
(١٢) فى خ إن ، بدل إذ

من لاتوازنه الجبال اذا احتبى
من لاتسابقه الرياح اذا جرى

ماض وصدر الرمح يكبم والظبا
تنبو وأيدى الخيل تعثر في البرى

لاشيء أقرأ من شفار حسامه
إن كنت شبهت الكتائب أسطرا

قاد الموا كب كالكوا كب فوقهم
من لامهم مثل السحاب كنهورا

من كل أبيض قد تقلد أبيضاً ٢٠
عضباً وأسمر قد تقلد أسمرا

لله مرسلة بآفاق العدى
برقاً تصوب عارضاً مثعنجرا

عباد المخضر نائل كفه
والجو قد لبس الرداء الأغبرا

ملك يروقك خلقه أوخلقه
كالروض يحسن منظراً اومخبرا

أعلمت بالايمان حتى شمته
فرأيته فى بردتيه مصورا

---

(١٨) في ن ، لاخلق بدل: لاشيء ‖ الموا كب بدل: الكتائب
(١٩) في ن ، قاد الكتائب ، وفي خ ، اذا الكتائب

وجهلت معنى الجود حتى زرته
فقرأته في راحتيه مفسرا

فاح الثرى متعطراً بثنائه
حتى حسبنا كل ترب عنبرا

وتتوجت بالزهر سلع هضابه
حتى حسبنا كل هضب قيصرا

هصرت يدى غصن الغنى من دوحه
وجنت به روض السرور منورا

حسبي على الصنع الذى أولاه أن
أسعى بشكر أو أموت فأعذرا

يا أيها الملك الذى أصل المنى
منه بوجه مثل حمدى ازهرا

السيف افصح من زياد خطبة
فى الحرب إن كانت يمينك منبرا

مازلت تغني من غدالك راجياً
نيلا وتغنى من طغى وتجبرا

---

(٢٤) الشطر الاول في ق ، ن : اقسمت باسم الفضل حتى ثمته » ، وفي مط : وسمت باسم الفطر حتى ثمته »

(٢٧) في ن ، ق : ظننا ، بدل : حسبنا

(٣٢) في ق ، عنا ، بدل : طغى

حتى حللت من الرياسة محجرا
رحباً وضمت منك طرفاً أحورا

شقيت بسيفك أمـــة لم تعتقد
الا اليهود وإن تسمت بربرا

أثمرت رمحك من رؤوس كمأتهم
لما رأيت الغصن يمشق مثمرا

وصبغت درعك من دماء ملوكهم
لما علمت الحسن يلبس أحمرا

واليك يامنصور قادت همتي
بزمامها جرد المذاكي الضمرا

مدت سنابكها الغوادح للصفا
مرطاً على متن الظلام معصفرا

يجعلن قبلتك البهية قبـــلة
ويردن ساحتك البهية مشعرا

خذها اليك وروضها لك ناظر
أســقيته مـــاء النعيم فنورا

نمقتها وشيا بذكرك مذهباً
وفتقتهـــا مسكاً بحمدك أذفرا

---

(٣٦) في مط كلومهم ، بدل ملوكهم

من ذا يناغني وذكرك مندل
اوردته من نار فكرى مجمرا

ولئن وجدت نسيم حمدى عاطرا
فلقد وجدت نسيم برك أعطرا

وهناك عيد النحر لازالت به
حرم الأعادى كي تطوف فتنحرا

٤٥ واليكها كالروض زارته الصبا
وحنا عليه الطل حتى نورا

---

(٤٢) في ق ، صندل ، بدل : مندل
(٤٣) في ق ، ن ، فلئن ، بدل : ولئن

- ٢ -

قال الفتح بن خاقان في قلائد العقيان (١) :

« ولما ضيق المعتضد بالله على ابن عبدالله بقرمونه ، وسد مسالكه ، وسدد اليه مهالكه ، استدعى باديس بن حبوس ، واستصرخه استصراخ المرتق المحبوس ، رجاء ان ينفس عنه غصه ، وينتهز فى ابن عباد فرصة ، فلما وصل باديس بن حبوس الى قرمونة ، اخرج اليه المعتضد جيشه يقدمه ابنه الظافر ، ويقود منه اسوداً فى المغافر ، فلما التقى الجمعان ، وارتقى ثنيه بغيه المعين والمعان ، حمل فيهم عسكر اشبيلية حملة خلتهم عن مركزهم ، وادالتهم بالذل من تعززهم ، فتفرقوا فى تلك البسائط والربى ، وشربوا سقياً الاسنة والظبا ، واوقع بهم الظافر احسن ايقاع ، وتركهم مضرجين في تلك البقاع ، وانصرف الى اشبيلية والويته مختالة فى اكف الرياح ، وذوابله تكاد تنقصف من الارتياح ، فهنىء المعتضد بذلك وقام ابن عمار ينشد هنالك ! (٢) »

الا المعالي ما تميد وما تبدى
وفي الله ما تخفيه عنا وما تبدى

نوال كما اخضر العذار وفتكة
كما خجلت من دونه صفحة الخد

---

(١) ق ٢ ص ٩٠
(٢) في ثلاثة عشر بيتاً

جنيت ثمار النصر طيبة الجنى
ولا شجر غير المثقفة الملد
وقلدت أجياد الربى رائق الحلى
ولا درر غير المطهمة الجرد
بكل فتى عارى الأشاجع لابس
الى غمرات الموت محكمة السرد
يكر فكم طعن كسامعة الفرا
يضاف الى ضرب كحاشية البرد
نجوم سماء الحرب إن يدج ليلها
يدور بهم أفواجها فلك السعد
خميس تردى من بنيك بمرهف
حكاك كما قد الشراك من الجلد
بهدر ولكن من مطالعه الوغى
وليث ولكن من براثنه الهندى
فتى ثقف بين الحمائل مقدم
جنى الموت من كفيه أحلى من الشهد
سقيت بـه ديناً عفاتك مخصباً
فأجناك من روض الندى زهر الحمد
وجندته نحو الملوك محارباً
فوافاك يقتاد الملوك من الجند

ورب ظلام سارفيه الى الهدى
ولا نجم الا ما تطلع من غمد

اطل على قرمونة متبلجـــاً
مع الصبح حتى قيل كانا على وعد

فأرملها بالسيف ثم أعارهـــا
من النار اثواب الحداد على الفقد

فيا حسن ذاك السيف في راحة الندى
ويا برد تلك النار في كبد المجد

لك الله إن كانت عداتك بعضها
لبعض فكل منهم جميعاً الى فرد

يهوداً وكانت بربراً فانتض الظبي
وأنبئهم منهـــا بالسنة لـــد

اقول وقد نادى ابن اسحاق قومه
لأرضك يرتاد المنية من بعد

لقد سلكت نهج السبيل الى الردى
ظباء دنت من غابة الاسد الورد

كأني ببادیس وقد حط رحله
الى الفرس الطاوى عن الفرس النهد

---

(١٣) في خ ، حتى قلت ، بدل : حتى قيل
(١٦) في خ ، في راحه الهدى بدل : في راحه الندى .

الى الفرس الجارى به طلق الردى
سريعاً غنياً عن لجام وعن لبد

يحن الى غرناطة فوق متنه
كما حن مقصوص الجناح الى الورد

ظفرت بهم فارنح وأومض كؤسها
بروقاً لها من عودها ضجة الرعد

٢٥ معتقة أهـــدت الى الورد لونها
وجادت برياها على العنـــبر الورد

فما كثر مايلهيك عن كأسها الوغى
وعن نغمات العود نغمة مستجدى

وما الملك الا حلية بك حسنها
والا فما فضل السوار بلا زند

ولا عجب ان لم يدن بك مارق
فليس جمال الشمس في الاعين الرمد

هنيئاً بيكر في الفتوح نكحتها
وما قبضت غير المنية فى النقد

٣٠ تحلت من السيف الخضيب بصفحة
وقامت من الرمح الطويل على قـــد

(٢٦) في خ ، كأسك ، بدل : كأسها .

ودونكها من نسج فكري حلة
مطرزة العطفين بالشكر والحمد

ألذ من الماء القراح على الصدى
واطيب من وصل الهوى عقب الصد

وما هـذه الاشعار الا مجامر
تضوع فيها للندى قطع النـد

وكنت نشرت الفضل في وانما
نشرت سقيط الطل في ورق الورد

٣٥ وها أنا باغ من نداك بقدرما
يضاف لتأميلي ويعزى الى ودى

فأقسم لو قسمت جودك في الورى
على قدر التأميل فزت به وحدى

قنعت بما عندى من النعم التي
يفسرها قولي قنعت بما عندى

---

(٣٢) في ق ، العذب القراح ، بدل : الماء .
(٣٦) في ق ، بيننا ، بدل في الورى .

- ٣ -

وقال يمدح المعتضد * :

(المتقارب)

وفيت لربك فيمن غدر ... وانصفت دينك ممن كفر

وقمت تطالب في الناكثيـ (م) ... ـن مر الحفاظ بحلو الظفر

بعاطلة من ليالي الحرو (م) ... ـب اطلعت رأيك فيها قمر

ولم تتقدم بجيش الرجا (م) ... ـل حتى تقدم جيش الفكر

فان يجنك الفتح ذاك الاصيـ (م) ... ـل فمن غرس تدبير ذاك الشجر

تعالى الخوارج حتى برز (م) ... ـت تقوم من خدها ماصعر

واقبلتها الخيل حمر البنو (م) ... ـد دهم الفوارس بيض الغرر

فكروا فلم يغنهم من مكر (م) ... ـروفروا فلم ينجهم من مفر

ودارت دماؤهم كالكؤو ... ـس وفاحت نفوسهم كالزهر

فعاقر سيفك حتى انحني ... وعربد رمحك حتى انكسر

وكم نبت في حربهم عن علي (م) ... ـى وناب عن النهروان النهر

تمتع فقد ساعفتك الحيا (م) ... ـة بريح الحديقة غب المطر

وعش في نعيم ودم في سرو (م) ... ـر ولا سر ربك من لايسر

---

* : روبت هذه القصيدة في ق ص ١٠٠ ، و ٧ ابيات منها في خ ج ١١ و ١٦٧

- ٤ -

وقال يخاطب المعتضد * :

(الكامل)

الكأس ظامية الى يمناكا
والروض مرتاح الى لقياكا

والدهر جار في عنانك لم تقل
هات المنى إلا أجاب بهاكا

فأدر بآفاق السرور كواكباً
تخذت أكف سقاتها أفلاكا

راحاً اذا هب النسيم حسبتها
مسروقة الانفاس من رياكا

في مجلس بسط الربيع بساطه
زهراً ورقرقه عليك أراكا

سقط الندى فيه سقوط نداكا
وجلت عليه الشمس مثل سناكا

روض تفتح زهره فكأنه
مقل العذارى حدقت لتراكا

---

* وردت ٥ ابيات في خ جـ ١١ و١٦٧ و ٩ ابيات في ذ

يسرى على ريحانه نفس الصبا
سحراً فيوهم انـــه ذكراكا

رد مورد اللذات عـذبا صافياً
فلقد وردت المجد قبل كذاكا

لم ترو من راح ولا من راحة
حتى ارتوت بدم العداة قناكا

-٥-

ومضى عند المعتضد عباد ليلة ابو الوليد بن زيدون وابو بكر بن عمار ، فقال المعتضد :

أتاك الليل معتكراً

فقال ابن زيدون : يناهبه سنى البدر

فقال ابن عمار :

دع الساعات تبسطه

ستقبضه يد الفجر

* * * *

* نفح الطيب في اختصار روح الشعر ، ابن لبون التجيبي

-٦-

وقال فى المعتضد عباد من قصيدة * :

(الطويل)

انا عبيدك او يقول مصدق
الحق مـــذموم وأنت بخيل

أترى القبول سرت اليك بنفحة
مما ادعته فكان منك قبول

وهل استمالك من ثنائى عاطف
إن الكريم الى الثناء يميل

* خ ج١١ ، ص١٠٧ .

-٧-

وقال ابن عمار من قصيدة في المعتضد عباد أولها * :

(الطويل)

أشاقك برق أم جفاك حبيب
فليلك فضفاض الرداء رحيب

ومنها :

الى الله اشكو أن مالك فى دمي
شريك ومالي في هواك نصيب

أندرين من كانت عيناك قتله
وقلت فتى لا يستفيد غريب

ستنصره من مهرة الخيل ترتمي
بأعلام نصر فى الوغى وتؤوب

تساموا بلخم فاستهلت سماؤهم
بغيمين منها ذائب ومذيب

بدور ولكن السماء محارب
وأسد ولكن العرين حروب

مزحت فانى يا ابنة الفول لم أكن
لأفشي سراً ضمنته قلوب

---

* ذ ، فصل ابن عمار

سأشهد قومي أن طرفك من دمي
بريء وإن كان الفتور يريب

وكيف أرى في الغدر نهجاً لسالك
وعهدي بالملك الوفي قريب

فتى نسخ الغدر اقتضاء وفائه
فلا تحكمي أن الوفاء غريب

أغر ينير الملك منه بكوكب
له في سماء المشكلات ثقوب

- ٨ -

وخاطب أبا الوليد بن زيدون عند أول تعلقه بالسلطان :

تأملت منك البدر في ليلة الخطب
ونلت لديك الخصب فى زمن الجدب

وجردت من محروس جاهك مرهفا
تولت به خيل الحوادث عن حربى

وما زلت من نعماك في ظل لذة
تذكرنى أيامها زمن الحب

إذ العيش فى أفياء ظلك بارد
فمن مرتع خصب الى مورد عذب

أحين سقي صوب اعتنائك ساحتى
فنعمها واهتز روضي في تربى

ثنيت لعطف قد ثنيت مدائحى
عليه وسرب قد بدلت به سربى

أما أنـــه لولا عوارفك الـــتي
جرت فى جرى الماء فى الغصن الرطب

لما ذدت طير الود عن شجر القلى
ولا صنت وجه الحمد عن كلف العتب

---

* ح ، فصل ابن عمار .

ولكن سأكفى بالوفاء عن الجفا
وأرضى ببعد بعدما كان من قربى
وإن لفحتني من سمائك حرجف
سأهتف يابرد النسيم على قلبي
وإنى إذا قلت جاهك مطلبي
وأخفقت فيه قلت يازمني حسبي
أيظلم في عيني كذا قمر الدجى
وتنبو بكفي شفرة الصارم العضب

-٩-

وكتب الى الامير محمد (المعتمد) بن المعتضد حين نفاه المعتضد من إشبيلية ، وكان مقيما آنذاك فى سرقسطة * :

(الطويل)

على وإلا ما بكاء الغمائم
وفي والا ما نياح الحمائم

وغنى أنار الرعد صرخة طالب
لثأر وهز البرق صفحة صارم

وما لبست زهر النجوم حدادها
لغيرى ولا قامت له فى مآتم

وهل شققت هوج الرياح جيوبها
لغيرى او حنت حنين الروائم

خذوا بى إن لم تهدأو اكل سابح
لريح الصبا في إثره أنف راغم

من العابسات الدهم الا التفاتة
الى غرة أهدت له ثغر باسم

---

* الاصل م ٤٨٨

(١) في ذ : على والا ما نياح الحمائم وفي والا ما بكاء الغمائم || فى خ : مالنوح بدل : مانياح

(٣) في ذ (مراكش) وسط مأتم ، بدل : في مأتم

طوى بى عرض البيد فوق قوائم
توهمتني منهن فوق قوادم
وخاض بى الظلماء حتى حسبته
له مربط بين النجوم العوائم
الا قاتل الله الجياد فانها
نأت بى عن أرض العلى والمكارم
أشاب ولا تنساب عبرة مشفق !
وحمص ولا تعتاد زفرة نادم !
كساها الحيا برد الشباب فانها
بلاد بها عق الشباب تمائمي
ذكرت بها عهد الصبا فكأنما
قدحت بنار الشوق بين الحيازم
ليالي لا ألوى على رشد لائم
عنانى ولا أثنيه عن غي هائم
أنال سهادى عن عيون نواعس
وأجني عذابى من غصون نواعم
وليل لنا بالسد بين معاطف
من النهر ينساب انسياب الأراقم

---

(٧) في م ٤٨٨ : توهمتنى ، بدل : توهمته
(١٣) في م ٤٨٨ : غي لائم ، بدل : غى هائم
(١٤) في ذ : جفون ، بدل عيون || في ن : مرادي ، بدل : عذابى .
(١٥) في خ : وقوم، بدل : وليل .

بحيث اتخذنا الروض جاراً تزورنا
هداياه فى أيدى الرياح النواسم

تبلغنا أنفاسه فنردها
باعطر أنفاس وأذكى مناسم

تسر الينا ثم عنا كأنها
حواسد تمشي بيننا بالنمائم

سقتنا به الشمس النجوم ومن بدت
له الشمس فى جنح من الليل فاحم

وبتنا ولا واش يحس كأننا
حللنا مكان السر من صدر كاتم

هو العيش لا ما اشتكيه من السرى
الى كل ثغر آهل مثل طاسم

وصحبه قوم لم يهذب طباعهم
لقاء أديب أو نوادر عالم

ضعاليك هاموا بالفلا فتدرعوا
جلود الافاعى تحت بعض النعائم

---

(١٦) فى خ ، م ٤٨٨ : لناسم ، بدل : مناسم
(١٧) فى ذ : تشير ، بدل : تسر
(١٩) فى ذ : قطع ، بدل : جنح .
(٢٠) فى ن : نخاف ، بدل : يحس
(٢٣) فى ذ : فى الملى ، بدل : فى الفلا

لدامى ولا غير السيوف أزاهرى
لديهم ولا غـير الغمود كمائمى

وما حال من ربته أرض أعارب
وألقت به الأقدار بين الأعاجم

يقبح لي قوم مقامي بينهم
وقد رسفت رجل السرى في الأداهم

يقولون لي دع أيدى العيس إنها
تؤدى الى أيدى الملوك الخضارم

فديتهم لم يبعثوا حرص عاجز
ولا نبهوا إذ نبهوا طرف نائم

ولكنها الأيام غـير حوافل
بأرب أريب أو حزامة حازم

وإني لأدعو لو دعوت لسامع
وانى لاشكو لو شكوت لراحم

أريد حياة البين والبين قاتلي
وأرجو انتصار الدهر والدهر ظالمى

---

(٢٤) ذ : لدامى ، م٤٨٨ تراهم
(٢٥) في ذ : وما حال من خلى
(٢٦) في م٤٨٨ : قومى ، بدل : قوم
(٣٠) في ذ : واني لادعو لو دعوت لسامع يجيب واشكو لو شكوت لراحم

ونبئت اخوان الصفاء تغيروا
وذموا الرضى من عهدى المتقادم

لقد سخطوا ظلماً على غير ساخط
عليهم ولاموا ضلة غير لائم
ولو أن عفواً من هنالك زارنى
لزرت وما عدو الزمان بدائم
أجر ذيول الليل سابغة الدجى
واركب ظهر العزم صعب الشكائم
فاورد ودى صافياً كل شارب
وألبس حمدى ضافياً كل شائم

وأغضي لمن يلقي بوجه مكاره
حياء فألقاه بوجه مكارم
وما هو الا لثم كف محمد
وتمكين كفي من نواصى المظالم
إن اتفقت لي فالعدو موافقي
على كل حال والزمان مسالمى
على لنفسي من مناها ألية
تهز رحال اليعملات الرواسم

---

(٣٣) في ذ : لقد عتبوا ، بدل : لقد سخطوا || عاتب ، بدل : ساخط
(٣٦) و ذ : شامت ، بدل : شارب
(٣٩) في ذ : مساعدي ، بدل : موافقي

الى الحاجب الاعلى الى العضد الذى
تطول بيمناه قصار الصوارم

فتى ثقف مابين الحمائل مقدم
اذا كر ، كر الموت ضربة لازم

يضيء سرير الملك منه اذا استوى
عليه بدر محتب بعمائم

ويهفو للهواء الورد منه إذا غزا
على أسد دامي البراثن حاطم

صقيل رداء العرض من غدر خلة
وطاهر ماء الوجه من رد عادم

له هزة في الجود معتضدية
تهز إلى تشتيت شمل الدراهم

واى حياء طيه اى سورة
كما كنت فى الروض دهم الاراقم

سما بأبيه ذروة الشرف الذى
اباطحه سهل الندى والمكارم

بمعتضد بالله يمناه مرتع
مريع لآمال النفوس السوائم

اذا نشرت لحم بذكراه فخرها
طوت طيء من خجلة ذكر حاتم

مليك سني الحالتين متيم
ببيض الأيادى او بحمر الملاحم

أبى أن يراه الله غير مقلد
حمالة سيف او حمالة غارم

يعين على حمد العفاة فينثني
براحة مغنوم ولذة غانم

ويبني بهدم المال شامخة العلا
لقد ساس ما بانى العلا غير هادم

٥٥ مهيب التفات الطرف سام موقر
عظيم إذا لاحت وجوه العظائم

يذيب بعينيه العدى غير ناظر
ويسبي بكفيه السها غير قائم

اذا نظرت فيه الملوك تساقطت
له نكس الابصار مثل العمائم

يغادر من لثم المباسم في ثرى
مواكبه أمثال ثلم المناسم

له الخير ما أعطى الى كل صارم
يميناً وما أسطى بكل ضبارم

---

(٥٣) في مع : حمية سيف، بدل : حمالة سيف .

اذا جر أذيال الجيوش الى العدى
أطاعته أو جرت ذيول الهزائم

ومن مثل عباد ومن مثل قومه
ليوث حروب او بدور مواسم

ملوك مناخ العز في عرصاتهم
ومثوى المعالي بين تلك المعالم

هم البيت ما غير الهدى لبنائه
بأس وما غير القنا بدعائم

إذا قصر الرمح الخطى نهضت بهم
طوال العوالي في طوال المعاصم

وأيد أبت من أن تؤوب ولم تفز
بجز النواصي او بجز الغلاصم

ندامي الوغى يجرون بالموت كأسها
إذا رجعت أسيافهم في الجماجم

هناك القنا مجرورة من حفائظ
وثم الظبا مهزوزة من عزائم

ألكنى منهم بالسلام الى فتى
تهادى به جرد العتاق الصلادم

---

(٦٨) في ذ : الكني بالتسليم منهم على فتى

إلى الحاجب السامي إلى المجد ناشئاً
وإن لم تثبت فاعتبر بالمياسم

٧٠ اذا ركبوا فانظره أول طاعن
وإن تركوا فارصده آخر طاعم

أغر مكين في القلوب محبب
اليها عظيم فى نفوس الأعاظم

تبوأ من لحم وناهيك مقعداً
مكان رسول الله من آل هاشم

رقيق حواشي الطبع يجلو بيانه
وجوه المعاني واضحات المباسم

وبارع حسن الخط حتى كأنما
يصرف في القرطاس راحة راسم

٧٥ يهز من الأقلام أمثلة القنا
لها من لطيخ المسك مثل اللهاذم

اذا نثرت جاءت ببدعة ناثر
وإن نظمت جادت بحكمة ناظم

أبا القاسم اقبلها اليك فانما
ثناؤك مسكي والقوافي لطائمي

محملة عذراً فانك جملة
من الفضل لم أستوفها بتراجم
فديتك ما حبل الرجاء على النوى
بواه ولا ربع الوفاء بقاتم
أنا العبد في ثوب الخضوع لو أنني
أرى البدر تاجي والنجوم خواتمي
وماعز في الدنيا طلاب لماجد
ولا اعتاص في الأيام ورد لحائم
ولكن ذاك الظل أندى غضارة
لضاح وذاك البرق أوفى لشائم
وإني ـ اذا أنصفت ـ بعدك خادم
لدهرى وكان الدهر عندك خادمي
تراك تنسمت الدى قد أذعته
فارضاك أم عابت لديك مقادمي
٨٥ لعمرى لقد أخمت كل مفاخر
بمافيك من تلك السجايا الكرائم
أنازعه فيك الثناء فينثنى
كأنى نازعت الكؤوس منادمي

---

(٨١) في ذ وما عز في الدنيا مراد لجهب ولا اعتاص في الافاق ...
(٨٢) في م٤٨٨ ولكن ذاك الفضل || في ذ : اشفى ، بدل : اوفى .
(٨٤) في ذ ... فارضاك ام غابت عليك مقادمي .

ولا غرو أن حيتك بالطيب روضة
سمحت لهـــا بالعارض المتراكم

وثقت بحظى منك لم أخش نبوة
عليه وأرم بالظنون الرواجم

ولو نهضت بى قدرة كل ساعة
لأديت من تقبيل كفك لازمي

لعل الذى أقذى بترحة راحل
عيونا سيجلوهـــا بفرحة قادم

فترجـع أيام مضت وكأنها
اذا امتثلتهـــا النفس لذة حالم

وإن غالنى من دونهن منيتي
فأقـــدار رب بالمنيه حاكم

توالى عليك السعد ألزم صاحب
وكان لك الرحمن أكلأ عاصم

-١٠-

ومن قوله في قصيدة يمدح بها المعتضد بالله * :

(الكامل)

جاء الهوى - فاستشعروه - عاره
ونعيمه - فاستعذبوه - أواره

لا تطلبوا في الحب عزاً إنما
عبدانه في حكمه أحراره

قالوا أضر بك الهوى فأجبتهم
يا حبذاه وحبذا أضراره

قلبي هو اختار السقام لجسمه
زيا نخلوه وما يختاره

• عيرتموني بالنحول وإنما
شرف المهند أن ترق شفاره

وشتمتم لفراق من آلفته
ولربما حجب الهلال سراره

أحسبتم السلوان هب نسيمه
او أن ذاك النوم عاد غراره

---

* في مع ص١١٢ ، اثنان وعشرون بيتاً من هذه القصيدة ؛ في ق سبعة ابيات

إن كان أعيى القلب من حر الجوى
خذلته من دمعى إذن أنصاره

من قد قلبي إذ ثنى قـده
وأقام عذرى إذ أطل عـذاره

أم من طوى الصبح المنير نقابه
وأحاط بالليل البهيم خمـاره

غصن ولكن النفوس رياضه
رشـأ ولكن القلوب عراره

سخرت ببـدر التم غرته كما
أزرت على آفاقـه أزراره

مازال ليلى الوصل من فتكاته
تسـرى الى بعرفـه أسحاره

ويجود روض الحسن من وجناته
دمعى فيندى رنده وبهـاره

حتى سقانى الدهر كأس فراقه
فسكرت سكراً لايفيق خماره

ووقفت في مثل المحصب موقفاً
للبين من حب القلوب جـاره

حيران أعمي الطرف وهو سماؤه
وأذاب فيه القلب وهو قراره

ولئن يذبه وهو مثواه فكم
قد أحرقت عود العفارة ناره

إن يهنه أنى أضعت لحبه
قلبي وذاعت عنده اسراره

٢٠ فليهن قلبي أن شكاه وشاحه
لسواره فاقتص منه سواره

فوحسنه لقد انتدبت لوصفه
بالبخل لولا أن حمصاً داره

بلد رمتني بالمنى أغصانه
وتفجرت لي بالندى أنهاره

بلد متى أذكره هيج لوعتي
واذا قدحت الزند طار شراره

-١١-

وقال يخاطب ابا الوليد بن زيدون * :

(الكامل المجزوء)

كيف اعتززت على الدليل ... وقطعت أسباب الوصول
وقتلتنى وزعمت أن (م) ... ن الذنب منـا للقتيل

وعليك جاهـدت العدا ... واليك ملت عن العذول
ياقاتلي ودمي بصفـ (م) ... حة خده أهـدى دليل

ما أليق الفعل الجميـ (م) ... ل بذلك الوجه الجميـل
أبرزت فى خلق الكريـ (م) ... م وراءه خلق البخيل

ودعوتنى حـتى أجبـ (م) ... ـتك ثم حدت عن السبيل
جد بالقليل فان نفـ (م) ... سي منك تقنع بالقليل

واذكر على زمن قطعـ (م) ... ـناه بصافية شمول
إذ نسحب الاذيال ما ... بين الخليج الى النخيل

ونحل من سيف الغديـ (م) ... ـر بقبة الظل الظليل
والروض ممطور تنم (م) ... عليه أنفاس القبول

والشمس ترمقنا خلا (م) ... ل الغيم عن طرف كليل
إبان يحدو الرعد من ... ورق السحائب كالحمول

---

* ذ ق ١ مجلد ١ ص ٣٧٣

١٥ ويهز كف البرق في الـ (م) آفاق مرهفة النصـــول
زمن ستبكيه الحمـــا (م) م معى وتذهل عن هديل

يابرق أد رســـالتي تفديك نفسي من رسول
عرج بشـــلب محيياً ما شئت من تلك الطلول

واطلع على شرفات حمـ (م) ـص قراره الشرف الاثيل
٢٠ فاذا اجتلاك ابو الوليـ (م) ـد بناظر اليقظ النبيل

فاقرأه من قلبي سلا (م) ماً يقتضي حسن القبول
يا غرة الزمن البهيـ (م) ـم وعزة الأدب الذليل

ومحكم الفلم القصيـ (م) ـر على شبا الرمح الطويل
أعلمت أنى خادم ذكراك بالشكر الجزيل

٢٥ لم استحل عمـــا عهد (م) ت مع الزمان المستحيل
اشـــفع عنايتك الجليـ (م) ـلة لي لدى الملك الجليـــل

ولئن أجبت لراغب وأقلت عثرة مســـتقيل
فلكم أبيت بمثلهـــا وهي الصنيعة من مثيلي

يا أنس بـدر فى الظلا (م) م وبرد ظـــل في المقيل

-١٢-

وقال فى المعتمد حين نزل ببعض الحصون * :

(المتقارب)

على اليمن والطائر السانح
نزلت وغيرك للبارح

وما اهتجت إلا وقد هيجت (م)
لك دواع الى البلد النازح

وإلا فكم خف من خف جهـ (م)
ـلا فما هز من حلمك الراجح

تطلب حقوقك ، لا لائم
فقد بين الصبح للاح

ومن يعترضك بأوداجه
فكله الى سعدك الذابح

وكم يزجرون وكم ينصحو (م)
ن فما يقبلون من الناصح

وما كان أنصفهم لو رموا
زناد الوغى ليد القادح

---

* ذ ق ٢ فصل ابن عمار

ولا عجب لثبوت القلا (م)
ع على بأسك الهادم الناطح

فلولا امتناع الفتاة الـكما (م)
ب لما كملت لذة الناكح

خلعت الـكرى في طلاب العلا
على نائم دونها طافح

هنيئاً فانت ملك الملو (م)
ك قد صرح الجد للمازح

وما أخرتني عنك النجو (م)
م ياغرة القمر اللائح

ولا النهر لم يثنني عن ورو (م)
د ندى بحرك الزاخر الطافح

-١٣-

وقال يمدح المعتمد * :

(الطويل)

أفي كل يوم تحفة وتقلـــد
بفضل نوال واهتبال يؤكد

لقد فاز قدحي في هواك وقابلت
مطالع حالي في سمائك أسعد

تبرعت بالمعروف قبل سؤاله
وعدت بما أوليت والعود أحمد

فأتأق حوضي من نداك تبجس
ونمق روضي من رضاك تعهد

أما وصنيع زارني بجماله
حديث كما هب النسيم المغرد

لقد هز أعطاف القوافي وهزني
الى شكر إحسان أغيب فيشهد

فان أنا لم أشكرك صادق نية
تقوم عليها آيه الفصح تعضد

فلا صح لي دين ولا بر مذهب
ولا كرمت نفسي ولا طاب مولد

---

* ق ، ٩٧ ، ثلاثة ابيات منها في خ ج١ ، فصل ابن عمار

-١٤-

وله فى زورق * :

(الطويل)

وجارية مثل الهلال ألفتها
على نهر مثل السماء رقيق

تجلى لنا الاصباح وهو زمرد
فالقت عليه الشمس ثوب عقيق

* ح س ١٧٣

-١٥-

وله فى طبق من الفضة مذهب الباطن *

(الخفيف)

وسماء من الغنى قد أسالت
ذهباً فى قرارة من لجين

فاجتنت حولها العيون بلطف
زهر الحسن من بنان اليدين

* ح ص ١٧٣

-١٦-

وأهدى الى المعتمد فى يوم عيد ثوباً من صوف بحرى وكتب معه * :

لما رأيت الناس يحتشدون في
إتحاف يومك جئته من بابه

فبعثت نحو الشمس شبه إهابها
وكسوت متن البحر بعض ثيابه

* * * *

فوجه اليه المعتمد بمكبة فضه فيها خمسمائه دينار وكتب معها .

هبة أتتك من النضار ألوفها
فاغنم جزيل المال من وهابه

فلو أن بيت المال يحوى قفله
أضعافها لكسرته عن بابه

وملأت منه يديك لا مستأثراً
فيه عليك لكي ترى أولائه

فالبحر يطفح جوده لك زاخراً
لما كسوت البحر بعض ثيابه

---

* ح ص ١٧٢ ،

-١٧-

وكتب الى المعتمد في يوم غيم وقد احتجب * :

(الطويل)

تجهم وجه الأفق واعتلت النفس
بأن لم تلح للعين أنت ولا الشمس

فان كان هذا منكما عن توافق
وضمكما آنس فيهنيكما العرس

* * * *

* خ ج١١ و١٦٨

-١٨-

وركب المعتمد في بعض الايام قاصداً الجامع والوزير ابن عمار يسايره فسمع أذان المؤذن فقال المعتمد * ،

هـذا المؤذن قـد بدا بأذانه

فقال ابن عمار : يرجو بذاك العفو من رحمانه

فقال المعتمد :

طوبى له من شاهد بحقيقة

فقال ابن عمار : ان كان عقد ضميره كلسانه

(١) ن جـه صـ١٤٩

١٩

حضر ابو بكر بن عمار مع المعتمد وأبي بكر الاشبيلي مجلس أنس ، فلما تمكن السرور من النفوس غنى ابو بكر الاشبيلي صوتاً فطرب ابن عمار وقال ارتجالا * :

(البسيط)

ما ضر أن قيل اسحق وموصله
ها أنت أنت وذى حمص وإسحاق

أنت الرشيد ودع من قد سمعت به
وإن تشابه أخلاق وأعراق

لله درك داركها مشعشعة
واحفز بساقيك ماقامت لنا ساق

* قس ٣ فصل ابن عمار

٢٠

وأدخل بعض فتيان المعتمد عليه باكورة نرجس فكتب الى ابن عمار يستدعيه *

(البسيط المجزوء)

قد زارنا النرجس الذكي وحان من يومنا العشي

ونحن في مجلس أنيق وقد ظمئنا وثم ري

ولي نديم غـــدا سميي يا ليته ساعد السمي

فأجابه ابن عمار :

لبيك لبيك من مناد له الندى الرحب والندي

ها أنا بالباب عبد قن قبلته وجهك الســـني

شـــرفه والداه باســـم شرفتـــه أنت والنبي

* مط و ١٢ ، ح ص ١٥٧

٢١

وقال يمدح *

(الكامل)

لله درك ماتعلق ناظرى
بمدى علاك ولا جرى تحصيل

وجه بمعرفة الدلاص مقنع
أبداً وطرف بالعجاج كحيل

ويد بآمال العفاة .....
أبداً وآجال العداة تسيل

عمرت ربوع المجد منها إنما
تركت بيوت المال وهي طلول

* خ ج١١ و١٦٨

-٢٢-

وبلغ ابن عمار أن المعتمد كتب من قرطبه الى بعض نسائه شعراً يعتذر فيه من اللحاق بها ، وقال في آخره :

إن شاء ربى او شاء ابن عمار ، فكتب اليه *

(البسيط)

مولاى عندى لما تهوى مساعدة
كما يتابع خطف البارق الساري

إن شئت فى البحر فاركب ظهر سابحه
او شئت فى البر فاركب ظهر طيار

حتى تحل وحفظ الله يكلؤنا
ساحات قصرك واتركني الى داري

وقبل خلع نجاد السيف فاسع الى
ذات الوشاح وخذ للحب بالثار

ضماً ولثماً يغني الحلي بينكما
كما تجاوب أطيار بأسحار

* في ح ص١٥٧ وفي ذ قس ٢ فصل ابن عمار مع الخلاف في ذكر السبب
(٣) في ذ : رحاب ، بدل : ساحات .

* * * *

-٢٣-

وأنشد المعتمد يوماً أبا بكر بن عمار * :

(الكامل المجزوء)

أمـــا أنـــا فتيم قلق الفؤاد وأنت كيف

فقال ابن عمار :

حالي وحالك واحـد وأنا القتيل بغير سيف

* ابن اون التجيبي لمح السحر من روح الشعر و ١٠

-٢٤-

وقال يستنجز حاجة *

(الطويل)

أهزك لا أنى عهدتك ناسياً
ولا أنني أبغي لديك التغاضيا

ولكن رأيت السيف من بعد سله
الى الهز محتاجاً اذا كان ماضياً

* ابن الخطيب ، السحر والشعر و١٠

-٢٥-

وقال يستنجز حاجة * :

(المنسرح)

يانسيم الثناء هب فنبه
نجح مولى ينام عن سعى عبده

هب واستمل من علاه .....
حل إنجازه على روض وعـــده

.....

* ابن الخطيب ، المحر والشعر ، و ١٠

٢٦

وقال يتغزل بحسناء * :

(الطويل)

وما لحمام الأيك تبكيك كلما
تبســـم ثغر للصباح شنيب

تغني فما تنفك تشـرب لغبة
من الدمع يهديها اليك وجيب

نعم هجر ليلى كلف .....
وعلم دمع العين كيف يصوب

فتاة عداها الحسن حتى كأنها
هي الحسن أو إلف عليه حبيب

فعين كما عين المها ومقلد
كما ارتاع ضبي بالفلاة غريب

وردف كما انهال القضيب وضمه
وشاح كما غنى الحمام طروب

وثغر (كمثل) الاقحوان يشوبه
لمى حسنات الصبر عنه ذنوب

---

* ابو العباس الجراوي ، الحماسة المغربية

شققت جيوب الصبر عنها لطفلة
..... عليهـــا للجبال جيوب

لفاتكة الألحـــاظ وهى ثليلة
وناعمة الأعطاف وهى قضيب

كسا الخجل المعتاد صفحة خدها
رداء طرازاه نـــدى ولهيب

ودبت من الأصداغ فيه عقارب
لها في فؤاد المستهام دبيب

أما ونسيم الروض زار نسيمها
فاهدتها نحو المشـــوق جنوب

-٢٧-

وقال ، وضمن أوائل الأبيات « نعم المحل » * :

(الكامل)

نفسي وإن عذبتها تهواك
وبهزها طرب الى لقياك
عجباً لهذا الوصل أصبح بيننا
متعذراً ومنى فيه مناك
ما بال قلبي حين رامك لم ينل
ولقد ترومك مقلتي فتراك
الله أعلم ما أزور لحاجة
ذاك المحل لغير أن ألقاك
ليت الرقيب إذ التقينا لم يكن
لأنال رياً من لذيذ لماك
متنزهاً فى روض خدك شارباً
كأس الفتور تديرها عيناك
حكت الغصون جمال قدك فانثنت
والفضل للمحكي لا للحاكي
لا تغربى ياروضة محظورة
حتى أمد يدى الى مجناك

* ديوان ابن عمار ، ج ص١٧٣.

-٢٨-

وله في وصف الخمر * :

(المجتث)

الكأس جامد مـاء والخمر ذائب نـار
واعجب لمـاء ونار تلاقيـا في قرار

* ديوان ابن عمار .

-٢٩-

وقال ايضاً * :

قرأت كتابك مستشفعاً بوجه أبى الحسن من رده
ومن قبل فض ختام الكتا (ب) قرأت الشفاعة فى خده

* ن ، ج ٥ ، ص ٢١

-٣٠-

ومما يعزى الى ابن عمار قوله * :

إني ابن عمار لا أخفى على أحد
إلا على جاعل بالشمس والقمر

وبين طبعي وذهني كل سابقة
كالـهم يبعد بين القوس والوتر

إن كان أخرني دهري فلا حرج
فوائد الـكتب .... في الطرر

---

* ديوان ابن عمار ؛ ح ، ص١٧٤

(١) في ح : على بشر ، بدل : على احد

-٣١-

وقال في الحرشف * :

(البسيط)

وبنت ترب وماء جودها أبداً
لمن توخاه في ثوب من البخل

كأنها فى جمال وامتناع ذرى
خود من الروم في خدر من الأسل

* ذ فصل ابن عمار ، ح ص ١٧٣ .

-٣٢-

وقال وصف القلم * :

(البسيط المجزوء)

نحن خليلان ما دعانا ... للوصل ود ولا اختيار
نفصل ما كان ذا اتصال ... كأننا الليل والنهار

* الرندى ، الوافى فى نظم القوافى .

-٣٣-

وقال يصف يوماً غائماً * :

(الكامل)

يوم تكاثف غيمه فكأنه
دون السماء دخان عود أخضر

والطل مثل برادة من فضة
منثورة في تربة من عنبر

والشمس احياناً تلوح كأنها
أمة تعرض نفسها للعشترى

* ن ج ٥ ص ١٣٧

٣٤

وقال فى فارسين تبارزا فسبق احـــدهما الاخر فطعنه من * أبيـــات :

(الكامل)

كم من شجاع قدته تحت الردى
بدم من الأوداج كالارسان

روى ليضرب ..... بطعنة
إن الرماح بداية الفرسان

---

* خ ج١١ و ١٦٨.

٣٥

وقال يهجو شخصاً اسمه مسلم * :

(الوافر)

روائح مسلم قذرة وأقصى دبره دسره
وأدخل فيه إصبعه وقاس بنانه العشرة

فلم يمكن وصول الدهـ (م) ـن دون تجاوز الكمره
وهذا عذر مأبون أبوه سارق البقرة

* ديوان ابن عمار .

٣٦

وقال في مغن يكنى أبا الفضل * :

(السريع)

غنى ابو الفضل فقلنا له ... سبحان مخليك من الفضل
غناؤه حد على شربها ... فاغرب فأنت اليوم فى حل

* خ ج ١١ ، و ١٦٨

٣٧

وقال يتغزل * :

(الوافر)

رنا يرنو بنرجسه ويعطو ... بسوسان وبسم عن أقاح
تشير إلى قرطاه وتصغى ... خلاخله إلى نغم الوشاح

* ق صـ ٩٥ ، الشريف القرناطي ، شرح المقصورة
(٢) في شرح المقصورة : قرطاها ، خلاخلها

٣٨

وقال يصف جدولا يصب فى غدير * :

(الطويل)

ومطرد الاجزاء يصقل متنه
صباً أعلنت سر الندى في ضميره

كأن حباباً ريع تحت حبابه
فسارع يرمي نفسه فى غديره

جريح باطراف الحصى كلما جرى
عليها شكى أوجاعه بخريره

شربنا على حافاته دور سكرة
وأكثر سكراً منه عينا مديره

وقد لاح نجم الصبح باد كأنه
مطرق جيش مؤذن بأميره

* في م ٤٨٨ و ١٠٢

٣٩

وقال في غلام * :

(المتقارب)

تعلقته جهورى النجـــا (م) ر حلو اللمى جوهرى الثنايا

من النفر البيض جر الزمـا (م) ن رقاق الحواشي كرام السجايا

ولا غرو ان تغرب الشارقا (م) ت وتبقى محاسنها بالعشايا

ولا وصل إلا جمان الحديد (م) ث نساقطه من ظهور المطايا

٥ شـــنئت المثلث المزعفرا (م) ن وملت الى خضرة في النقايا

* م ٤٨٨ و ١٠٢

٤٠

وقال يصف الدمشق وهو أحد القصور التي بناها بنو امية في قرطبة * :

(الخفيف)

كل قصر بعد الدمشق يذم
فيه طاب الجنى وفاح المشم

منظر رائق وماء غمير
وثرى عاطر وقصر أشم

بت فيه والليل والفجر عندى
عنبر أشهب ومسك أحم

---

* ن جـ٢ صـ١٩٠ ، ق صـ١٥

(م) في ق : عنه ، بدل : عندي

وقال فى رسالة* :

(الرجز المجزوء)

تهتز فى حلي الندى وتنم عن نفس الصبا

عادت بريعان الشبا (م) ب وجددت عهد الصبا

* ذ ، قس ٢ فضل ابن عمار

-٤٢-

كتب اليه كاتبه ابو الحسن بن الجد * :

(المتقارب)

تقدمت مستأذناً في الرحيل ... بعذر جلي وهم دخيل

وما اخترت لكنها الحادثا (م) ... ت تروح وتغدو .....

وإلا فمن ذا الذى يرتضي ... هجيراً على سحر او أصيل

فهل لوداع العلا فسحة ... أبل بأندائها من غليلي

٥ وألبسها جنة من زما (م) ... نى وأصحبها عوذة في ....

بقيت ولا زلت فى عزة ... عديم القرين عديم المثيل

فأجابه ابن عمار :

كتبت .... نى فى الرحيل ... بعـــذر جلي لهم دخيـــل

ولم تدر أن فراق فراق الحيا (م) ... ة ليسهل عند فراق الخليل

وليس الى قطع تلك السبيـ (م) ... ل دون مرافقة من سبيل

فانى في المنع عين الجوا (م) ... د وإنى فى السمح عين البخيل

* * * *

* ديوان ابن عمار

٤٣

وكتب الى ذى الوزارتين أبى الحسن بن اليسع وقد آب من إحدى سفراته * :

(الكامل)

أهلا بقربك لو يطول مقـام
وكفى بطيفك لو يزور منام

آذنت بالعهـد الجديـد وإنما
قرب المدى دون اللقاء هيام

وكتبت توهن للنوى أميالها
هيهات أميال النوى أعوام

لولا الصحيفة ماسلوت فانهـا
قد قام منها ما علمت مقام

وصلت إلى مع الأصيل وإنما
وصلت إلى حديقة ومـدام

برد من الكافور نمنم درجه
مسكاً وزر عليه منه ختام

من قطعة هى قطعة الديباج أو
هى قطعة البستان وهي كلام

* ق ص ١٠٧

وكأن أسطرها غصون أراكة
ومن القوافي فوقهن حمام
نادمتها والراح يلهب كأسها
عذب اللمى ساجى الجفون غلام
وتشاكلا حسناً فمائق قده
ألف وعارض عارضيه لام
إيه أبا الحسن اختبرت فقل لنا
ماذا تقول اذا استشق عصام
هل حاد بى من مذهب عن واجب
أو لم يقدنى للجميل ذمام
أوهل تلجلج منطقي في حجة
لو كان تحت يد القضاء خصام
والسمى مشكور وفيات الغنى
مرجوة والي الضياء ظلام
ولقد جريت الى التي قلدتها
جرياً تباعد عنه فيه ملام
فوردت لم تلحق بغيبك ريبة
وصدرت لم يعلق بسعيك ذام
وعلى مسفرك السلام تحية
ولقد تقل تحية وسلام

-٤٤-

كتب ابن رزين الى ابن عمار يستدعيه الى مجلس أنس * :
(الطويل)

ضمان على الأيام أن أبلغ المنى
اذا كنت في ودى مسراً ومعلنا

فلو تسأل الايام من هو مفرد
بود ابن عمار لقلت لهم أنـا

فان حالت الأيام بيني وبينه
فكيف يطيب العيش او يحصل المنى

فلما كان الغد ورد ابن عمار ومعه الجواب وقد تأخر في حمله على عادته فى التروى في النظم :

(الطويل)

هصرت لي الآمال طيبة الجنى
وسوغتني الاحوال مقبلة الدنـا

وألبستني النعمى أغض من الندى
وأجمل من وشي الربيع وأحسنا

وكم ليلة أحظيتني بحضورهـا
فبت سميراً للسناء وللسنـا

---

* ن جـ٢ صـ١٨٧ ؛ مط و ٣١

أعلل نفسي بالمكارم والعلا
وأذنى وكفى بالغناء وبالغنى

سأقرن بالتمويل ذكرك كلما
تعاورت الأسماء غيرك والكنى

لأوسعتني قولا وطولا كلاهما
يطوق أعناقاً ويحرس ألسنا

وشرفتني من قطعة الروض بالتي
تأثر فيها الطبع روضاً وسوسناً

تروق بجيد الملك عقداً مرصعاً
وتزهو على عطفيه برداً مزينا

فدم هكذا يافارس الدست والوغى
لتطعن طوراً بالكلام وبالقنا

---

٧ ـ في مط : وردا وسوسنا

٨ ـ في مط : وتزهي على عطفيه وشيا مفننا

-٤٥-

ومر على مقربة من منازل ابن رزين في حدى سفراته دون أن يعرج عليها فعاتبه على ذلك ، فكتب اليه ابن عمار * :

(البسيط)

لفاؤك النجح لو أعقبته سفرى
ووجهك الصبح لو أقبلته نظرى

وقصرك البيت لو أنى قصدت به
حجى ويمناك منه موضع الحجر

لم تثن عنك عنانى سلوة خطرت
على فؤادى ولا سمعى ولا بصرى

لكن عدتنى عنكم خجلة عرضت
كفانى العذر فيها بيت معتذر

٥ (لو اختصرتم من الاحسان زرتكم
والعذب يهجر للافراط في الخصر)

---

* ذ قس ٢ فصل ابن عمار

٥ ـ البيت لابي العلاء المعرى

-٤٦-

وأهدى الى ابن ليون تفاحاً وأجاصاً وكتب معها * :

(الكامل)

خذها كما سفرت اليك خدود
أو أرجست فى راحتيك نهود

حذراً من التفاح نثراً بينهـا
ولها باغصان الجنان عقود

وشفعت بالاجاص قصداً إنه
شكل الجمال وحده المحدود

عذراً اليك فانما هي أوجه
بيض تقابلها عيون سود

إيه فعندى من فراقك لوعة
يعزى اليها ثابت ويزيد

افطرت من صومي بعزتك التي
كانت هلالا كان منه العيد

لله ليلتنا التي من أجلها
هذا الزمان بمثلها محسود

---

* ذ قس ٢ فصل : ابن عمار

-٤٧-

واستهدى منه بعض اخوانه خمراً فبعث بها مع تفاحتين ورمانتين وكتب مع ذلك * :

(الوافر)

خذوها مثلما استهديتموها عروساً لاتزف الى اللئام

ودونكم بها ثدي فتاة أضفت اليها خدي غلام

٤٨

وكان في ضيافة المعتصم صاحب المرية بالمنية الصمادحية ، فلما أزمع الرحيل استسرحه بهذه الابيات * :

(الكامل المجزوء المذيل)

ياواثقاً وصل السما (م) ح الجود في فضل السماح

ومطابقاً يأتى وجو (م) ه الجد من طرق المزاح

أســـرفت في بر الضيا (م) ف فجـــد قليلا بالسراح

* ـ ذ قس ٢ فصل ابن عمار

٤٩

وقال مخاطباً المعتصم بن صمادح على لسان شعراء مدحوه فابطأ عنهم عطاؤه * :

يا أيها الملك الذى شـــاد العلا
معن أبوه وخاله المنصور

بفناء قصـــرك عصبة أدبيه
لا زال وهو بجمعهم مغمور

زفوا اليك بنات افكار لهم
واستبطأوك فهل لهن مهور

* فى ح ص ١٧٤

٥٠

وقال حين أزمع الرحيل من حضرة المعتصم بن صماح في المرية ، جواباً على ثلاثة الابيات التي ودعه فيها المعتصم ؛ وقال ابن خاقان في قلائده إنه قالها ارتجالا * :

(الطويل)

ألفظك أم كأس الرحيـــق المعتق
وخصرك أم روض الربيـع المنمق

ونظمك أم سلك من الدر ناصع
يروق على جيد العروس المطوق

بعثت بهـــا ياقطعة الروض قطعة
شممت بهـــا عرف النسيم المخلق

ثلاثة أبيات ، وهيهات إنمـــا
بعثت بها الجوزاء في صفح مهرق

هي السحر أسرى في النفوس من الهوى
وكيف يكون السحر في لفظ منطق

أمعتصماً بالله والحرب ترتمي
بأبطالهـــا والخيل بالخيل تلتقي

---

* رويت في ق ص٩٧ ، ثلاثة ابيات في مط ورويت ايضاً في ذ . قد ٣ فصل ابن عمار

٣ ـ في ذ : بعثت ، بدل : شممت

دعتني المطايا للرحيل وإنني
لأفزع من ذكر النوى والتفرق
وإني وان غربت عنك فانما
جبينك شمسي والمرية مشرقي

٧ - في ذ(القرويين) : لافرق ، بدل : لأفزع
٨ - في ذ : إذ ، بدل : وإن

٥١

وكتب اليه المعتصم صاحب المرية يوماً بنثر وشعر يقول فيه * :

(الطويل)

وزهدنى في الناس معرفتي بهم
وطول اختبارى صاحباً بعد صاحب

فلم ترنى الأيام خلا تسرنى
مباديه إلا ساءنى في العواقب

ولا قلت أرجوه لدفع ملمة
من الدهر الا كان إحدى المصائب

فاجابه ابن عمار بقوله :

فديتك لا تزهد فثم بقية
سترغب فيها عند وقع التجارب

وأبق على الخلصان إن لديهم
على البدء كرات بحسن العواقب

تكنفتني بالنثر والنظم جاهدا
وسمت على القول من كل جانب

---

* رويت هذه القصيدة في : ذ ، ق ٢ ، فصل ابن عمار ، في مط ، و ١٣١ ، وفي ق ، س ٥١ .

(٣) في ذ : عاتباً ، بدل : جاهداً .

وقد كان لي لو شئت رد وإنما
أجر لساني ذكر تلك المواهب

ولا بد من شكوى ولو بتنفس
يسكن من حر الحشى والترائب

كتبت على رسمي وبعد نسيئة
قرأت جوابي من سطور المواكب

ثلاثة أبيات وهيهات إنما
بعثت إلى حربى ثلاث كتائب

وكيف يلذ العيش في عتب سيد
وما لذ لي يوم على عتب صاحب

وقبل جرت عن بعض كتبي جفوة
ألحت على وجهي بغمز الحواجب

سلكت سبيلي للزيارة إثرها
فقابلت دفعاً في صدور الركائب

وما كنت مرتاداً ولكن لنفحة
تعودت من ريحان تلك الضرائب

---

٤ ـ في ذ : بي ، بدل : لي .
٥ ـ في مط : يخفف ، بدل : يسكن ، في ذ (الرباط) : يبرد .
٨ ـ في ذ : من عتب ، بدل : في عتب ، وما لذني ، بدل : وما لذلي

ولو لمعت لي من سمائك برقة
ركبت إلى مغناك هوج الجنائب

فقبلت من يمناك أعذب مورد
وقضيت من لقياك أوكد واجب

وأبت خفيف الظهر الا من النوى
وخليت للعـــافي ثقال الحقائب

سواك يعى قول الوشاة من العدى
وغيرك يقضي بالظنون الكواذب

١٣- في مط : مشرع ، بدل : مورد .
١٤- في ذ (القرويين) : الجنائب ، بدل : الحقائب .

٥٢

ومن قرب مسكن ابى عيسى بن لبون دون أن يعرج عليه ، فكتب اليه ابو عيسى قصيدة عاتبه فيها أولها :

(الكامل)

ختمت بعصرك أعصر الأجواد
وعنت لذكرك ألسن الوراد

فاجابه ابن عمار * :

(الكامل)

عطلت من حلي السروج جادى
وسلبت أعناق الرجال صعادى
ونثنيت عزمي عن مسير هزنى
سعدى اليه وحثني إسعادى
وسلبت من ثوب المروءة والوفا
ثوبى وحلت على بني عباد
إن لم أحلك من فؤادى منزلا
ينبيك أنك مالك لقيادى
وأخص جانبك الرفيع بخدمة
تسقيك صفو أحبة وأعاد

* رويت في ق ص ١٠٤ ، بيتان منها فى الخريدة و١٦٧ ، ٣٩ بيتاً في ذ.

وأرد بذكرك من ثنائى روضة
غناء حالية بنور ودادى

حتى تبين أن غرسك قددنا
بجنى وزرعك قد أنى لحصاد

يا سيدى وأنا الذى ناديته
لرضى فلبى منك خير مناد

أعطاك فضل الابتداء ولو جرى
ظلم لأنكر أن تكون الباذى

لله در عقيلة أبرزتها
من خدر فكرك فى حلى الانشاد

فرعاء عاطلة الذوائب واللمى
غيداء حالية الطلى والهادى

خلصت إلى مع المساء فعارضت
صلة الحبيب أنى بلا ميعاد

خط من النظم البديع أفادنى
حظ الكرام وخطه الامجاد

وشي سخت يدك الصناع برقمه
فكسوتنيه مذهباً بأياد

---

١٢ ـ فى ذ (القرويين) : وصلت ، بدل : خلصت .

يفدى الصحيفة ناظرى فبياضها
ببياضه وسوادها بسواد

أدى تحيتك الزكية طيها
كافور قرطاس ومسك مداد

ولقد تعين لو أعانت قدرة
حسن الجزاء بها وهز النادى

لكن عجزت فما استقل بنشأتى
ماء الفرات ولا ثرى بغداد

عذراً فنيك لكل طالب حجة
فهم ألد روجه عذر باد

بك فاخر العلم القصير فطاول الـ (م)
ـرمح الطويل كتابة بإطراد

فلك الفصاحة اولـيفك كلما اسـ (م)
ـتمطيت متني منبر وجواد

ثنيت عليك حلى الوزارة مثلما
حمل الحمام عليك ثني نجاد

وتتوجت منك القيادة بالذى
ترك الرياسة مهنة القواد

أنت الجلال الحلو رق طبيعة
وصفا مزاجاً كالسحاب الغادى

من معشر تتشرف الاذوى بهم
كتشـــرف الايام بالأعياد

جلوا فحلوا في الأنام مكانة
كمكانة الآلاف في الأعـــداد

أفديك من حر تعبد بره
شكرى وقل له العدى والنادى

فلقد ظفرت من اقتبالك بالمنى
وبلغت أقصـــي غايتي ومرادى

وأرحت من تعبي بعهدك في ندى
ظل فبت على وثير وساد

وشددت منك يدى بعلق مظة
ونفضتهـا بزعانف أنكاد

متعللين على الوفاء بعلة
ضحك الطبيب لهـــا مع العواد

جنحوا الى ظلمي فسمت جماحهم
ولقيت شدتهم بلين قياد

واستبطنوا حقداً وبين جوانحى
طبع يسل سخائم الاحقاد
ولكم دعي فى الاخاء أعرته
جذب ابن سفيان بطبع زياد
حتى اذا رفض الاخاء رفضته
واعتضت عنه بطيب الميلاد
لاذنب لي فى طرد سائمة الهوى
منه على السرح الوبيل الصادى
أنا قد رضيتك فارضني وأعدنى
إن كنت محتاجاً الى الاعداد
إنى لمن إن دعوت لنصرة
يوماً بساطى حجة وجلاد
أذكيت دونك للعدى حدق القنا
وخصمت عنك بألسن الأغماد
صلني أصلك بصل فديتك بى أصل
بك واعتمدنى أتخذك عمادي
إيه وقلت الى الوفاء محركاً
إيه فما خطرت بعطف جماد
ولأن بلغت الى رضاى فربما
الفيتني لرضاك بالمرصاد

---

٣٣ - في ذ : كوامن ، بدل : سخائم

وعلى تظاهرنا الضمان بقلة الا (٢)
أعداء ثم بكثرة الحســـاد

وزعمت تظلم ساحة ما بيننا
ظلماً وصبح العدل عندك باد

٤٥ كلا فما التسويف من شيمي ولا
لي الجميل بعادة من عادى

وهل اكتوت بهواك الالقية
أحلى بعيني من لذيذ رقادى

أخطرتها و.... بعـــد الى التي
يدعو المطي لها ويشدو الحادى

لابد من ذاك السفار وإن عدت
عنـه الليـالي إنهن عواد

سفر إن استبعدته فسأمتطي
حرصي وأجعل من ثنائك زادى

خذها نتيجة منـكر لولادها
برم بها قال لها متفاد

حـذر من الرد المخل فانما
أهدى الزيوف الى يدى نقاد

٤٦- في ذ (الرباط) : التوت ، بدل : اكتوت .

٥٣

وقال يخاطب بني عبد العزيز وقد اجتاز بهم فأخرجوا اليه تضييفاً وبراً مع قوم أغفال ولم يلقوه فكتب اليهم * :

تناهيتم في برنـــا لوسمحتم
بوجه صديق في اللقـــاء وسيم

وسلسلتم راح البشاشة بيننـــا
فما ضر لوساعدتم بنديم

ضننتم بأعلاق الرجال على النوى
فلم تصلونا منهم بزعيم

سألتمس العذر الجميل عن العلا
وأحتال للفضل احتيال كريم

٥ وأثنى على روض الطلاقة بالحيا
وإن لم أفز من نشره بنسيم

ولـكن سأستعدى الوفاء وأقتضي
سماحك بالأنس اقتضـــاء غريم

---

* رويت في ق : ص١١ ، وفي خ ج١١ ، و١٦٨ مع خلاف في الترتيب ، وخمسة ابيات في ذ قس ٢ فصل ابن عمار .

٢ ـ في ق : بالجنى ، بدل : في الحيا .

٥٤

وكتب الى المعتمد في حال أوحبت إيحاشاً * :

(الطويل)

أصدق ظنى ام أصيخ الى صحبي
وأقضي عزمى أم أعوج مع الركب

اذا انقدت مع رأيي مشيت مع الهوى
وإن أتعقبه نكصت على عقبي

وإني لتثنيني اليك مودة
يغيرها ما قد تعرض من ذنبي

فما أغرب الأيام فيما قضت به
ترينى بعدى عنك آنس من قربي

أخافك للحق الذى لك في دمي
وأرجوك للحب الذى في قلبي

وكم قد فرت يمناك بى من ضريبة
ولا بد يوماً أن يفلل من غربى

وأعلم أن العفو منك سجية
فلم يبق إلا أن تخف من عتبي

---

* - ح ص١٥٩ روايه ابي الطاهر التميمي ؛ سبعة ابيات في ذ ق٢ .

٤ - في ذ : فما اعجب ، بدل : فما اغرب .

ولي حسنات لو أمت ببعضها
الى الدهر لم يرتع بنائبة سربي

ولا بد ما بيني وبينك من ...
يطبقها ما بين شـــرق الى غرب

فاجابه المعتمد بقوله :

(الطويل)

تقدم الى ما اعتدت عندى من الرحب
ورد تلقك العتبى حجاباً عن العتب

متى تلقني تلق الذى قـــد بلوته
صفوحاً عن الجانى رؤوفاً على الصحب

سأوليك منى ما عهدت من الرضى
وأصفح عما كان إن كان من ذنب

فما أشعر الرحمن قلبي قسوة
ولا صار نسيان الاذمة من شعبي

تكلفته أبغي بـــه لك سلوة
وكيف يعانى الشعر مشترك اللب

٥٥

وكتب الى المعتمد وقد ارتهن أمير برشلونة رايموند ابنه الرشيد لمال توقف له عنده ، فغضب المعتمد على ابن عمار ظاناً أن له فى ذلك سعياً * :

(الطويل)

أأركب قصدى ام أعوج مع اركب
فقد صرت من أمرى على مركب صعب

وأصبحت لا أدرى أفي البعد راحتي
فأجعله حظى أم الخير فى القرب

على أنني أدرى بأنك مؤثر
على كل حال ما يزحزح من كربى

أيظلم في عينى كذا قمر الدجى
وتنبو بكفى شفرة الصارم العضب

٥ حنانيك فيمن أنت شاهد جده
وليس له حاشا انتصاحك من حسب

وما جئت شيئاً فيه بغى لطالب
يضاف به رأى الى الضعف والعجب

---

* ح ص١٦٦ روايه : ابي الطاهر التميمي

سوى أنني أسلمتني لملمة
فلات بها حدى وكسرت من غربى

أما أنه لولا عوارفك التي
جرت في جرى الماء في الغصن الرطب

لما سمت نفسي ما أسوم من الاذى
ولا قلت أن الذنب فيما جرى ذنبي

سأستمنح الرحمى لديك ضراعة
واسأل سقياً من تجاوزك العذب

وإن نفحتني من سمائك حرجف
سأهتف يارد النسيم على قلبي

فاجابه المعتمد :

(الطويل)

لدى لك العتبي تزاح عن العتب
وسعيك عندى لايضاف الى ذنب

وأعزز علينا أن تصيبك وحشة
وأنسك ماتدريه فيك من الحب

فدع عنك سوء الظن بى وعده
الى غيره فهو الممكن في القلب

قريضك قد أبدى توحش جانب
فجاوبت تأنيساً وعلمك بى حسبي

تكلفته أبغي بـه لك سلوة

وكيف يعاني الشعر مشترك اللب

٥٦

وعندما ساءت الاحوال بين المعتمد وابن عمار خاطب الأول الثانى عاتباً ومتمثلا بهذين البيتين * :

(الطويل)

تغير لي فيمن تغـير حارث
وكل خليل غـيرته الحوادث

أحارث إن شوركت فيك فطالما
نعمنا وما بيني وبينك ثالث

فاجابه ابن عمار بقوله :

(الطويل)

لك المثل الأعلى وما أنا حارث
ولا أنا ممن غيرته الحوادث

ولا شاركتك الشمس في وإنه
لينأى بحظي ميك ثان وثالث

فديتك ما للبشر لم يسر برقه
ولا نفحت تلك السجايا الدمائث

أظن الذى بيني وبينك أذهبت
حلاوته عني الرجال الخبائث

---

* - ذ قـ٢ فصل ابن عمار ، ح صـ١٦٣

تنكرت لا أنى لفضلك ناكر
لدى ولا أنى لعهدك ناكث

ولكن ظنون ساعدتها نمائم
كما ساعدت مثنى المثانى المثالث

أبعد مضت خمس وعشرون حجة
تجافت بنا تلك الخطوب الكوارث

مضت لم ترب مني أمور شوائب
ولا تليت عنى مساع خبائث

حللت يداً بى هكذا وتركتنى
نهاباً وللأيام أيد عوابث

وهل أنا إلا عبد طاعتك التي
إذا مت عنها قام بعدى وارث

أعد نظراً لا توهن الرأى إنه
قديماً نبا هاف وأدرك رائث

ستذكرنى إن بان حبلي وأصبحت
تئن بكفيك الحبال الرثائث

وتطلبنى إن غاب للرأى حاضر
وقد غاب منى للخواطر باعث

أعوذ بعهد نطته بك أن ترى
تحل عراه العاقدات النوافث

٥٧

وكتب الى محمد بن عبد الرحمن بن طاهر اثناء ما وقع بينهما رقعة عتاب وختمها بهذه الابيات * :

(الكامل)

عندى حديث لو سمعت قليلا
ولدى نصح إن أردت قبولا

يا راكباً ظهر النجى وراكضاً
في حلبتيه أما اعتقدت نزولا

لله درك لو طلبت حقيقتي
لوجدتنى بدل العدو خليلا

خذ من عنان هواى يوماً للنهى
وانهج لرأيك في اللجاج سبيلا

وأفق من الأنف الذى تعتده
عزا فقد يدع العزيز ذليلا

* ذ نفس ٣ و ٤

٥٨

وقال عندما نكث ابن عبد العزيز أمير بلنسية العهد الذى عاهد عليه ابن عمار وهو التخلي عن أحد الحصون لقاء اطلاق سراح ابن طاهر * :

(الكامل)

خبر بلنسية وكانت جنة
أن قد تدلت فى سواء النار

غـــدرت وفياً بالعهود وقلما
عثر الوفي سعى الى الغدار

ياأهلها من غائب أو حاضـــر
وقطينها من حاضر أو سار

جازوا بنى عبد العزيز فانهم
جروا اليكم اسوأ الأقـــدار

٥ ثوروا بهم متأولين وقلدوا
ملـكاً يقوم على العدو بثار

هـــذا محمـــد أو فهذا احمد
وكلاهما أهل لتلك الدار

---

* - ح ، ص١٦٩ ، في ذ ، ق٢ فصل ابن عمار

١ - في ذ : بشر ، بدل : خبر ، نزلت ، بدل : تدلت

جاء الوزير بها يكشف ذيلها
عن سوأة سوأى وعار عار

نكث اليمين وحاد عن سنن التقى
وقضى على الاقبـــال بالادبار

آوى لينصر من نبا المثوى به
ودهاه خذلان من الأنصار

بر اليمين ولم يعرض نفســه
ونفوسكم لمصــارع الفجار

ماكنتم الا كأمة صالح
فرماكم من طاهر بقدار

هذا وخصمكم باشأم طائر
ورمى دياركم باسوأ جار

لابد من مسح الجبين فانما
لطمته غدراً غير ذات سوار

هيهات يطمع بالنجــاة لطالب
ساع اذا ونت الكواكب سار

كيف التفلت بالخديعة من يدى
رجل الحقيقة من بنى عمار

---

١٣ - في حاشية ذ ق٢ (الرباط) و٨٠ : بالأم ، بدل باشأم

رجل تطعمه الزمان فجاءه
طرفين في الاحلاء والامرار

سلس القياد الى الجميل فان يهج
فدع العنان لهبة التيـــار

طبن باغراض الامور مجرب
فطن لاســرار المكائد دار

ماض اذا برزت اليه مصمم
هون اذا التفت عليه مدار

مازال مذ عقدت يداه إزاره
.... فادرك خمسة الاشبار

كشاف مظلمة وسائس أمة
نفاع أهل زمانه الضــرار

عجباً لاشمط راضع ثدى الوغى
منه وطود في العنا الخطار

شراب أكواس المدام وتارة
شــراب أكواس الدم المواز

جرار اذيال القنا ظنوا به
قد زاركم فى الجحفل الجرار

وكأنكم بنجومه ورجومه
تهوى اليكم من سماء غبار

وأنا النصيح فان قبلتم فاتركوا
آثارها خبراً من الأخبار

قوموا الى الدار الخبيثة فانهبوا
تلك الذخائر من خبايا الدار

وتعوضوا من صفرة خبثية
بأغر وضاح الجبين مدار

٥٩

وقال حين مقامه بمرسية، يهجو المعتمد بن عبـاد زوجه اعتماد الرميكية * :

(المتقارب)

ألا حى بالغرب حياً حلالا
أناخوا جمالا وحازوا جمـالا

وعرج بيومين أم القرى
ونم فعسى ان تراها خيالا

لتسأل عن ساكنيهـا الرما (م)
د ولم تر للنـار فيها اشتعالا

أيا فارس الخيل يازيدها
حميت الحمى وأبحت العيـالا

٥ اراك تورى بحب الغسـا (م)
. وقدما عهدك تهوى الرجالا

تخيرتها من بنات الهجـا (م)
ن رميكية ما تساوى عقالا

---

* ـ ٧ ابيات في م ٤٤٨ ، ٩ ابيات في خ ، و ١١ بيتاً في عبد ج ٢

٤ ـ في ع : فيا عامر ، بدل : ايا فارس

٦ ـ في ع : اهجين ، بدل : الهجان

فجاءت بكل قصير العذا (م)
ر لئيم النجارين عماً وخالا

بصفر الوجوه كأن استها
رماهم فجاءوا حيارى كسالا

فصار الغدود ولكنهم
أقاموا عليها قروناً طوالا

أتذكر أيامنا فى الصبا
وأنت اذا لحت كنت الهلالا

أعانق منك القضيب الرطيـ (م)
ب وأرشف من فيك ماء زلالا

وأقنع منك بدون الحرا (م)
م فتقسم جهدك أن لا حلالا

سأكشف عرضك شيئاً فشيـ (م)
ـئاً وأهتك سترك حالا فحالا

٦٠

وكان له أيام اعتصـــابه بمرسيه خاتمان ، أحدهما للمعتمد والآخر لألفونس السادس ، فتندر بذلك الوزير ابن عبد العزيز وابن طاهر ، فلما وصل خبر ذلك الى ابن عمار قال * :

(الكامل)

قل للوزير وليس رأى وزير
ان تتبع التدبير بالتندير

ان الوزارة مذ لبست رداءها
رفعت على التغيـــير والنزوير

ان الوزارة لو سلكت سبيلها
وقف على التعزير والتوقير

وأرى الفكاهة جل ماتأتى به
رحماك في التعجيز والتصدير

٥ بلغت دعابتك التى أهديتها
فى خاتم التأمين والتأمير

وأظنها للطاهرى فان تكن
فجديرة التقديـس والتطهير

---

* في ح ص١٦٢ ، ذ قـ٢ ، فصل ابن عمار ، ع جـ٢ ص٩٧

٤ - في ع : في التصدير والتظفير ، بدل : في التعجير والتصدير

٦ - في ذ (القرويين) قـ٢ : فخليقه : بدل : فجدير :

ولعل يوماً أن يصير نفسه
في طيبة التطبيب والتنزير

فرسا رهان أنتما فتجاريا
لنقول في التقديم والتأخير

واذا سلكت سبيله فحقيقة
كي تتبع التطفير بالتصفير

وترى بلنسية وأنت قدارها
سيناالها التدمير من تدمير

٦١

ونزل ابن عمار في بعض حركاته بحصن شقورة فانقبضوا عن لقائه استيحاشاً منه فكتب اليهم * :

(الطويل)

أ إخوانا هل حال من دوننا امرؤ ... أحالكم أم وحشة جرها الدهر

بخلتم بلقيانا وكان نزولنا ... على جفوة منكم وإن عظم البر

وما هو الا مقطع كهوائكم ... عصيب وخلق مثل منزلكم وعر

ثقوا بي اذا عز اللقاء فما اعترى ... الى شيمتي غدر ولا بيدي سحر

* ذ ، ق-٢ فصل ابن عمار

٦٢

وحين مقامه بسرقسطة وقد بلغه أن أهلها يعيبون عليه معاقرة الراح ، فقـــال * :

نقمتم على الراح أدمن شربها ... وقلتم فتى لهو وليس فتى جد

ومن ذا الذى قاد الجياد الى الوغى ... سواى ومن أعطى الكثير ولم يكد

فديتكم لو تعلموا السر إنه ... قليتكم جهدى فابعدتكم جهدى

---

* ق ر ٩٥٠ ، ع ص ١٠٤ ، ح ، فصل ابن عمار

- في ع : مجد ، بدل : جد

٢ - في ع : كثير ، بدل : الكثير

٣ - في ع : لم تفهموا ، بدل : لم تعلموا

٦٣

وكان ابن عمار في مجلس المؤتمن بن هود ، فدخل غلام متدرع يستشير المؤتمن بن هود فى الخروج لموضع بعثه اليه فطلب منه أن يخلع درعه ويسقيهم الخمر ، فأمر المؤتمن الغلام أن يطيعه ففعل ، وفى ذلك يقول ابن عمار * :

وهويته يسقي المدام كأنه
قمر يدور بكوكب في مجلس

متأرج الحركات تندى ريحه
كالغصن هزته الصبا بتنفس

يسعى بكأس من أنامل سوسن
ويدير أخرى من محاجر نرجس

ياحامل السيف الطويل نجاده
ومصرف الفرس القصير المحبس

٥ إياك بادرة الوغى من فارس
خشن القناع على عذار أملس

جهم وإن حسر اللثام فانما
كشف الظلام عن النهار المشمس

---

* ق ص٩٦ ، ن ج٢ ص١٧٧ ، ذ ، ق .

٤ - فى ن : يضع السنان على العذار الاملس .

٥ - فى ذ (رباط) : المرتدى ، بدل : بجاده

يطغى ويلعب فى دلال عذاره
كالمهر يمرح فى اللجام المجرس

سلم فقد قصف القنا غصن النقا
وسطا بليث الغاب ظبي المكنس

عنا بكأسك قد كفتنا مقلة
حوراء قائمة بسكر المجلس

٦٤

وال في وصف غلام * :

(الكامل)

وأغيد من ظباء الروم عاط
بسالفتيه من دمعي فريد

نبيل الخلق جافي الخلق عبد
هو المولى ونحن له عبيد

قسا قلباً وسن عليه درعاً
فباطنه وظاهره حديد

بكيت وقد دنا ونأى رضاه
وقد يبكي من الطرب الجليد

وإن فتى تملكه بنقد
وأحرز رقه لفتى سعيد

---

* - م ٤٨٨ و ١٠٢ ، ق ص ٩٤ ؛ مط ذ ق ٢ ، فصل ان عمار ، السحر والشعر

٦٥

وسجن المؤتمن يوماً غلاماً كان له في نفس ابن عمار موقع حسن ، فتخلف ابن عمار عن الركوب للقصر وكتب اليه * :

(الطويل)

انا المطبق المسجون لا من سجنته
وأطبقته فانظر لعبديك أو دع

حرام حرام أن تراني عين من
تراه فان شئت ارتجاعي فارجع

ويا حسن حال الود إن سمحت يد
ولقيت فيها بالشفيع المشفع

* ذ ق ـ ٢ ، فصل ابن عمار

٦٦

وقال في سجنه فى شقورة مخاطباً الوزير ابا جعفر بن جرج حين اجتاز بتلك البقاع * :

(المتقارب)

كأنى اراك أبا جعفر تقول وتبسم نحوى مشيرا
سفرت ليرجع هـذا معى وزيراً فلم أر الا أسيرا
وهل يملك المرء من أمره فتيلا فينفـذه أم ....
هو القدر الحتم يعمى الفتى وإن كان بالدهر طباً بصيرا

* ذ قـ٢ اصل ابن عمار .

٦٧

وكتب فى مدة اعتقاله عند صاحب شقورة الى ابى الفضل بن حسداى يصف موضع اعتقاله :

(الكامل الحذاء)

أدرك أخاك ولو بقافية
كالطل يوقظ نائم الزهر

فلقد تقاذفت الركاب بـــه
فى غـــير موماة ولا بحر

طمحت صحابته بلا سنة
وتساقطوا سكرى بلا خمر

بمعارج أدت إلى جرد
حـــتي من الأنواء والقطر

عال كان الجن إذ مردت
جعلته مرقاة الى النسر

وحش تناكرت الوجوه به
حتى استربت بصفحة البدر

قصـــر تمهد بين خافقتي
نسرين من فلك ومن وكر

---

* ـ ق ص ١٠٤ ، ذ قسم ٢ فصل ابن عمار . ديوان ابن عمار .

متحير سال الوقار على
عطفيه من كبر ومن كبر

ملكت عنان الريح راحته
فجيادها من تحته تجرى

مأوى العزيز وقد نصحت فان
تهمل فقد أبليت فى العذر

ووصلت خدمة قاطع سببي
وأطعت أمر مضيع أمرى

دع ذا وصلنا غير مؤتمر
مستأثرا بالحمد والشكر

واكتبت الينا بنها ليد
تمحو الذى كتب يد الدهر

---

١٠ - فى ق : يمهل ، بدل تهمل

٦٨

وكتب عندما كان سجيناً فى شقوره الى المطرز :

(الطويل)

تراءى بعينى إن أردت مبرتى
وسبب الى الحسنى ولو بقسيم
فما شم عرف المسك دون تنشق
ولا اهتز عطف الغصن دون نسيم

* ذ قـ ٢ فصل ابن عمار

٦٩

وكتب الى صاحب المريه في مدة اعتقاله في شقورة * :

(الرجز)

أصبحت في السوق ينادى على
رأسي بأنواع من المال

فهل فتى يبتاعني ماجـــد
أخدمه مـــدة إمهـــالي

تالله لاجار على نقـــده
من ضمني بالثمن الغالي

أربح بها مولاى من صفقة
في سلعة من ترك الغـــال

* ذ ، قـ٢ ، فصل ابن عباد ، بيتان في ق ص١٠٣ .

٧٠

وكتب الى المعتمد فى مدة اعتقاله بشتورة * :

نفسى نحن الى فداء تفديك نفسى من شراء
فاسبق بنقدك وعـدهم مسترخصاً لي بالغـلاء
ثم امض في على اختيا (م) رك من فناء او بقاء
والله ما أدرى إذا قالوا غـدا يوم اللقاء
ما أقتل الحالين لي إن كان خوفي اوحيائى

* - ذ فـ ٢ فصل ابن عمار ، ح : فصل ابن عمار .

٧١

وقال وهو في سجن شقورة ، وقد استدعى نورة يستنظف بها فتمذرت عليه فاستدعى موسى فأتى بها * :

(المجتث)

بؤســى شقورة عنــدى
أربى على كل بؤسى
فقدت هرون فيها
فظلت أطلب موســى

* مع ص ١٢٤

٧٢

وكتب الى الراضي بن المعتمد * :

(الكامل)

قالوا أتى الراضى فقلت لعلها
خلعت عليه من صفات أبيه

فأل جرى فعسى المؤيد واهباً
لي من رضاه ومن أمان أخيه

قالوا نعم فوضعت خدى في الثرى
شكراً له وتيمناً ببنيه

يا ايها الراضي وإن لم يلقني
من صفحة الراضي بما أدريه

٥ هبك احتجبت لوجه عذر بين
بذل الشفاعة أى عذر فيه

سهل على يدك الكريمة أحرفاً
فيمن أســـرت فتنثني تفديه

---

* في ق ص٩٦ ؛ في ذ قسم٢ فصل ابن عمار ، في ح ، فصل ابن عمار ، في ع ج١١ ص١٠٩

١ ـ في ذ (القرويين) سمات ، بدل : صفات . وكذلك في ح .

٦ ـ في ذ (القرويين : خفيف ، بدل : سهل .

٧٣

وكتب من سجنه باشبيليه الى الرشيد بن المعتمد يطلب شفاعته له لدى أبيه * :

(الكامل)

قل لبرق الغمام ظاهر بريدى
قاصداً بالسلام قصر الرشـــيد

فتقلب في جوه كفؤادى
وتناثر في صحنه كالفريد

وانتحب في صلاصل الرعد تحكي
ضجتي فى سلاســـلي وقيودى

فاذا ما اجتلاك او قال ماذا
قلت : انى رسول بعض العبيد

٥ بعض من أبعدته عنك الليالي
فاجتنى طاعـــة المحب البعيـــد

فجزاك الاله من ملك حر (٢)
ر بقاء التمكين والتمهيد

من مطيـع عهد الوفاء مطاع
وودود على النوى مودود

---

* ذ قسم ٢ فصل ابن عمار ، ع ص ١١١ ، ح ص ١٦٧ .

كنت أشدو عليك يادوحة المجـ (م)
ـد ويا روضة الـندى والجود
إذ جناحى ند بظلك طلق
ولسـانى رطب على التغريد
وانا اليوم تحت ظل عقاب
لقوة محوة الجناح صيود
أتقيها بناظر خائق اللحـ (م)
ـظ مروع وخاطر مرؤود
غير أنى سأصطفي لك جهدى
من ثناء طيب وذكر حميد
في قليل من القوافي كثير
وذلول من المعانى شرود
كلمات كأنها الدر نظماً
طوقت منك أى طوق وجيد
أنت بدر النجوم تحت سنى الشمـ (م)
ـس أبيكم على سماء السعود
أنت ريحانة العلى لبنى عبـ (م)
ـباد السادة الكرام الصيد
أنت إما اعترضتم درة التا (م)
ج فرند الحسام وسطى الفريد

---

١٢ - في ذ (القرويين) : مجيد ، بدل : حميد .

وإذا ما مدحتم نكتة الخط .. (م)
بة قصد الحديث بيت القصيد

واذا ما ركبتم الخيل صدر ال (م)
جيش عين اللواء قلب الحديد

أنت فيهم إن يعتموا ليلة القد (م)
ر وإذ يصبحون يوم العيـــد

فهنيئاً أبا الحسين خلال
وصفات جلت عن التحديد

وشفوف على الجميع بسن
وسناء الى سنى ممدود

وهنيئاً من المؤبد حظ
لامزيد عليه للمستزيـــد

لك فى نفسه العزيزة حب
شاب فيه حلاوة التوحيد

وعلى لحظة النزيه طلوع
كطلوع البشير بالتأييـد

واذا ما سمت بذكرك شاد
قال أحسنت هزة المستعيد

---

١٤ - في ذ (القرويين) : قلدت ، بدل : طوقت .

فعلام السرى وصبح رضاه
مع سنى وجهك الاغر السعيد

وإلى أبن في الشفيع اذا ما
لم ألذ منك عنده بالرشيد

بفتى نازح المكان مطل
غائب الشخص ذى اعتناء عتيد

مشفق يستجيب لي من قريب
وانا أستغيثه من بعيد

لو أطلت علي رحمة عينيـ (م)
ـه انجلت شدتى وذاب حديدى

٧٤

وكتب من سجنه فى اشبيلية الى المأمون بن المعتمد يطلب شفاعته لدى أبيه * :

(الكامل)

هلا سألت شفاعة المأمون
أو قلت مافي نفسه يكفيني

ماضر لو نبهته بتحية
يسرى النسيم بها على دارين

وهززت منه فقد يقلب سيفه
يوم الجلاد الحين بعد الحين

مالي أبنه ناظراً لم يغف عن
حظيه من دنياه أومن دين

وأهز من عطف ثناه عطفه
حتى خشيت عليه فرط اللين

بيدى من المأمون أوثق عصمة
لو أن أمرى فى يد المأمون

أمرى الى مولى اليه أمره
وكفاه من فوق كفاه ودون

---

* ـ ذ قـ٢ فصل ابن عمار ، ع جـ٢ ص١١٠ ، ح فصل ابن عمار .

٧ ـ في ح : ملك ، بدل : مولى .

حيث استوى الخصمان حقاً والتقى
عز الغني بذلة المسكين

حيث طوى سر المهابة شخصه
لولا أسرة وجهه الميمون

جبل سما بذؤابتيه الى العلى
ورسا بهضبته على التمكين

متوقد الجنبات كل دوحه
بجنى وفجر صفحه بعيون

دانت لأيدى المجتنين قطوفة
ودنا اليهم من ظلال غصون

ونأى لأبصار العصاة فانما
يتوهمون نعيمه بظنون

بحر اذا ركب العفاة سكونه
وهب الغنى في عزة وسكون

واذا طمى للذنب لم يسمع به
الا الدعاء يعان بالتأمين

كم أسكب العذب الفرات على فمى
يرمي يدى باللؤلؤ المكنون

---

* ١٤ - في ذ (القزوينى) : في نعمة ، بدل : في عزة .

واليوم قد أصبحت في غمراته
إن لم تغثني رحمة تنجيني

بعدت سواحله علي وأدركت
أمواجه فتلاعبت بسفيني

لاشك في أنى غريق عبابه
إن لم يمد الفتح لي بيمين

يافتح جردها عناية فارس
بطل على حرب الولي أمين

متقدم من جده بكتيبة
مستظهر من لفظه بمكين

واقرن شجاعتك الكريمة عنده
بتواضع عن عزة لاهون

في سكتة من هيبة وسكينة
وبضجة من رحمة وحنين

فأبوك من يغشي الملوك بساطه
شوسا فما يرمونه بعيون

مايعرض الجبار منه لحاجة
الا برفع يد ووضع جبين

---

٢٠ - في ح : درب على قصر ، بدل : بطل على حرب ، وكذلك في ع .
٢١ - في ذ(القرويين) : من لطفه ، بدل : من لفظه .

يافتح إن نازلته مستنزلا
فاهنأ بفتح من رضاه مبين

وليخلصن اليك من أعلاقه
علق يشد عليك كف ظنين

---

٢٢ - في ح : شجاعتك ، بدل : شفاعتك .

٢٣ - في ذ (الفرويين) في شكة ، بدل : في سكتة .

٧٥

ومما قاله فى أثناء انتقاله في إشبيلية * :

(المنسرح)

يقول قوم إن المؤيد قد
حال في فديتي على نقده

ياقوم ماذا الشراء ثانية
ترى لمعنى يريب من عنده

أوحشني والسماح عادته
سماحه بالغلاء في عبده

الحمد لله إن يكن حرجاً
فليس فى مثله سوى حمده

وحيلة إن وصلت حضرته
جعلتها رغبة الى جنده

لو سامحوا في الفرند أرمقه
من طرفه لم أخفه من غمده

لكن على الغرب عارض رجل
مرتمياً بالشرار من رنده

---

* ح ص١٧٢ ؛ ذ قـ٢ ، فصل ابن عمار ، ع جـ٢ ص١١٩ .

أخضر يفتر من جوانبه
كالبحر في جزره وفى مده

يارب بشر برحمة وحياً
تؤنس من برقه ومن رعده

٧٦

وكتب الى المعتمد من سجنه يستعطفه ويقال إنها آخر قصيدة أرسلها اليه * :

(الطويل)

سجاياك إن عافيت أندى وأسمح
وعذرك إن عاقبت أجلي وأوضح
وإن كان بين الخطتين مزية
فأنت الى الأدنى من الله أجنح
حنانيك فى أخذى برأيك لاتطع
عداتى وان أثنوا علي وافصحوا
وماذا عسى الأعداء ان يتزيدوا
سوى أن ذنبي واضح متصحح
نعم لي ذنب غير أن لحلمه
صفات يزل الذنب عنها فيسفح
وإن رجائى أن عندك غيرما
يخوض عدوى اليوم فيه ويمرح

---

* ق ص١١٠ ، ذ ق٢ فصل ابن عمار ، ١٩ بيتاً في مع ص١٢٦ ، ١١ بيتا في ن جه ص١٨ ، ١٩ بيتاً في ح ص١٦٨ .

١ - في ذ : ولو ، بدل : وإن || في ذ (الرباط) اجح ، بدل : اجنح

٣ - في مع : عليك ، بدل : على

٤ - في ذ : الواشون ، بدل : الاعداء

ولم لا وقد أسلفت وداً وخدمة
يكران في ليل الخطايا فيصبح

وهبني وقد أعقبت أعمال مفسد
أما تفسد الأعمال ثمة تصلح

أقلني بما بيني وبينك من رضى
له نحو روح الله باب مفتح

وعف على آثار جرم جنيته
بهبة رحمى منك تمحو وتمصح

ولا تلتفت رأى الوشاة وقولهم
فكل إناء بالذى فيه يرشح

سيأتيك في أمرى حديث وقد أتى
بزور بنى عبد العزيز موشح

وما ذاك الا ما علمت فانني
إذا تبت لا أنفك آسو وأجرح

تخيلتهم لادر لله درهم
أشاروا نجاهي بالشمات وصرحوا

وقالوا سيجزيه فلان بفعله
فقلت وقد يعفو فلان ويصفح

---

١١ - في ذ : برأي ، بدل : بزور .
١٥ - في ذ : بذنبه ، بدل : بفعله .

ألا إن بطشاً للعؤيد يرتجى
ولـكن حلماً للعؤيد أرجح

وبين ضلوعى من هواه تميمة
ستنفع لو أن الحمام مجلح

سلام عليه كيف دار به الهوى
الي فيدنو أوعلى فينزح

ويهنيه إن مت السلو فانني
أموت ولي شوق اليه مبرح

١٧ - في ذ : يجلح ، بدل : مجلح .

فهرس القسم الأول

الصفحة	الموضوع
٣	مقدمة
٩	تمهيد تاريخي
١٩	أسرة ابن عمار
٢٠	الصفات المميزة لشخصية ابن عمار
٢٢	ثقافة ابن عمار
٢٣	ابن عمار قبل أن يلتقي بالمعتضد عام ٤٤٥
٢٩	ابن عمار منذ لقائه بالمعتضد حتى مجيء المعتمد الى الحكم عام ٤٦١
٣٠	ابن عمار في إشبيلية
٣١	الرائية
٤٠	الدالية
٤٦	ابن عمار والأمير محمد بن عباد (المعتمد)
٥٣	العودة الى إشبيلية
٥٤	ابن عمار في المنفى
٥٥	الميمية
٧٠	ابن عمار في اثناء حكم المعتمد بن عباد
٧١	ابن عمار السياسي
٨٣	ابن عمار حاكماً لشلب
٨٤	ابن عمار وزيراً أولاً لمملكة اشبيلية
٨٧	ابن عمار وقرطبة
٨٨	ابن عمار وغرناطة
٩٧	ابن عمار ومسيحيو الشمال

الصفحة	الموضوع
١٠٣	نشاط ابن عمار الأدبي أيام وزارته للمعتمد في إشبيلية .
١٠٨	**ابن عمار بين عامي ٤٧١ ـ ٤٧٧**
١٠٨	ابن عمار ومرسية
١١٣	البائقان
١٢٠	الحملة الثانية على مرسية
١٢٤	تمرد ابن عمار في مرسية
١٤٢	ابن عمار وطليطله
١٤٥	ابن عمار في سرقسطة
١٤٨	ابن عمار في سجن شقورة
١٥٢	ابن عمار في سجن المعتمد
١٥٤	التهم الموجهة لابن عمار
١٥٦	نشاط ابن عمار الادبي في سجن إشبيليه
١٦٥	مصرع ابن عمار
١٦٦	أحكام المؤرخين المسلمين على ابن عمار
١٦٨	**القيمة الأدبية لشعر ابن عمار**

فهرس القسم الثاني

فهرس الموضوعات والاغراض

الصفحة	رقم القصيدة	موضوعها او غرضها
١٧٥	-	ديوان ابن عمار
١٧٩	-	المصادر الرئيسية لهذا الديوان
١٧٩	-	ديوان ابن عمار
١٨٠	-	ابن الأبار ، الحلة السيراء
١٨٠	-	ابن بسام ، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة
١٨٣	-	ابن دحيه الكلبي ، المطرب في أشعار أهل المغرب
١٨٤	-	ابن سعيد الناشر اليعمري ، نصوص اندلسية
١٨٥	-	عماد الدين الاصبهاني ، خريدة القصر وجريدة أهل العصر
١٨٥	-	ابو العباس الجراوي ، الحماسة المغربية
١٨٦	-	مصادر أخرى
١٨٨	-	المختصرات المستعملة في الحواشي
١٨٩	١	في مدح المعتضد بن عباد ملك اشبيلية
١٩٥	٢	« « « « « ووصف انتصاره على البربر
٢٠٠	٣	في مدح المعتضد بن عباد
٢٠١	٤	« « « « «
٢٠٣	٥	« وصف الليل
٢٠٤	٦	« مدح المعتضد
٢٠٥	٧	« « «

الصفحة	رقم القصيدة	موضوعها او غرضها
٢٠٧	٨	في عتاب ابى الوليد بن زيدون
٢٠٩	٩	« الشكوى والاستعطاف والمدح ، كتبها الى محمد بن المعتضد من منفاه في سرقسطة
٢٢٠	١٠	في الغزل
٢٢٣	١١	« معاتبة ابى الوليد بن زيدون وطلب شفاعته له عند المعتضد
٢٢٥	١٢	في مدح المعتضد بن عباد
٢٢٧	١٣	« « « « «
٢٢٨	١٤	« وصف زورق
٢٢٩	١٥	« « طبق فضة مذهب الباطن
٢٣٠	١٦	أرسلها مع هدية للمعتمد في يوم عيد
٢٣٠	١٧	كتبها في يوم غائم وقد احتجب
٢٣٢	١٨	في وصف مؤذن
٢٣٣	١٩	« « مجلس أنس ومدح المعتمد
٢٣٤	٢٠	كتب المعتمد الى ابن عمار يدعوه لمجلس أنس ، فأجابه ابن عمار
٢٣٥	٢١	في مدح المعتمد بن عباد
٢٣٦	٢٢	كتبها الى المعتمد يحضه على اللحاق ببعض نسائه .
٢٣٧	٢٣	في الغزل
٢٣٨	٢٤	« أستنجاز حاجة

الصفحة	رقم القصيدة	موضوعها او غرضها
٢٣٩	٢٥	في استنجاز حاجة
٢٤٠	٢٦	« الغزل
٢٤٢	٢٧	« «
٢٤٣	٢٧	« وصف كأس من الخمر
٢٤٤	٢٩	« « غلام جميل
٢٤٥	٣٠	« الفخر
٢٤٦	٣١	« وصف الخرشف
٢٤٧	٣٢	« « القلم
٢٤٨	٣٣	« « يوم غائم
٢٤٩	٣٤	« « فارسين تبارزا فطعن أحدهما الآخر
٢٥٠	٣٥	في هجاء شخص اسمه مسلم
٢٥١	٣٦	« « مغن « ابو الفضل
٢٥٢	٣٧	« الغزل
٢٥٣	٣٨	« وصف جدول يصب في غدير
٢٥٤	٣٩	« التغزل بغلام
٢٤٥	٤٠	« وصف قصر الدمشق بقرطبة
٢٥٦	٤١	« « رسالة .
٢٥٧	٤٢	كتب ابو الحسن بن الجد كاتب ابن عمار أبياتا اليه يستأذنه فى الرحيل فأجابه ابن

الصفحة	رقم القصيدة	موضوعها او غرضها
		عمار عليها
٢٦٨	٤٣	كتبها الى ابى الحسن بن اليسع مجيباً عن رساله
٢٦٠	٤٤	كتب ابن رزين الى ابن عمار ابياتاً فاجابه عليها
٢٦١	٤٥	كتبها لابن رزين يعتذر فيها عن عدم تعريجه عليه
٢٦٣	٤٦	كتبها الى ابن لبون مع تفاح وأجاص
٢٦٤	٤٧	« « أحد معارفه مع تفاحتين ورمانتين
٢٦٥	٤٨	« « المعتصم بن صمادح يستأذنه فى الرحيل
٢٦٦	٤٩	كتبها الى المعتصم على لسان بعض الشعراء
٢٦٧	٥٠	قالها عند رحيله من المريه للمعتصم بن صمادح
٢٦٩	٥١	عاتب المعتصم بن صمادح ابن عمار بأبيات فأجابه على ذلك
٢٧٢	٥٢	كتبها الى ابى عيسى بن لبون معتذراً ومجيباً على ابيات
٢٧٨	٥٣	فى عتاب بني عبد العزيز حكام بلنسية
٢٨٩	٥٤	كتبها الى المعتمد معتذراً ، فاجابه المعتمد على ذلك بابيات
٢٨١	٥٥	كتبها الى المعتمد معتذراً بعد فشل الحملة

الصفحة	رقم القصيدة	موضوعها او غرضها
٢٨٤	٥٦	عاتبه المعتمد بأبيات فأجابه ابن عمار على ذلك الاولى ضد مرسية ، فاجابه المعتمد بعد حملته
٢٨٤	٥٧	كتبها الى ابن طاهر يعاتبه
٢٨٧	٥٨	كتبها محرضاً أهل بلنسية على الثورة ضد بني عبد العزيز
٢٩١	٥٩	في هجاء بني عباد
٢٩٣	٦٠	ارسلها الى ابن عبد العزيز مستنكراً ومهدداً
٢٩٥	٦١	في عتاب سادة حصن شقوره
٢٩٦	٦٢	في الفخر وهجاء أهل سرقسطة
٢٩٧	٦٣	« التغزل بغلام
٢٩٩	٦٤	« « «
٣٠٠	٦٥	« الشناعة في غلام
٣٠١	٦٦	كتبها لى احد معارفه فى التشكي من الزمان
٣٠٢	٦٧	كتبها من سجنه في شقورة الى العضل بن حسداى يشكو
٣٠٤	٦٨	كتبها من سجنه في شقورة الى المطرز
٣٠٥	٦٩	« « « « « « صاحب المرية
٣٠٦	٧٠	« « « « « « المعتمد
٣٠٧	٧١	شكوى
٣٠٨	٧٢	في استعطاف الرامى بن المعتمد
٣٠٩	٧٣	يستعطف الرشيد بن المعتمد ويطلب شفاعته

لدى ابيه
٣١٣ ٧٤ يستعطف المأمون بن المعتمد ويطلب شفاعته
٣١٧ ٧٥ خواطر واستعطاف ، كتبها للمعتمد من سجنه
٣١٩ ٧٦ كتبها الى المعتمد من سجنه يستعطفه وهي آخر قصائده

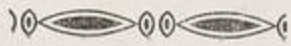

فهرس المطالع والقوافي والبحور

الصفحة	رقم القصيدة	مطلعها	قافيتها	بحرها
١٨٩	١	ادر الزجاجة فالنسيم قد انبرى	السرى	كامل
١٩٥	٢	الا للمعالي ماتعيد وما تبدى	تبدى	طويل
٢٠٠	٣	وفيت لربك فيمن غدر	كفر	متقارب
٢٠١	٤	الكأس ظامية الى يمناكا	لقياكا	كامل
٢٠٣	٥	اتاك الليل معتكراً	البدر	هزج
٢٠٤	٦	إنا عبدك او يقول مصدق	بخيل	طويل
٢٠٥	٧	أشاقك برق ام جفاك حبيب	رحيب	»
٢٠٧	٨	تأملت منك البدر فى ليلة الخطب	الجدب	»
٢٠٩	٩	على والا مابكاء الغمائم	الحمائم	»
٢٢٠	١٠	جاه الهوى ـ فاستشعروه ـ عاره	أوراه	كامل
٢٢٣	١١	كيف اعتززت على الدليل	الوصول	كامل مجزوء
٢٢٥	١٢	على اليمن والطائر السانح	للبارح	متقارب
٢٢٧	١٣	اني كل يوم تحفه و تفقد	يؤكد	طويل
٢٢٨	١٤	وجارية مثل الهلال الفتها	رقيق	»
٢٢٩	١٥	وسماء من الغنى قد اسالت	لجين	خفيف
٢٣٠	١٦	لما رأيت الناس يحتشدون فى	بابه	كامل
٢٣١	١٧	تجهم وجه الافق واعتلت النفس	الشمس	طويل
٢٣٢	١٨	هذا المؤذن قد بدأ بأذانه	رحمانه	كامل
٢٣٣	١٩	ما ضر ان قيل اسحاق ومرصله	واسحاق	بسيط

الصفحة	رقم القصيدة	مطلعها	قافيتها	بحرها
٢٣٤	٢٠	لبيك لبيك من مناد	الندى	بسيط مجزوء مقطوع
٢٣٥	٢١	لله درك ما تملق ناظرى	تحصيل	كامل
٢٣٦	٢٢	مولاى عندى لما تهوى مساعدة	السارى	بسيط
٢٣٧	٢٣	أما أنا فتيم	كيف	كامل مجزوء
٢٣٨	٢٤	أهزك لا أنى عهدتك ناسياً	التغاضيا	طويل
٢٣٩	٢٥	يانسيم الثناء هب فنبه	عبده	مذسرح
٢٤٠	٢٦	وما لحمام الايك تبكيك كلما	شذيب	طويل
٢٤٢	٢٧	نفسى وان عذبتها تهواك	لقياك	كامل
٢٤٣	٢٨	الكاس جامد ماء	نار	مجتث
٢٤٤	٢٩	قرأت كتابك مستشفعاً	رده	متقارب
٢٤٥	٣٠	إنى ابن عمار لا أخفى على أحد	والقمر	بسيط
٢٤٦	٣١	وبنت ترب وماء جودها أبداً	البخل	»
٢٤٧	٣٢	نحن خليلان ما دعانا	اختيار	بسيط مجزوء مقطوع
٢٤٨	٣٣	يوم تكاثف غيمه فكأنه	أخضر	كامل
٢٤٩	٣٤	كم من شجاع قدته تحت الردى	كالأرسان	»
٢٥٠	٣٥	روائح مسلم قذرة	دسره	وافر مجزوء
٢٥١	٣٦	غنى ابو الفضل فقلنا له	الفضل	سريع
٢٥٢	٣٧	رشا يرنو بنرجسه ويعطو	أقاح	وافر
٢٥٣	٣٨	ومطرد الاجزاء يصقل متنه	ضميره	طويل

الصفحة	رقم القصيدة	مطلعها	قافيتها	بحرها
٢٥٤	٣٩	تلقته جهورى النجار	الثنايا	متقارب
٢٥٥	٤٠	كل قصر بعد الدمشق يذم	المشم	خفيف
٢٥٦	٤١	تهتز فى حلى الندى	الصبا	رجز مجزوء
٢٥٧	٤٢	كتبت . . . . بالرحيل	دخيل	متقارب
٢٥٨	٤٣	أهلا بقربك لو يطول مقام	منام	كامل
٢٦٠	٤٤	ضمان على الأيام أن أبلغ المنى	معلناً	طويل
٢٦٢	٤٥	لقاؤك النجح لو أعقبته سفرى	نظرى	بسيط
٢٦٣	٤٦	خذها كما سفرت اليك خدود	نهود	كامل
٢٦٤	٤٧	خذوها مثلما استهديتموها	اللئام	وافر
٢٦٥	٤٨	ياوافقاً وصل السماح	السماح	كامل
				مجزوء ومذيل
٢٦٦	٤٩	ياايها الملك الذى شاد العلا	المنصور	كامل
٢٦٧	٥٠	ألفظك ام كأس الرحيق المعتق	المنمق	طويل
٢٦٩	٥١	فديتك لا تزهد فثم بقية	التجارب	»
٢٧٢	٥٢	عطلت من حلى السروج جيادى	صعادى	كامل
٢٧٨	٥٣	تناهيتم في برنا لو سمحتم	وسيم	طويل
٢٧٨	٥٤	أصدق ظني أم أصيخ الى صحبي	الركب	»
٢٧٩	٥٥	أأركب قصدى أم أعوج مع الركب	صعب	»
٢٨١	٥٦	لك المثل الأعلى وما أنا حارث	الحوادث	»
٢٨٠	٥٧	عندى حديث إن سمعت قليلا	قبولا	كامل
٢٨٧	٥٨	خبر بلنسية وكانت جنة	النار	»

الصفحة	رقم القصيدة	مطلعها	قافيتها	بحرها
٢٩١	٥٩	ألا حي بالغرب حياً حلالا	جمالا	متقارب
٢٩٣	٦٠	قل للوزير وليس رأى وزير	بالتدبير	كامل
٢٩٥	٦١	أ إخوانا هل حال من دوننا أمر	الدهر	طويل
٢٩٦	٦٢	نقمتم على الراح أدمن شربها	جد	»
٢٩٧	٦٣	وهويته يسقي المدام كأنه	مجلس	كامل
٢٩٩	٦٤	وأغيد من ظباء الروم عاط	فريد	»
٣٠٠	٦٥	انا المطبق المسجون لا من سجنته	دع	طويل
٣٠١	٦٦	كأنى أراك ابا جعفر	مشيراً	متقارب
٣٠٢	٦٧	أدرك أخاك ولو بقافية	الزهر	كامل حذاء
٣٠٤	٦٨	تراءى بعينى إن أردت مبرتى	بقسيم	طويل
٣٠٥	٦٩	أصبحت فى السوق ينادى على	المال	رجز
٣٠٦	٧٠	نفسي نحن الى فداء	شراء	رجز مجزوء
٣٠٧	٧١	بؤسى شقورة عيدى	بؤسى	مجتث
٣٠٧	٧٢	قالوا أتى الراضي فقلت اعلها	أبيه	كامل
٣٠٩	٧٣	قل لبرق الغمام ظاهر بريدى	الرشيد	خفيف
٣١٣	٧٤	هلا سألت شفاعة المأمون	يكفيني	كامل
٣١٧	٧٥	يقول قوم إن المؤيد قد	نقده	منسرح
٣١٩	٧٦	سجاياك إن عافيت اندى	وأوضح	طويل

أهم مصادر البحث

- ابن الأبار ، الحلة السيراء . مخطوط في المكتبه الوطنية في مدريد (نسخة مصورة منه فى مكتبه كلية الآداب والعلوم ببغداد)
التكمله لكتاب الصلة القاهرة

- ابن بسام (ابو على الحسن) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، القسم الاول ، طبع في جزءين فى القاهرة ١٩٣٩ و ١٩٤٢ .
القسم الثانى . نخسه مصورة في مكتبه كلية الآداب والعلوم ببغداد
مخطوط الرباط رقم ١٣٤٢
مخطوط القرويين (اجزاء متفرقة)
مخطوط مكتبه الآثار ببغداد

- ابن خاقان (الفتح) ، قلائد العقيان ، ط بولاق ١٢٨٣ .
مطمح الانفس ومسرح التأنس في ملح اهل الاندلس ط . الاستانه ١٣٠٢

- ابن الخطيب (لسان الدين) ، أعمال الاعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام ط الرباط من قبل لبفي بروفنسال .
السحر والشعر ، مخطوط الاسكوريال رقم ٤٢٠

- ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ط القاهرة ١٣١٠

- ابن خلدون ، كتاب العبر وديوان المبتدا والخبر ، بولاق ١٢٨٢
- ابن دحية الكلبي ، المطرب في أشعار أهـــل المغرب ، مخطوط المتحف البريطانى رقم ١٦٣١ .
- ابن زيدون (ابو الوليد احمد بن عبدالله) ، ديوان ، ط القاهره ١٩٣٢ من قبل كامل الكيلانى .
- ابن ظافر ، بدائع البدائه بولاق ١٢٧٨
- ابن سعيد (عبد الملك) ، المغرب فى أخبـــار أهل المغرب ، القاهره ١٩٥٢ من قبل شوقي ضيف
- ابن سيد الناس اليعمرى ، نصوص اندلسية ، مخطوط الاسكوريال رقم ٤٨٨
- ابن عذارى البيان المغرب فى اخبـــار المغرب ، ج ٣ ط باريس ١٩٣٠ من قبل ليفي بروفنسال
- ابن عمار (ابو بكر محمد) ، ديوان ، مخطوط القرويين في فاس رقم ١
- ابن ليون التجيبي ، نفح السحر فى اختصـــار روح الشعر ، مخطوط الرباط ٣٣ ١
- ابو الفـــداء ، تقويم البلدان ، ط باريس ١٨٤٠ من قبل رينو ودى سلان
- الأندلس (مجلة) ، مدريد ١٩٣٥ ، ج ٢

- الحميدى ، جذوة المقتبس ، القاهرة ١٩٥٢ من قبل محمد بن تاويت
- الجراوى (ابو العباس) ، الحماسة المغربيه ، مخطوط الاستانه (مصور)
- شوقى ضيف (انظر ابن سعيد)
- صلاح خالص ، المعتمد بن عباد وشعراؤه (تحت الطبع)
اشبيلية فى القرن الخامس (تحت الطبع)
- عبد الله بن زيرى ، مذكرات ، الأندلس ، ج ٣ ١٩٣٥
- عماد الدين الاصبهانى ، خريدة القصر وجريدة أهل العصر ، ج ١١
مخطوط باريس رقم ٣٣٣٠
- عبد الواحد المراكشي ، المعجب ، القاهرة ١٩٤٩ من قبل محمد سعيد العريان
- عبد السلام الطود ، بنو عباد فى إشبيليه ، طنجه ١٩٤٩
- كامل الكيلانى ، (انظر ابن زيدون)
- ليفي بروفنسال ، (انظر ابن عذارى وابن الخطيب)
- محمد بن تاويت ، (انظر الحميدى)
- محمد سعيد العريان ، (انظر عبد الواحد المراكشى)
- محى الدين عبد الحميد ، (انظر المقرى)
- المعتمد بن عباد ، ديوان المعتمد بن عباد ، القاهرة
- المقرى (احمد بن محمد) ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب ، القاهرة ١٩٤٩ من قبل محى الدين عبد الحميد .

أهم المصادر الأجنبية

Dozy . R - Hisroire des musulmans d'Espaqne . Nouvelle edition . revue et mise au Jour par Levi - Provencal

Scriptorum arabum Loci de Abbadides . Leyde 1846 - 1853 . 3voL .

Garcia - Gomez . Une eclipse de la poesia en Sevilla a la epoqua Almoravides . Madrid . 1945

Poemas Araibgoandaluces. Collection Austral 1945 .

Gonzalez Palencia A ; - Historia de literatura Arabigo - espanola , Collection Labor . 1945 .

Levi, - Provencal, - Islam d'occident, ed . maisoneuve Paris . 1948 .

(انظر ابن الخطيب ، ابن عذارى)

Menendez Pidal - Espana del cid . Madrid 1947 2 vol ,

Nykle (A . R) - Hispano - arabic poetry and its relations with old provencal troubadours . ed . Paltmor 1946

Peres (Henri) . La poe'sie andalouse en arabe classique au xl eme siecle , Paris 1947 .

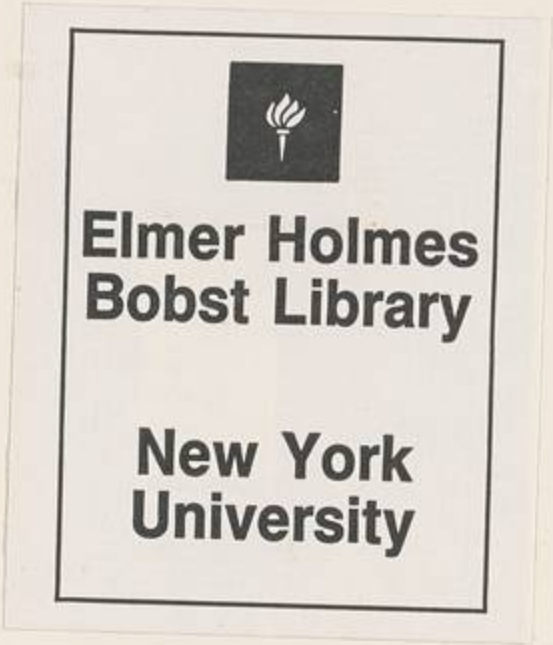
Elmer Holmes
Bobst Library
New York
University

NYU - BOBST
31142 01241 3293
PJ7755.I199 Z7
Mu¨ammad